A Y M A N   A L . O T O O M

الطبعة 1

رواية

أيمن العتوم

رؤوس الشياطين



أيمن العتوم

رؤوس الشياطين

رواية

(1)
الخَمرة لا تُحبّ مَنْ لا يُحبّها

ماتتْ أُمّه العام الفائت، ودُفِنَتْ في المقبرة الفوقا إلى جانب أخَواتِها السّتّ؛ كانتْ أصغرهنّ، وآخرهنّ موتًا. دُفِنتْ كُلُّ أُختٍ إلى أختها مُتجاوراتٍ في صَفٍّ مُنتظَم، كما لو كُنّ يُعلِنَّ أنّهنّ اتّحدْنَ في المأساةِ قبل الموتِ وبعدَه، أو رُبّما كُنّ يَقُلن: «ما بَعثرتْه الدّروب تجمعه القبور».

النّوم نِعمة. النّوم نِقمة. النّوم قاتِلٌ إذا أقبل، وقاتِلٌ إذا أدبر، وقاتلٌ إذا رضي، وقاتلٌ إذا سَخِط، محبوبةٌ غير مُطيعة، وخليلةٌ غير واصِلة، ومُشتهاةٌ مُتمنِّعة، وقريبةٌ بعيدة!! كيفَ ينامُ ذو هَمّ. لكنّ الهموم مثلُها مثلُ أيّ شيءٍ آخَر خلقَه الله، تنتهي، فلماذا لا يزوره النّوم بعدَ ذلك؟! ولكنْ: هل فِعلاً تنتهي الهموم؟!

لم ينمْ منذُ عشر سنين، ليس على سبيل المجاز، بل على الحقيقة، كلّما ألقَى بجسده المُنهَك على الفِراش، فتّحَ الأرقُ عينَيه، كأنّ بينه وبين الغَمض حربًا. اللّيل في الصّيف حارّ، ومن هنا في هذه الغرفة الّتي استأجرها في فندقٍ رخيص وسط البلد تفوحُ بعضُ الرّوائح الكريهة. لعنَ الفقر، والحاجةَ، والحظّ، والفندق،

(1)
الخَمرة لا تُحبّ مَنْ لا يُحبّها

ماتتْ أُمّه العام الفائت، ودُفِنَتْ في المقبرة الفوقا إلى جانب أخَواتِها السّتّ؛ كانتْ أصغرهنّ، وآخرهنّ موتًا. دُفِنتْ كُلُّ أُختٍ إلى أختها مُتجاوراتٍ في صَفٍّ مُنتظَم، كما لو كُنّ يُعلِنَّ أنّهنّ اتّحدْنَ في المأساةِ قبل الموتِ وبعدَه، أو رُبّما كُنّ يَقُلن: «ما بَعثرتْه الدّروب تجمعه القبور».

النّوم نِعمة. النّوم نِقمة. النّوم قاتِلٌ إذا أقبل، وقاتِلٌ إذا أدبر، وقاتلٌ إذا رضي، وقاتلٌ إذا سَخِط، محبوبةٌ غير مُطيعة، وخليلةٌ غير واصِلة، ومُشتهاةٌ مُتمنِّعة، وقريبةٌ بعيدة!! كيفَ ينامُ ذو هَمّ. لكنّ الهموم مثلُها مثلُ أيّ شيءٍ آخَر خلقَه الله، تنتهي، فلماذا لا يزوره النّوم بعدَ ذلك؟! ولكنْ: هل فِعلاً تنتهي الهموم؟!

لم ينمْ منذُ عشر سنين، ليس على سبيل المجاز، بل على الحقيقة، كلّما ألقَى بجسده المُنهَك على الفِراش، فتّحَ الأرقُ عينَيه، كأنّ بينه وبين الغَمض حربًا. اللّيل في الصّيف حارّ، ومن هنا في هذه الغرفة الّتي استأجرها في فندقٍ رخيص وسط البلد تفوحُ بعضُ الرّوائح الكريهة. لعنَ الفقر، والحاجةَ، والحظّ، والفندق،

وصاحبَ الفندق، والنّوم، وهمّ بأنْ يلعنَ نفسَه، قبل أنْ يتراجَع، ويقلبَ على جنبه الآخَر، أغمضَ عينَيه في محاولةٍ جديدةٍ لكي ينام، لكنّهما تأبّتا عليه، فَكّر في الحقيبة الجلديّة الحليبيّة الّتي يحتفظُ بها في خِزانة الغرفة، خُيّل إليه أنّ أحدًا سرقَ شيئًا من محتوياتها، فقفز على قدمَيه مذعورًا، ركضَ باتّجاه الخِزانة، فتحها بسرعة، وشدّ سَحّاب الحقيبة العتيقة، وأزاحَ بيدَيه أطرافَها وارحَ يتفقّد موجوداتها بعناية، بعدَ دقائق تنهّد: «لم تمتدّ إليها يدٌ، كلّ شيءٍ فيها على حاله». ارتاح، وعادَ إلى فِراشه، حاول النّوم من جديد، لم يُفلِحْ، تناهَى إليه صوتُ بعضِ السّكارى في الشّارع الممتدّ أمام الفندق يتصايَحون، شَمّ رائحة الخمر تفوح من أفواههم، عَبَرَتِ الرّائحة الشّارع من ضِفتّه البعيدة إلى الضّفة القريبة حيثُ مدخل الفندق، وصعدت الدّرجات مثل الرّوح، ضبابيةً خفيفة، كان يراها بأنفه، ثُمّ مخرت ذلك الأنف، وأعادَتْه إلى زمنٍ سحيق، لَعَنَهم هم الآخرين، ولكنّ لَعَناتِه المُتتابِعات لم تجلبْ له لحظَة نومٍ واحدة، وارحَ يتقلّب، وهو يمسح العرقَ المُتصبّب عن جبينه بطرف شرشف السرير القَذِر، شمّ رائحة بولٍ من جديد. كيفَ ينام؟!

نهضَ من فِراشِه في السّادسة صباحًا، لم تكنْ

عيناه قد ذاقتا طعمَ النّوم لحظة، نزلَ عند (أبو ياسين الفوّال)، كان يبيعُ الفول على عربةٍ مطليّة بالأخضر، يظهر من خلفها بجثّته الضّخمة ورأسه الكبيرة، ولا يكاد يُرى منه إلا نصف صدره من خلف العربة لِقِصَره، قِدْرُ الفول في الصّباح يغلي، تنبعثُ منه أدخنة الطّبخ، تصلُ روائحه إلى آخر الشّارع الّذي لا ينتهي، قال له الفَوّال وهو يدفع له صحنَ الفول المعتاد، ويسحبُ بإبهامه (مُغّيط) الجنّادات الّتي تُمسك بنطاله العريض: «النّهار اليوم قائظ، والحرارة ستشتدّ بعد قليل، لن تمشي اليومَ كثيرًا؟». رمقَه بعينَين ذابلتَين، وأخذَ صحنه، وأدارَ له ظَهره، قال له وهو مُولٍّ: «الحساب؟». عادَ وركزَ له نصفَ دينارٍ معدنيّ على القائمة اليُمنى للطّاولة. قوائم العربة الّتي تحمل المظلّة مطليّة بالأحمر، اللّون المُثير بالنّسبة له. مشى إلى المخبز، ثلاث خُطوات، وأحسّ بلهب النّار الخارج من الفرن، ورائحة الخبز النّاضج، الرّوائح عنده لا تختلط، يستطيع أنْ يميّزها، ويُحسّ بها كاملةً دون أنْ يشعر بارتباك فيها أو تداخل؛ في خياشيمه ألفُ ألفِ حسّاس، لكلّ رائحة منفذٌ منها لا يجور على سواه. اشترى رغيفًا ساخِنًا من المخبز بعشرة قروش، ثُمّ جلسَ على مقعدٍ حجريّ مُتهالك تظهر منه قُضبان الحديد خلفَ الإسمنت، وراحَ يأكل بشهيّة، تلمّظ، وهو يلعقُ اللّقمة

الأخيرة في صحنه، وعبرته موجةُ سعادةٍ غريبة؛ لأوّل مرّةٍ ربّما من سنةٍ يأكل بهذه الشّهيّة. أشعل سيجارتَه، ومضى نحو كشك القهوة، توقّعه (سُمعة القهوجي)، كان قد بدأ بالفعل بإعداد كوبه من القهوة؛ أوقدَ تحتها النّار، ذابت، علت حرارتُها بعدَ الذّوبان، لم تحتملْ حَرَّ ما أُوقِدت من أجله فَغَلت، ثُمّ فارت، ثُمّ سالت وشالت، ثُمّ اندلقَ بعضُها على الجوانب فأحدثَ نشيشُها صوتًا موسيقيًّا، اختلطت بالنّار فازداد لهيبُها، شَمّ رائحتها الأسطوريّة فسرى في رُوحه الخَدَر، تذكّر ما كان يقوله له الشّيخ عنها: «إنّها خمرة الصّالحين» فتبسّم. رفع سمعة الرّكوة النُّحاسيّة ذات اليد الخشبيّة مسافةً عالية، وسكب القهوة في الكوب باحتِراف، ومدّه إلى صاحبه، عَدّ النّقود المتبقّية معه، إنّها قليلة، ولكنّها تكفيه يومَين أو ثلاثة، وماذا يريدُ أكثَر من ذلك؟ تناولَ قهوته بتلذّذٍ آخَر مع سيجارته، ومشى. مشى في الشّارع الممتدّ أمام الفندق، كان النّاس يستيقظون، والشّارع بدأ يمتلِئ بسيّارات الأجرة الّتي بدأ الموظّفون يحشرون أنفسهم فيها ذاهبين إلى أعمالهم، وأصواتُ بعضِ الباعة راحَ يملأ المكان. وهو؟ ليسَ لديه وظيفة، بالأحرى، كانت لديه وظيفة، في الحقيقة كانت لديه وظائف كثيرة، لكنّه اليوم عاطلٌ تمامًا عن العمل، وماذا ينفع تذكّر الماضي إذا كانت هذه الذّكريات تثقب

القلب، لكنْ ماذا إذا كان القلب قد انخرق لكثرة ما فيه من ثقوب، وصارت الدّماء ترشح من كلّ خَرْقٍ فيه، لن يهمّه الدّم، القلبُ الّذي لم يعدْ موجودًا لم يعدْ مؤلِمًا نزيفُه، كثرةُ النّزيف تُهوّن القَرْح. تنهّد وهو يتذكّر تلك الأيّام، ونفضَ رأسَه لكي يتخلّص من شريط الذّكريات، إنّه لا يُريدُ أحزانًا جديدة، وما فائدة اجترار البؤس، إذا كان هذا البؤس رفيقًا دائمًا، وصديقًا مُخلِصًا؟! ومشى. مشى من دون غاية، ولا هدف. الشّارع طويل، وبإمكانه أنْ يظلّ ماشيًا حتّى تكلّ قدَماه، أو تحرقه الشّمس، أو يذبحه العطش، والوقت؟ ليسَ له أيّ قيمة، ليسَ هناك من أحدٍ ينتظره، لا زوجة، لا أبناء، لا وظيفة، لا أصدقاء، لا أهل، حتّى أمّه الّتي كانتْ نقطةَ الضّوء الوحيدة في حياته، ماتت، ماتت وهو في أشدّ أزماته، كأنّ الأقدار كانتْ تريدُ له أنْ تلسعه بسوطها في الوقتِ الّذي كان هو في أمسّ الحاجة إليها. ولِذا، فليظلّ ماشِيًا حتّى يجدَ لهذه الطّريق نهاية؟ ولكنْ لماذا تطول النّهايات إلى هذا الحدّ الّذي يبدو أنّه لا نهاية لها؟!

عشرُ سنواتٍ مرّتْ على ذلك اليوم، اليوم الّذي خَسِرَ فيه زوجته الأولى، ما زال إلى اليوم يعتبرها أفدح خساراته وأكبر خيباته، مع أنّه لا يُمكن عَدّ قطرات المُحيط، كانتْ خيباته أكبر من ذلك.

حينَ وُلِد سمّاه أبوه (ماركس)، كان أبوه سِكّيرًا، لا يكاد يصحو من الشُّرب، درسَ في (روسيا) أيّام ما كانت الدّولة تبتعث الفقراء إليها ليدرسوا بالمَجّان، وأُعجِبَ بالفكر الشّيوعيّ، وبشخصيّة (ماركس) فأراد لابنه أنْ يكون عظيمًا مثل مُلهِمه هذا، لكنّ أمّه الّتي بكتْ كثيرًا، وانتظرتْه أكثر أصرّتْ أنْ تُسمّيه (صالح) على اسم أخيها الكبير الّذي كانتْ تُحبّه وكان يعرف الله أكثر مِمّا يعرفُ النّاس، ولكنّ أباه هدّدها بالطّلاق إنْ هِيَ أصرّتْ على ذلك، لم تتراجع الأمّ بسهولة، فاحتكموا إلى مختار القرية، ولم يتوصّلا إلى اتّفاق، إلى أنْ قال لهما: «يجب أنْ نُلغِيَ الاسمَين حتّى نُلغي الخلاف الّذي بينكما، يُمكن أنْ تُسمّوه (نديم)، فالنّديم يُمكن أنْ يكون معناه المُنادِم على الشُّرب، وبهذا نُرضي الأب، ويمكن أنْ يكون مثل الشّيخ العلاّمة (نديم الملاّح) وبهذا نُرضِي الأمّ». ووافق الطّرفان على مَضض، ومَضَوا فسجّلوه في شهادة الميلاد بهذا الاسم، وإنْ ظلّ الأب يناديه (ماركس) ويُفخّم اسمه ويُمطّه إغاظةً لأمّه، وبقيت الأمّ تناديه (صالح) في السّرّ، وفي الأوقات الّتي يكون فيها أبوه غائبًا.

حينَ صار عمره سنتَين، تلا أبوه عليه البيان الشّيوعيّ الأوّل، وقال له: «هذه مبادِئكَ في الحياة؛

فحذارِ أنْ تحيدَ عنها». وأخذتْه أمّه في أحضانها ذلك المساء، وتلتْ عليه ما تيسّر من سورة (يس) لكي تُطهّره من الرّجس الّذي بَصَقَه أبوهُ في وجهه.

حينَ صار عمره ستّ سنوات، كان أبوه قد بدأ يهوي في وادي المرض المُظلم بسبب إدمانه على الخمر، أدمنَ أبوهُ كذلك على أفلام (الكاوبوي) وأفلام الغرب الأمريكيّ، وكان يُمكن أنْ تسمع صيحاتهما الحماسيّة معًا وهما يشاهِدان في الفلم مبارَزَة بالمُسدّسات، أو لعبة الموت، حينَ يُدير رجل الكاوبوي طاحونة المُسدّس الّتي تحمل رصاصةً واحدةً، ثُمّ يصكّها بقوّة داخل بوتقتها، فلا يدري إلاّ القدر أين تكمن الرّصاصة، ثُمّ يضع المُسدّس على رأسه، ويضغط على الزّناد، كانتْ لعبةً عبثيّة، وكانتْ أنفاسهما وأنفاس اللاّعبين في الشّاشة تنقطع انتظارًا لِما سيحدث بعدَ أنْ يضغطَ الكاوبوي على الزّناد، هل ستكون الرّصاصة في بيت النّار، فتنطلق من الفوهة فتهشّم رأسَه ويسيل دماغه من تحت قُبّعته أمْ ينجو؟ وكان كلاهما يُصاب بخيبة أمل، إذا لم يُدوّ صوتُ الطّلقة فيبعث باللاّعب إلى الجحيم في لحظة. وما قيمة هذه اللّعبة الرّائعة إذا لم تنطلق الرّصاصة؟! وما قيمة الفوز إذا نجا الاثنان ولم يمتْ أحدُهما؟! أمّا الخيول الّتي كانتْ تركضُ في

الحقول، فكان قلباهما يركضُ معها، وأنفاسُهما تلهثُ للهاثها، وكم هوتْ تلك الخيول في الحُفر، أو انفجرتْ بها الألغام، أو حزَتْ عنقها أسلاكٌ شائكة، أو عثرتْ فرمتْ بالفارس من فوقها فاندقّ عنقه، كان الموت الّذي يبعثُه جُمُوح الخيل يُصيبهما بالنّشوة؛ وكانا ينتظران طويلاً، ربّما الفيلم إلى آخره حتّى يحظيا بتلك النّشوة العارمة!

أمّا في الصّيف فكانت أمّه، الّتي ظلّت دموعها تسيل في داخلها على ما ترى من أبيه، تأخذه إلى الشّيخ ليتعلّم القرآن، وكان إذا جلسَ متربّعًا أمام الشّيخ تظلّ رُكَبُه تهتزّ كجناحَي ذُبابة. فإذا تعب، راح جذعه يهتزّ يمنةً ويسرةً. فإذا تعب، راح صدره يعلو ويهبطُ، وهو يترنّم بالقرآن يتلوه، كأنّه موسيقى تهتزّ له جوارحه، حَفِظَ البقرة في أسبوع، ويومَ أنْ حفِظَها ظنّ الشّيخ أنّه أمام أسطورة، فقام وقبّله، وقال له: «أنتَ ذكيّ جدًّا، إنّكَ تحفظُ كما لو كنتَ تقرأ». وكان هو يبتسمُ ابتِسامةً خفيفةً لا يظهر من خلفها أيّ شيءٍ من أسنانه. ثُمّ لمّا أنْ حفظ نصفَ القرآن في ثلاثة شهور، قال له الشّيخ: «أنتَ حبرُ هذه الأمّة في هذا الزّمان، وسأُسمّيك ابن عبّاس». وطلبَ من أمّه أنْ تبعثَ به إليه بعد المدرسة كُلَّ يوم، وواظب التّلميذ الاستثنائيّ على

الحضور إلى المسجد في الوقت المُحدّد تمامًا، وجُنّ به الشّيخ، فراح يُعلّمه التّفسير، وقرأ عليه تفسير القرطبيّ، فكان الصّبيّ يحفظُ ما يقرأ منه، وما يسمع. ولم يُصدّق الشّيخ أنّه أمام طفل، وتركَه ذاتَ مرّة وحده في المسجد، وراح يركضُ في الشّارع واضعًا يديه فوقَ عِمامته، لا يدري ما يفعل، ولا يدري من أينَ هبطَ اللّه بهذا العقل إلى البشر. ولمّا تعبَ الشّيخ، عادَ إليه، فوجده يستظهر ما بقي له من الجزء الأوّل من تفسير القرطبيّ. فاشترى طبقًا كامِلاً من الحلوى ووزّعه على النّاس، وصارَ كلّما أتمّ الصّبيّ جزءًا من القرآن، ابتدر إلى الدُّكّان فاشترى تللك الحلوى، وبدأ بالصّبيّ: «أنتَ أولى النّاس بالتّهنئة»، ثُمّ يطوفُ بها على بقيّة روّاد المسجد أو المارّة في الشّارع.

بعدَ سنةٍ، كان الصّبيّ قد حفظ القرآن كامِلاً، وبعدَ سنةٍ أخرى كان قد حفظَ عددًا من التّفاسير، واستوقفَ الشّيخَ أكثرَ من مرّةٍ عندَ الأرقام الّتي تنتثر في القرآن، انتثار ورود الرّبيع في السّهل الفسيح، وسأله: «لماذا (يحمل عرشَ ربّك فوقَهم يومئذٍ ثمانية؟)، لِمَ لم يكونوا عشرة، لماذا هذا الرّقم بالذّات، وسأله: لماذا (بعثْنا منهم اثنَي عشر نقيبًا) لِمَ لمْ يكونوا عشرين؟ وسأله: لماذا (اختار موسى قومَه سبعينَ

رجلاً) لِمَ لمْ يكونوا ثمانين؟، وسأله: لماذا (يومًا عندَ ربّك كألفِ سنةٍ مِمّا تعدّون)؟ لِمَ لمْ يكنْ كعشرة آلاف سنة؟ وسأله: لماذا (عليها تسعةَ عشر) لِمَ لمْ يكونوا خمسةَ عشرَ؟ وسأله لماذا (آيتُكَ ألاّ تُكلم النّاسَ ثلاثةَ أيّامٍ إلاّ رمزًا) أفلا تكون الآية في أسبوعٍ أو يومٍ أو أكثرَ أو أقلّ؟ لِماذا هذه الأرقامُ بالذّات؟!». ولم يجد الشّيخُ جوابًا شافِيًا يُجيبُ به عن أسئلته الّتي لم يتركْ فيها الصّبيّ رقمًا في القرآن إلاّ سأل عنه، وكان يكتفي بالابتِسام أحيانًا، وبهزّ رأسه أو حكّ طربوشه أحيانًا أخرى. وجمَعَ له الشّيخ أهل القرية، وأهل العِلم، والرّجال، والنّساء، والصّبيان، والجواري، وقال لأمّه: «هذا نابغة، وأنا أخاف عليه. سنقيم له حفلة، ولا بُدّ أنْ نرفعَ أمره إلى الدّولة، إنّه عقلٌ جَبّار». وفي الحفلة تلك، قرأ على الشّيخ محفوظه من كتاب الله، وكان يختار له المواضع من القرآن، ليُثبتَ للحاضرين وخاصّة أهل العلم أنّهم أمام نابغةٍ من نوعٍ لا يُمكن أنْ يتكرّر، وكان إذا بدأ الصّبيّ بالآية لا يتوقّف حتّى يُوقِفه الشّيخ، ثُمّ إنّ عقله كان يُعدّد له الكلمات المُتشابهة في القرآن، فيُحصيها له عددًا، ثُمّ يُبيّن له في أيّ السّور وردت، وأيّ الآيات، وأرقامها، ثُمّ يذهب إلى ما كان اشتقاقًا منها فيذكره، وأهل العِلم ذاهِلون، وعيونهم شاخصةٌ مُعلّقةٌ به لا تكاد تطرف، وكان يقول له: «ما

تقول يا ابن عبّاس في قوله تعالى...». فيسأله الصّبيّ: «أقول أنا أم يقول القرطبيّ أم يقول الطّبريّ أم يقول ابنُ كثير...؟» فيُوقفه الشّيخ من تدفّق الكلام على لسانه، ويسأله: «بل ما تقول أنت؟». فيشرحُ ما أرادَ له العِلم. وكانتْ أمّه بعدَ كلّ جملةٍ تكاد تقفزّ من مجلسها لتحتضنه، وكانتْ دموعها تسيل حارّة على خَدّيها فرحًا، وأمّا أبوه فكان يبصقُ على الأرضِ طَوال الوقت.

ولمّا انتهى الحفل، قال له أبوه: «كلّ ما علّمه لكَ الشّيخ هُراء... كلّ ما حفظْتَه مهزلة، اتْبَعْني تعرف العلم الصّحيح، والأيّام بيني وبين أمّكَ الفاجرة، ستُثبتُ لكَ أيُّنا على حَقّ!».

ظلّ قلبُه مع أبيه وإنْ لم يكرهْ أمّه، لكنّه كان يراها كما يراها أبوه؛ ساذجة، غريبة الأطوار، تُؤمن بالخرافات، وتواظب على عددٍ من الصّلوات الغريبة. وتبع أباه لمّا صار في الثّانية عشرة، فكان أبوه يُمسكُ ديوان أبي نواس، فيقرأ عليه:

دَعْ لباكِيها الدّيارَا

وَانْفِ بالخَمْرِ الخُمارا

ثُمّ يكرع من الكأسِ خمرته، ويتمايل، وهو يقرأ البيت الثّاني:

تَدَعُ اللّيلَ نَهارا

ثُمّ يقول لابنه: «هاتِ كأسًا أسكبُ لك من هذا الشّراب يا بُنيّ، فإنّكَ لن تشعر بطعم هذه القصيدة إلاّ إذا شربت». ويحدّق الولد في عينَي أبيه الحمراوَين، وأوداجه المنتفخة، ويصرخ فيه أبوه: «ألم تسمعْني؟ هاتِ كأسًا». ويقفز الولدُ من موضعه، ويأتي بالكأس، ويسكبُ له أبوه، ويشرب الولد، ويتقيّأ، ثُمّ يسكبُ له أبوه مرّة أخرى: «اشربْ فإنّ الخمرة لا تُحبّ مَنْ لا يُحبّها، واتلُ معي سِفْرَ مَنْ خلّدها؛ هل حفظتَ هذه القصيدة يا ماركس؟». فيجيبه ابنُه: «لقد حفظتُ ديوانَ أبي نواسٍ كلّه يا أبي». «فكيفَ وجدْتَه؟». «لا أدري، عليّ أنْ أعرفَ مَنْ مدح الخمر قبله أو بعده حتّى أقرّر». ويسكبُ له أبوه كأسًا عاشرة: «اشربْ، فإنّ المال إنْ لم نُتلِفه في هذه الصّهباء، فأيّ شيءٍ يستحقّ هذا الكرمَ سِواها؟!». «وهل خمرُنا وخمر أبي نواس واحدةٌ يا أبي؟». «هي كذلك». «كذبتَ يا أبي، الخمر في الكأس غير الخمر في الرأس». ويكسر أبوه الكأس الّتي في يده، ويصرخ بابنه: «وماذا تعرفُ أنتَ من الخمر؟». ويتلو عليه، قول حَسّان:

كأنّ سبيئةً من بيتِ رأسٍ

يكون مِزاجَها
عسلٌ وماءُ

فيردّ الابن: «فاذهبْ بِنا إلى بيتِ رأس حتّى نستطيع الحُكم»، فيصرخ الأب، وهو يهتزّ كساق شجرة طريّة عبثتْ بها الرّيح:

لَمّا صَحَا وَتَراخَى العيشُ قلتُ لهُ

إنّ الحياةَ، وإنّ الموْتَ مِثلانِ

فَاشْربْ مِنَ الخَمْرِ ما آتاكَ مَشْرَبُهُ

واعلمْ بأنْ كلُّ عيشٍ صالحٍ فانِ

فيسأله ابنُه: «أهو هو؟». فيُجيبه الأب: «هو هو، ولو شِئتُ لأنشدْتُكَ المِئين من الأبيات في حُبّها، ولطلع النّهار من بعدِ النّهار، وغاب اللّيل من بعد اللّيل وأنا أتلوها عليك. لكنْ دونكَ المكتبة، فاحفظْ شِعْر الخمر، فإنّه أدَعى إلى المروءة والكرم، ألم تسمع التّغلبيّ حينَ قال:

تَرَى اللَّحِزَ الشّحيحَ إذا أُمِرّتْ

يكونُ لمالِهِ فيها مُهينا؟».

ولم يَلِجِ الولدُ عامَه الرّابع عشر حتّى كان يحفظ ديوان امرئ القيس والمُعلّقات وديوان المتنبي والبحتري وأبي تمام وأبي نواس وأبي العتاهية، والبيان الشيوعي، وألفيّة ابن مالك، والقرآن الكريم، وتاريخ ابن الأثير، ومحاورات أفلاطون، والإشارات الإلهيّة للتّوحيديّ، وعددًا من التّفاسير، وعددًا آخر لا يُحصَى من الكتب والنّصوص.

شكّل هذا كلّه تعبًا من نوعٍ لذيذ، كان يرى نفسَه مختلفًا عن الآخَرين، وكان تفوّقه هذا مدعاةً لحسد الأولاد في المدرسة، فكانوا يقولون: «نديم حافظ ومش فاهم، إنّه غريب». وكانوا إذا رأوه مُقبِلاً من بعيدٍ مُتعثّرًا في مشيته، يترنّح، تهامَسوا فيما بينهم: «جاء حافظ... جاء حافظ». ويتصنّعون الجِدّية، قبل أنْ ينعتوه حينما يمرّ بجانبهم ببعضِ النّعوتِ القبيحة، أو يشتمونه ببعض الشّتائم، وكان يرى أنّهم أسخف المخلوقات الّتي تدبّ على الأرض، ولم يشعر تُجاههم في حياته بالمُنافسة ولو مرّة واحدة، فقد كان يشعر أنّه يحلّق بعيدًا في سماواتٍ زرقاء لا حدود لها، وأنّهم ليسوا أكثر من نملٍ مُصابٍ بالرّعدة لمجرّد أنْ يروه. وتكرّرت هذه العبارة المتوجّسة: «جاء حافظ... جاء حافظ» كثيرًا، فكان الأولاد ينادونه به حين يرونه،

وحلّ هذا الاسم (حافظ) تدريجيًّا في المدرسة محلّ (نديم)، وأُضِيفَ إلى قائمة الأسماء الطّويلة الّتي يحملها!

(2)

مَنْ يَسْتَبدِلُ العاجِلَ بالآجِلِ؟!!

جدّه لأبيه لقيطٌ، وَجَدَه أحد المُصلّين في المسجد القديم أمام الباب، فصاح: «طفل أيّها الإخوة، رضيع، مَنْ يتكفّله؟». ومطّ المُصلّون الخارجون للتوّ من صلاة الفجر شِفاههم، واستعاذوا باللّه من الشّيطان الرّجيم، ولعنوا الزّانية وابنها، وهتفَ أكثرهم: «إلى جهنّم وبِئس المصير» قبل أنْ يَمضُوا إلى أعمالهم، انتظر كثيرًا قبل أنْ يفرغَ المسجد من كلّ أحدٍ، ويُضطرّ هو إلى حَمْلِه إلى البيت. قالتْ له زوجته: «ابن حرام، ما شأنُنا به؟» فردّ: «نربّيه لوجه اللّه». ردّتْ عليه وهي تزعق: «والقطط العشرة الّتي بزرتُها لك في شَبَقِك الجنسيّ؟!». بكى الرّضيع، فرقّ قلبُ المرأة، وسكتت، أعطتْ زوجَها ظهرها، وقالت: «ضَعْه إلى جانب أخيه الرّضيع الآخَر في السّرير نفسه. من حظّه أنّ تديي ما زال مُمتلئًا».

لكنّه لا يذكر من جدّه شيئًا، إلاّ ما كان يُحدّثه به أبوه عنه لِمامًا: «كان يبيع العنب في فلسطين، يقطع الوديان، ويعبر الصّحارى، ويصعدُ الجِبال، وينام مع الذّئاب، ويُنشِدُ الأشعار، ويُحادث المخلوقات الّتي لا تُرى، وكان يُصاحب الجنّ في الطّريق ليأمن شرّهم،

وكان يغيبُ عن أمّي كثيرًا، حتّى تظنّ أنّه مات، وحينَ يعود، يكون قد اشترى لها إسورةً من الذّهب، وحينَ تلبسُها فَرِحةً، تسأله ونظرات الشّكّ في عينَيها تخترقه: أَمِنْ بَيْعِ العنب؟». لكنْ لا أحدَ يدري، وذلك أمرٌ مضى منذ عهدٍ بعيد، ومَنْ يستطيع أنْ يسألَ الموتى عن ذنوبهم، وقد أكل الدّود من عيونهم، وأبلى رِقّة جلودهم؟!

كان يمشي، الطّريق طويلة، النّاس جُثثٌ مُحنّطة تسير بأربطتها المُهترئة في الشّارع، البنايات كُتلةٌ باردةٌ من اللّون الأزرق. والأصواتُ قيءٌ لوحوشٍ أسطوريّة. والرّوائح مومِساتٌ تطلبُ جنسًا رخيصًا. والسّيّارات دِبَبة لزجة تنزلق في الإسفلت. ومشى.

صارتِ السّاحة الّتي تُطلّ على المدرّج الرّومانيّ عن يمينه، رأى بعضَ السُّيّاح الأجانب، كانوا يبدون فرحين، إحداهنّ سألتْ صديقَها بالفرنسية: «هل مرّ يوليوس قيصر من هنا؟». أجابَها صديقُها مُتعجّبًا: «لقد توفّي قبل أنْ يُبنى المدرّج، لعلّك تقصدين مادريانوس؟». توقّف ينظر إلى التّاريخ الماثل أمامه في الحجارة، كانت الحجارة تنطق، مرّ سيّاحٌ كثيرون من جانبه وهو صامتٌ ساكنٌ لا يتحرّك، لم يرهم وإنْ سمعَ أصواتَهم، تحدّثت بجانبه أفواهٌ بالإنجليزيّة

وأخرى بالألمانيّة والإسبانيّة والإيطاليّة وحتّى الهنديّة، وكان يعرفُ اللّغات كلّها، مزّقته الظّنون: «حتّى في موتهم جاؤوا بالأحياء إلى هنا». تركَ القهوة الّتي ما تزال في يده، وضعها في إحدى السّلاّت، وتوجّه عبر السّاحة الفسيحة الممتدّة أمام المدرّج إلى حيثُ المسرح، في السّاحة تخيّل أنّ أقوامًا قبل الرّومان عبروها، ربّما عاشوا هنا منذ ثلاثة آلاف سنة، رآهم، سمع أحاديثهم، وساءَه أنّهم كانوا يتحدّثون عن إصلاح التّعليم، سَمِعَ أحدهم يقول: «أولاد هذا الزّمان تافِهون، إنّهم مهتمّون بملاعبة الخيل ومغازلة النّساء عن الفلسفة». منذ زمنٍ فقدَ أنواعًا كثيرةً من اللّذّة، ماتت مواطن الشّعور بها أو نامت، هل تنام اللّذّة؟! سمع سيبويه وهو يُحتَضَر حينَ سأله أخوه: «ما تشتهي؟»، فردّ عليه: «أشتهي أنْ أشتهي!!». وها هو يشتهي أنْ يشتهي. يشتهي أنْ يعرف، يشتهي أنْ يُدرك، يشتهي أنْ يشعر، ويشتهي أنْ يقول... جلس على أوّل حجر في الصّفّ الأوّل من مقاعد الجمهور في المدرّج، نظر إلى المسرح الحجريّ العتيق، كان خالِيًا إلاّ من بعض السُّيّاح، سرحَ بخياله بعيدًا، بدأ عددٌ من الممثّلين الإغريق يصعدون المسرح، في الأسفل رأى جوقةً من الموسيقيّين تعزفُ لحنًا حزينًا، انتفضَ له، نفضَ رأسه، يُدركُ تمامًا أنّ هذا غير ممكن، فالّذين ماتوا قبل أكثر

من ألفي عامٍ لا يُمكن أنْ يخرجوا من قبورهم ليُعِيدوا تمثيل مسرحية (أوديب) لسوفوكليس، لكنّه يراهم، هل بعدَ الرّؤية برهان؟! هل يكون البصرُ خادِعًا إلى هذا الحدّ؟! الممثّلون في الفصل الأخير من المسرحيّة أتمّوا صُعودهم إلى المسرح، بدأ يسمعُ أصواتَهم، نقيّة واضحة، تتردّد في جَنَبات المدرّج، اختلطَ لِباسُ الممثّلين الإغريقيّ بلباس أهل الحاضرة من الأوروبّيّين، لكنّه لم يسمع غير صوت الممثّلين، باللغة الإغريقيّة القديمة، إنّه يعرفها كذلك، لا لأنّه تعلّمها، لا يدري كيف، ليس هناك من سبب معقول، لكنّه يسمعها ويفهمها! رأى (أوديب) وهو يفقأ عينَيه، فتسيلان على خدّه، وهو يصرخ: «ستظلاّن في الظُّلمة فلا تَريان مَن كان يجب ألاّ ترياه، ولا تعرفان مَن لا أريد أن أعرف بعد اليوم، حتى لا ترى الشمس المُقدّسة إنسانًا دَنِسًا فَعَلَ أكثرَ الجرائمِ بشاعة». قام وركضَ نحو المسرح، تجاوز جوقة العازفين، وقفز إلى الأعلى، وأمسكَ بكتفَي أوديب: «اخرسْ... اخرسْ أيّها الكلب، لن أعيشَ في الظّلمة، ولستُ مجرمًا، هؤلاء...» وأشار إلى الحجارة، فرأى الجمهور الإغريقيّ يصرخ فيه: «انزل أيّها البائس.. تَنَحَّ أيّها اللّعين». وآخرون يتصايحون: «من أين جاء هذا المجنون؟». وركضَ إليه حَرَس المسرح، مُشهرين سُيوفَهم، فأرخى ساقَيه للرّيح، وركضَ خارجًا،

وهو يلعنُ الكذب الّذي غَطّى العالَم، وركضَ، حتّى تجاوز ساحة الفورم، وصار في الشّارع مرّة أخرى، التقطَ أنفاسَه من لُهاثَه، وأعادَتْه أبواقُ السّيّارات إلى الواقع، شتَمه سائقٌ كادَ أنْ يدهسه وهو يعبر الشّارع: «انتبه أيّها المتسوّل، هل أنتَ أعمى؟». وعادَ إلى الرّصيف، ومشى.

ظلّ يمشي، كان يصطدم بالأعمدة والنّاس، هل هو بالفعل أعمى؟ إنّه لا يراها، ولكنّه يشعر بألم الاصطِدام، والنّاس تنظر إليه مرّةً وهي تُشفق على هيئته الرّثّة، ومرّة وهي تقول: «مجنون!». وآخرون: «سِكّير». «ملعون». «يتحرّش بالأطفال». «لا بُدّ أنْ نُخبر الشّرطة». «إنّ هذا الرّجل وقح». لكنّه لم يكنْ يسمعهم، كانتْ أُذناه تلتقطان أصواتًا أخرى، أصواتًا قادمةً من جُبّ سحيق، من ماضٍ بعيد، ومن أناسٍ ماتوا قبل آلاف السّنين.

وصل إلى موقف الحافِلات الكبيرة، كان الموقف شاسِعًا يمتدّ على مساحةٍ واسعة، يعجّ بالنّاس، بالخيالات المتحرّكة، فكّر في أنْ يركض دون أنْ يتوقّف، ركضَ بالفعل، ركضَ باتّجاه حافلةٍ تهمّ بالانِطلاق، اصطدمَ بمقدّمتها بقوّة، وسَقَطَ على الأرض، رأى شيئًا ما من جسده يهوي مثل حجرٍ في بِئرٍ مظلمة،

صرخ: «سيُغمَى عَلَيّ». ركضَ إليه عددٌ من السّائقين، وعندما عاينوه عرفوه: «إنّه يأتي كلّ يومٍ إلى هذا المكان ويرمي نفسه على مقدّمة الحافِلات». شحطوه مثل كلبٍ أجرب، وجرّوه إلى الرّصيف، هتفَ أحدهم: «ابن الحرام لا يكفّ عن فعلته هذه، إنّه يريدُ أنْ يحصل على بعضِ المال». أشفقَ عليه أحدُ المارّة، قدّم له زجاجةً من الماء، كرعها دفعةً واحدة، وقامَ يمشي.

تخلّى عن فكرة الرّكض، ومضى عبر الشّارع الطّويل جِدًّا، وصل إلى انحناءةٍ من انحناءاته البعيدة، كانت السّيّارات قد تفرّقت في الطّرق الفرعيّة، قبلَ أنْ يصل إلى هذه الانحناءة فقلّ عددُها، الضّجيج هدأ، ورأسُه هدأتْ، والأفكار فيها انسحبتْ إلى قعر دماغه، ووجدتْ هناك ملاذًا ولو مؤقّتًا للكُمون. تابعَ سيرَه، صار يرى قناة الماء عن يمينه، نُهَيرٌ صغير، في قاع هذا الوادي تتجمّع فيه المياه القذرة وبقايا مياه الشّتاء الفائت، أشجار الصّفصاف الّتي تنتشر بكثرةٍ على ضفّته البعيدة عن الشّارع أعطَتْه شعورًا بالرّاحة، نظر إلى الماء ذي اللّون الأخضر الدّاكن ينساب في القناة، فهمّ بأنْ يغطسَ فيه، أنْ يرمي نفسَه من هذا المكان إلى هناك، لعلّه ينعم ببعضِ البرودة، جسدهُ يشتعل، أعوامه تشتعل، وكلّ شيءٍ فيه يُنذِر بنارٍ لن تنطفِئ. لكنّه فكّر أنّ ذلك سوف

يجعل الحيتان تخرج فتبتلعه، وهتف: «لن أكونَ صيدًا سَهْلاً».

حدّق في الماء من جديدٍ، وتذكّر ذلك اليومِ البعيد، حينَ كان يسبح في بركةٍ في قريته تمتلئ بمياه السماء كلما أعطى الشّتاء ظهرَه للجِبال البعيدة، كانتِ السّباحة متعته الأولى، يتذكّر أولاد المدرسة الّذين كانوا يسبحون معه، كان يراهم طُفيليّات، حيوانات ناطِقة، ومجموعة من البُلَهاء، وكان يتركهم يفرغون من سِباحتهم جالِسًا عارِيًا بالكامل على طرف البركة، خلقنا اللّه عُراةً فلماذا نتمرّد على ما خلق، بأنْ نُغطّي هذا الطّين المسنون؟! كان يجلسُ صامِتًا، عاقِدًا رُكبتَيه إلى صدره، بادِئًا باهتزازاتٍ خفيفة، ثُمّ تعلو رويدًا، حتّى يتحوّل جسده الضّئيل إلى كُتلةٍ لحميّة مُرتجّة، وكانوا يصرخون فيه: «حافظ هل تخافُ من الماء؟ إنْ كنتَ رَجُلاً فانزل إلينا». ويظلّ صامِتًا حتّى خرجَ اثنان من ضِخام الجثّة الأشِدّاء فقاما بحمله ورَميه في البركة، فسقطَ مثلَ قِطّ مذعور في وسطهم، وتولّى آخر ذو ذراعٍ قويّة فأمسكَ برأسه ودفعه إلى الماء عميقًا، وهو يصرخ فيه: «مُتْ، المدرسة لا ينقصها عددٌ آخَر من المجانين... مُتْ أيّها اللزّاقة الدَّبِقة». كان يختنق، ويودّ لو يصرخ، ويستغيث، أو يسأل لماذا يفعلون ذلك معه،

ولكنّهم لم يكونوا ليسمعوا شيئًا، كانتْ رِجلاه تتخابطان في الماء تبحثان عن نجاة، وكذلك يَداه، ورأى ووجهه في الماء ضفدِعًا تمدّ يدها ذات الأصابع الثّلاث إليه تريدُ أنْ تُنقِذه، وميّزها، كانت خضراء داكنة، وفمها يقول له: «لن تموت، سآخذكَ معي إلى الشّاطِئ. قاومْ، لن يستطيعوا أنْ يقتلوكَ وأنا إلى جانبك»، كانتْ عيناها تبكيان لأجله، واسعتَين، زُجاجيّتَين، ورأى في بؤبهما الأسود حُنُوًّا عميقًا، وشاهدَ فيهما أباه كذلك، وهو يقول له: «لن يأخذوك منّي بهذه السهولة، نحن لا نموتُ يا بُنيّ، اصمدْ قليلاً». ونقّت الضّفدع في الماء، وخرجت فقاعات من الماء من فمها الواسع، وهمّ أنْ يسألها: «كيفَ تنقذ ضفدعٌ صغيرةٌ بشريًّا مثلي؟». لكنّ اليد الغليظة الّتي تُمسِكُ بشَعره الطّويل ظلّتْ تضغطُ على رأسِه من الأعلى، وظلّ هو يبحثُ عن خيط الحياة وهو يسمع قهقهاتهم تأتي كأنّها أصواتُ غولة، والماء يدخل في جوفه حتّى فقد الوعي، وارتخى جسده، وكفّ عن المقاومة، وهناك تركه الأولاد، وعادوا إلى بيوتهم كأنّ شيئًا لم يكنْ. طفا جسدهُ فوقَ البركة، ولاحظَه أحدُ الفلاّحين العائدين من الحقول قُبيلَ الغروب، ظنّ أنّها ماعزٌ سقطتْ خطأً في الماء فنفقتْ، لكنّه لمّا اقتربَ شُدِه لهذا الطّفل الغارق، كان جسدُه منتفخًا، سحَبَه إلى طرفَ البركة، كان جُثّة، وذهبَ به على بغلته إلى

المستوصف، وهناك، قال له الطّبيب وهو ينظر إلى وجه الفلاّح مُتشكّكًا: «هل هو ابنك؟ إنّه ميّت. لكنْ لا بأس من المحاولة». نقله أبوه في سيّارة استأجرها إلى المستشفى، وظلّ مُغمًى عليه ثلاثة أيّام، حتّى استفاق في اليوم الرّابع دون سابق إنذار، كأنّ ميّتًا يُمكنه أنْ يعود إلى الحياة هكذا ببساطة، ودون أنْ يتوقّع أحدٌ. عندما استفاق رأى وجه أمّه فتكدّرتْ ملامحه، شهقتْ، وراحت تُهلّل، وتبكي، وتحمد الله على عودة ابنها. ولمّا رأى وجه أبيه، حرّك شفتَيه يهمّ أنْ يقول شيئًا، ولكنّ أباه أشار إليه أنّه يعرفُ ما رأى، وأنّه سيكون لديهما وقتٌ كافٍ فيما بعدُ ليقصّ عليه رؤياه، ولكنّ ذلك لم يمنعه أنْ يقول له جملةً واحدةً: «لقد رأيتُ يا أبي كلّ شيءٍ».

رأيتُ ماركس وهو يكتبُ بيانه الأوّل، أملاهُ عليّ حرفًا حرفًا. ورأيتُ لينين وهو مُسجّى في التّابوت، ونمتُ إلى جانبه ثلاثَ ليالٍ، وألقى النّاس علينا التّحايا معًا وهم يذرفون دموعًا نُحاسيّة. ورأيتُ ابنَ عبّاس وهو يُنشِد رائيّة عمر بن أبي ربيعة، وأنشدتُها للنّاس المتحلّقين حوله بعدَ أنْ فرغ من آخرها إلى أوّلها كما ودّ أنْ يفعل ولم يفعل أمام الأعراب الّذين جاؤوا ليسألوه عن مسائل الفِقه. ورأيتُ حافظ الشّيرازي

جميلاً كأنّ وجهه فِلقة القمر، وحفظتُ عنه كلّ أشعاره، هل أُنشِدكَ يا أبي ما قال...؟ قال كلامًا حُلوًا:

ألا يا أَيُّها السّاقي، أَدِرْ كَأْسًا وَناوِلْها

فَإنّي هائِمٌ وَجْـدًا، فلا تُمْسِكْ وَعَجّلْها

بَدا لِي العِشْقُ مَيْسُورًا، وَلكِنْ دارَتِ الدُّنيا

فَأَضْحى يُسْرُهُ عُسْرًا، فَلا تَبْخَلْ وَناوِلْها

ورأيتُ أبا نواس، يدخل الدّير، ودخلتُ معه، وقال لصاحب الدّير الّذي كان يتلفّت حوله خائِفًا من شُرَط هارون الرّشيد: معنا أبو نواس الصّغير، فاسكبْ له الكأس، وادعُ قِيانَكَ يُغنّين. فجِئنَ كأنّما برزْنَ من الجنّة، بَضّات، يسيل منهنّ الزُّبد، تهتزّ أردافهنّ، وترتجّ أثداؤهنّ، ويتمايلنَ كأنّما أصابتْهنّ رَعشة اللّذّة، ويَثغين وَلَهًا كأنّما صدَرْنَ عن شَبَق، ونفرْن من لؤلؤ الحديث عن طَبَق، وظللنَ يسقيننا طبقًا عن طَبَق، ونحنُ في بُستانٍ من العَبَق، وأبو نواسٍ يقول: الميدانُ لمَن سَبَق، والدّنيا لمن أَبَق، والآخرة لمن فَرَق، وأنا من ذلك كلّه في غَرَق، أغنّي مع قريني:

يا دارَ حَنّة من ذاتِ الأُكيراحِ

مَنْ يَصْحُ عنكَ؛ فإنّي لستُ بالصّاحي

رأيتُ فيكَ ظِباءً لا قُرونَ لها

يَلْعَبْنَ مِنّا بألبابٍ وأرواحِ

ورأيتُ (نديم) نادِمًا على ما فات من الشّباب في غير خَمْر، ومن العُمر في غير ذِكْر. وغبرتْني ساعةُ تَرَحٍ وفرح فما أدري أيّهما أقربُ إليّ؟! واستحوذتْ عليّ هَبَواتٌ من طربٍ وخُمول فما أدري أيّهما كان أنا؟!

ورأيتُ (صالح) قد اقتعدَ حشيةً من الصّوف مع أهل الصُّفّة في المسجد النّبويّ فلمّا رآه أبو هريرةَ قامَ إليه فقبّله، وسأله: أُدعُ أهلَ زمانك. فقال: أنا أهلُ زماني، فطافَ علينا بوعاءٍ فيه لبن، فشربْنا كلّنا ورَوينا، وكُنّا عددَ الطّيور في الجبال، فلمّا وصل الوعاء إليّ كان قد جفّ؛ فعجبتُ يسقي كلّ هؤلاء ولا يسقيني، فقال أبو هريرة مُعزّيا لي: إنّما لبنُكَ في الجنّة، فقلتُ: «مَنْ يستبدل العاجل بالآجل؟!! إنّما أريدُ أنْ أشربَ الآن، وأنا لَغِب، قد تشقّق فَوْداي من شدّة العطشِ كما ترى...» فقاطعه أبوه: «حسبُك، قد بلغتَ الغاية؛ أرأيتَ؟ سقاكَ أبو نواس ولم يسقِكَ أبو هريرة!». فردّ على أبيه: «اصمتْ؛ فإنّ خيرًا من أبي نواس قد سقاني. قامَ إليّ الخَيّام يرافقه شخصٌ آخَر لم أكنْ أعرفه من قبلُ، ولم أدرِ إنْ كان نِظامَ الملك أم حسنَ الصّبّاح، قام من زاوية

المسجد ولم أكنْ قد رأيتُه من قبل في تلك الزّاوية، كأنّما نبتَ من عتمتها، فابتدرني، وفي يده كأسٌ من البَلّور يترقرقُ ما فيها من الخمر فتذكّرتُ حسّانًا وهو يهوي بها إليّ في ديار الغساسنة العامرة، قائلاً:

بزجاجةٍ رَقَصَتْ بما في قَعْرِها

رَقَصَ القَلُوصِ براكبٍ مُستعجِل

فضحك الخَيّام، وقال: هو ذاك، وعندي خيرٌ مِمّا قاله حسّان، فأنشدْتُهُ، وأنا أكرعُ كأسه:

فهاتِ حبيبي لِيَ الكَأْسَ هاتِ

سَأَنْسى لَها كُلَّ ماضٍ وَآتِ»

(3)
الأدبُ أعظمُ ما أنتجتْه الإنسانيّة

وعاد في الشّارع الطّويل إيّاه، ينظر في الأرض ذاهِلاً عن النّاس، عن الأثواب الّتي تتأرجح في الجانبين، عن السِّيقان الّتي تمشي مُسرعةً في كلّ اتّجاه، عن الأصوات الّتي تسبح في الأثير، وعن السّيّارات، والأشجار الّتي لم تغيّر عادَتها في الوقوف منذ عشرات السّنين. العالَم فاسدٌ ضالّ مُتداعٍ مَخبول عَبَثيّ. وظلّ يمشي إلى أنْ وصل إلى الفندق. كان أبو ياسين قد دفعَ عَرَبته، وسار بها إلى بيته في جبل الجوفة ينتظر صباحًا جديدًا كي يكسبَ رِزْقه، وكان سمعة القهوجي يجلسُ على كرسيٍّ أمام قهوته، ينتظر هبوط الشّمس حتّى يتوافد إليه الزّبائن، وقهوة المساء أحنّ من قهوة الصّباح، وفيها خيالاتٌ أبعدُ، والذّكرى فيها تنشطُ من عقالها، وتخرج من قيعانٍ بعيدة الغَور!

وعَنّ بباله أن يسأل سمعة أو أحدَ صِبْيانه عن أمّه، ولكنّه تذكّر أنّها ماتت، فدخل إلى الفندق، ورأى صاحب الفندق على الباب يُحدّق فيه بنظراتٍ يعرفها: «لم تدفعِ الأجرة من شهرَين!!». لكنّه أشاح بوجهه عنه، وصعدَ الدّرج العتيق إلى غرفته، ودفعَ الباب الخشبيّ المُتهالك، وصرّ الباب، ورَكَله برجله من خلفِه، ومشى

إلى سريره، توقّف في منتصف المسافة لينفتل عن يمينه، وينظر إلى نفسه في المرآة المشروخة، المشروخة تُعيدُ تجميع أجزاء روحه المتناثرة، السّليمة تجعله يتشظّى إلى ألفِ روح، رأى شَعره الطّويل يلتفّ في خُصَل كثّة، كثيفة، كثيرة، مُتناثرة، تتساقطُ على جبهته وعينَيه وذَقنه، إنّه هو، ليسَ هناك من جديد، سرقَ الخُطوتَين الأخيرتَين، ورمى نفسَه على سريره القذر، وأراد أنْ ينام، ويرتاح بعد مشيه الطّويل، ولكنّ النّوم على عادته لم يزرْه ألبتّة!

مرّتْ ساعاتٌ وهو يتقلّب على فِراشه، لماذا يهبُ اللّه النّوم لأناس، ويحرم الآخرين منه؟ لماذا هذا التّوزيع الظّالم؟! ضغطَ بجُمع يدَيه على رأسه ليخفّف الصّداع الحادّ الّذي ينهشُه، إنّه يوفّر مادّة خصبةً له من أجل أنْ تحضر الوحوش، أنْ يحضر أولئك الّذين يرتعدُ لمجرّد مجيئهم ولو لم يكنْ ذلك حقيقةً؛ يزورونه من فترةٍ إلى أخرى، يأتون كلّ يومٍ، وقد يمر شهرٌ قبل أنْ يراهم مرّة أخرى، كانوا يركبون خيولاً سوداء، ويُطلِقون النّار باتّجاهه، وهو يهربُ منهم في حقولٍ فسيحة لا نهايةَ لها، فلا الخيل تتعب، ولا الطّلقات تتوقّف، ولا الوحوش الّتي تركبها تكفّ عن مُطاردته.

زَفَر زفرةً طويلة، تناهَى إليه نقيقُ (مبروكة)، إنّه

إيذانٌ بهبوط اللّيل، يعرفُ ذلك تمامًا، وأصواتُ الكراسيّ الّتي تقرقع أمام قهوة (سُمعة) تصل إليه هنا، لماذا عليه أنْ يسمع هذه الأصوات، الأصوات الّتي لا تسمعها أذن سمعة الأطرش، أو أذن الزّبائن الحمقى؟ لماذا على أذنه أنْ تنتقي تلك الأصوات، وتبعث بها إلى جُمجمته، فتصبح كأنّها مَطارقُ من حديدٍ تهوي على دماغه. أرادَ أنْ يرسم على الحائط. لكنّ الحائط لم يكنْ فيه موضع شبرٍ لكي يفعل، أمسكَ قلمه الأسود العريض، وخطّ به فوقَ بعض الرّسومات القديمة، أعادَ لها شيئًا من البهاء، وضحك: «الكونُ إعادةٌ. نحن دورةٌ جديدةٌ لأخرى قديمة، وهذه الجديدة ستُصبح قديمةً لدورةٍ ستأتي، ونحن ندور في الفراغ، فراغٌ من بعدِ فراغ، ولا نَجاة... لا نَجاة... والبحث عن الحقيقة أصعبُ من البحث عن الحياة في عالَمٍ ينهشُ فيه الموتُ الأحياء في كلّ لحظة. لماذا يبتلي اللّٰه النّاس بالبحث عن هذه الحقيقة؟! وطرقَ رأسَه بالجدِار مرّات مُتتابعات، وتوقّف عن الهذيان، سمع نقيق ضفدعه من جديد، إنّه يُذكّره بأنّ موعدَ دوائه قد حان، لقد دأبَ على ذلك منذ أكثر من سنتَين، ولكنّه لا يملك ثمن الدّواء، ليؤجّل ذلك الآن، ربّما في جولةٍ أخرى في الشّارع أو في مكانٍ آخر يستطيع أنْ يصنع ذلك الدّواء. عادَ إلى سريره، دفتره الّذي يُسجّل فيه كلماته يرقد

تحت السرير في حافظةٍ من الجلد، فتَحَه، كتبَ: «في هذا اليوم التقمَ المَلَكُ النّاقورَ وهو يستعدّ للنّفخ فيه، روحي ستكون أوّل روحٍ تسمع النّفخة...» توقّف، وهمس: «هذه كلمات باهتة، ميّتة، لا تُوصلني إلى حقيقة ما أنا فيه...». أرادَ أنْ يشطب سطره الأخير، ويكتبَ شيئًا جديدًا، ولكنّ الضّفدع نقّث من جديد، هزّ رأسه ليتخلّص من نقيق الضّفدع، وكتبَ سطرًا آخر: «أشعرُ أنّني قادمٌ من زمنٍ آخر، ربّما حلّتْ فِيّ روحٌ أخرى، أو أرواحٌ مُتعدّدة...». نقّت الضّفدع، فشطب السّطر، وكتبَ تحته: «أشعر أنّني مِتُّ منذ مئة عامٍ، الّذي يعيش اليوم ليس أنا، أنا شخصٌ آخَر، يعيشُ حياةً ليسَتْ له...». نقّت الضّفدع. شطب السّطر الثّالث، وكتبَ تحته: «أنا الآن ميّت، وأعيشُ حياةَ ما بعدَ الموت، الفاصل بين الحياتَين لا يُدركه الأحياء الّذين يمشون في الشّوارع، أنا أدركه لأنّني عُدت... أنا أوّل ميّتٍ يعودُ على الحقيقة من الموت...». نقّت الضّفدع. شطبَ السّطر الرّابع، وكتب تحته: «أعرفُ أنّه لا أحدَ يُدركُ حجم كارثتي، حجم الشّرخ الّذي حدث في روحي، ولذلك لن يفهمني أحدٌ، لن يُناسبني أحدٌ، ولن يحتملني في النّهاية أحدٌ؛ فلماذا أقول كلّ هذا...؟!». نقّت الضّفدع. وصرخ: «يكفي». أغلق الدّفتر، وأعاده إلى موضعه، وقام إليها: «كم هي جميلة!». حدّث

نفسَه، سألها عن حاله: «كيفَ أبدو؟». أجابتْه: «دَعِ الماء يسكنْ وسترى النّجوم تنعكس على صفحة قلبِك». ابتسم: «مولانا». أطعمها. للضّفادع طِباعٌ واحدةٌ، إنّها ليست بألفِ طِباعٍ كالبشر، ولا تتلّون، ولا تنافق، ولا تُحدّث برأيِها عن رغبةٍ ولا عن رهبة. هذه الضّفدع، تُشبه عددًا آخر من الضّفادع عاشث معه منذ ذلك اليوم، اليوم الّذي سَرَقَها من مختبر التّشريح، أيّام كان يدرس الطّبّ، لم يكن غريبًا أنْ يكون الأوّل على دُفعته، بل إنّه كان يُشرّح الجثث والحيوانات باحتراف طبيبٍ عاشَ في التشريح نِصفَ قرنٍ، كانت الأحياء تتناقص في مختبرات التّشريح، فقدت كلّيّة الطّبّ أكثر من سبع جُثث، وعددًا من الرّؤوس المقطوعة، ومئات من الحشرات والحيوانات، على مدى ثلاث سنوات، كان يسرق ببطء وبذكاء، لم يُلاحِظ أحدٌ ذلك إلاّ بعدَ مرور السّنوات الثّلاث هذه، حذّره عميدُ الكلّيّة: «لم أتوقّع أنّ عبقريًّا مثلك تُسوّل له نفسُه أنْ يسرق قوتَ زملائه. سأسامحك هذه المرّة». لكنّه عاد إلى أخذ الجُثث، وجّه له العميد إنذارًا نهائيًا، وكادَ يُفصَل لولا أنّ (هيام) تدخّلت في اللّحظة الأخيرة: «لم يسرق بعدَ أنْ حذّرتَه يا دكتور، أنا الّتي طلبتْ منه ذلك، لقد سرقَ من أجلي». وأعادت الجُثّة الثّامنة أو التّاسعة أو العاشرة لم يعدْ يذكر الرّقم في مسيرة سرقاته الطّويلة، واعتذرتْ:

«لقد أقنعتُه أنْ نعمل عليها معًا بعدَ أنْ ينتهي دوام الجامعة». وأردفتْ وهي تخفضُ رأسَها في حِداد امرأةٍ ثاكلة: «يا دكتور، إنّه يفهم في التّشريح أكثر من هاغنس، وهنري غراي، وإيفانس، مُجتمعين».

كان يحمل الجُثّة في كيسٍ أسود يُشبه كيس الجيتار، ويخرج بها من بابٍ خفيّ في سور الجامعة، ويضعها برفقٍ في كرسيّ سيّارة (اللادا) الخلفيّ، ويمضي بها إلى بيته، في غرفته يُخصّص لها دَكّةً خشبيّةً يُريحُها فوقَها، يرشّها بالعُطور، ويعمل عليها ليالي طويلة، لا ينام فيها لحظة، وكان يقول: «إنّها مثلُنا تشعر بهذا الوخز بالخاصرة، ولو أنّ شيئًا من روحها عَلِق ببعضِ طينِها لتوجّعتْ»، ويرفق بها، ويجلسُ أحيانًا ساعاتٍ كثيرةً أمامها يتأمّلها، ويهتف: «إنّها مثلنا كذلك تشعر بالملل». فيروح يُحادِثُها، ويقرأ عليها القرآن والشّعر، ولربّما، تلمّس وهو يمرّ بيده على أيديها كلّ الّذين مرّتْ أياديهم عليها من قبله، ويغضب إذا كان أحدُهم قد أساء لها في غابر الأيّام عن طريق كسر ذراعها بمطرقة طبّيّة، ويقول: «هذا آخر عهدك بالعذاب». يحملها على ظهره هي والرّفش، ويصعد بها وسط ذهول النّاس وخوفهم إلى أعلى جبلٍ في القرية، يختار لها شجرة هَرِمة، وهو يهمس: «إنّ حديث

الأشجار العتيقة حلو». ويحفر لها قبرًا عميقًا تحتها، ويقول: «لترقدْ روحُكِ هنا بسلامٍ». ويُعطيها اسمًا من أسمائه، ويحفر على جذع الشّجرة الّتي عند القبر: «هنا يرقد ماركس (1818 – 1883م)؛ لقد كان رجلاً طيّبًا ولكنّ عباراته خانته». «هنا يرقد أبو نوّاس (756 – 814م) لقد كان طائرًا حُرًّا ولكنّه شربَ ماءً ليس له». «هنا يرقد ابن عبّاس (618 – 687م) لقد كان يرى ما لا يُرى، فلم يفهم كثيرون فِسْره. «هنا... أرقدُ أنا... لقد وُلِدتُ لألف عام، ومتّ ألفَ مرّة، وسأعيش لألف عامٍ أخرى..». ويعود إلى القرية والرّفش في يده. لقد دفنَ هنا في الجبل أكثر من ستّ جثث، إلى أنْ سمع إحداهنّ تستغيثُ به: «لا تدفنّي، سينبش اللّصوص عليّ قبري». فسألها: «وما أفعل؟». فردّتْ: «احرقني». وكان يحرقها في الجبل أيضًا.

لكنّ جُثّة واحدةً في هذا المدّ المُتتابع استوقفتْه، إنّها جُثّة أبيه، لم يستطعْ أنْ يتخلّى عنها، في يوم موتِه، جاء حفّارو القبور إلى رأسه وبدؤوا بوضع المسامير على جُمجمته وبدؤوا بطرقها حتّى دخل في رأسه أكثر من مئة مِسمار، وكان قد تركهم يفعلون ذلك لأنّ موتَ أبيه كان يستحقّ كلّ هذا الألم، كانتْ روائح النّاس في العَزاء خانقة. كان يجلس في آخِر العزاء،

قال له عمّه الّذي أتى فجأةً من بلادٍ بعيدة: «إنّكَ ابنُه الوحيد، ولا بُدّ أنْ تستقبل المُعزّين». ردّ على عمّه: «أبي لم يمتْ، لقد قتلوه وأخذوا جُثّته إلى المستشفى، ومن هناك باعوه إلى كلّيّة الطّبّ». كان يومَها في السابعة عشرة من عمره. وتركه عمّه ينزوي في الزّاوية البعيدة، يسكر في حضرة العزاء، ويدخّن الحشيش. وكان لا يُسلّم على أحد يمدّ له يده، باستثناء الشّيخ الّذي علّمه القرآن، وقفَ له، وهو لا يزال يُمسك بكأس الخمر. قال له الشّيخ والدّموع تطفر من عينَيه: «تُبْ إلى الله يا بُنيّ؛ فإنّك تحفظُ كتابه، وإنّني أحبّك، وإنّه يُحبّك، فلا تُهلِكْ نفسَك». لكنّه لم يُجِبْه بشيء، كان يُدير رأسه بعيدًا ويُدخّن، وأردفَ شيخُه: «عندما تريدُ أنْ تتكلّم، فأنا لا أغادر مسجدي، سيكون بيتُ اللّه مفتوحًا لكَ وقتما تشاء». وتوقّف الشّيخ قليلاً، قبل أنْ تبدو عليه بعضُ أمارات الهزل؛ وتابع: «وستجد قطعة الحلوى بانتظارك أيضًا». ومضى الشّيخ إلى مسجد (الصّفا)، وهو يضربُ كَفًّا بكفّ. وتوافد النّاس على بيت العَزاء، وكانوا يتهامَسون فيما بينهم: «مسكين... هل له قدرة بعذاب اللّه؟». «هل سينجو؟». «أمعقول أنّ اللّه سيغفر له كلّ المصائب الّتي كان يرتكبها؟». وكان هو في ذهولٍ عنها، كأنّه يسمع خليطًا من أصوات ثعالب أو ضِباع تشابك رؤوسها قبل أنْ تسحل. لكنّه عندما وقفَ

أحدُ الخُطباء ليعظَ في عزاء أبيه لعَنَه في سِرّه ألفَ مرّة، وكاد يقومُ إليه من زاويته، ليقول إنّكَ تُخطِئ في تلاوة الآيات القرآنية، وتقيء الكلام قيئًا، وتحتاج إلى أنْ تتعلّم الأبجديّة قبل أنْ تُنصّب نفسكَ واعِظًا. لكنّه لم يفعل؛ «ما نفعُ النّصيحة للجاهل؟!».

كان بعدَ الرّابعة عشرة قد اعتزل النّاس واكتفى بأبيه. كان أبوه عازِفًا على العود، قال له: «العُود أكثرُ آلةٍ تفهمنا». وكان يُدندن غالِبًا بألحان (الشّيخ إمام)، ولم يتركا في أمسياتهما الكثيرةِ لحنًا له إلاّ عزفاه، ولكنّ أكثر ما كان يستوقفه هو بَحّة صوتُ أبيه، وهو يغنّي (يا ولدي) إحدى روائع (الشيخ إمام)، وكان يتمايل كصوفيّ في حضرة الله، وأبوه يمطّ صوتَه يحاول أنْ يُقلّد الشّيخ الضّرير:

لا تَبْكِ فَأَحزانُ الصِّغَرِ... تَمْضِي كالحُلْمِ مَعَ الفَجْرِ

وَقَرِيْبًا تَكبُرُ يا وَلَدِي... وَتُرِيدُ الدَّمْعَ فلا يَجْرِي

يا وَلَدِي... يا وَلَدِي... يا وَلَدِي...

إنْ سَهِرَتْ أَمْطارٌ مَعَنَا... أَوْ غَطَّى البَرْدُ شوارِعَنَا

فَالدِّفْءُ يُعَمِّرُ أَضْلُعَنا... وَلَهِيبُ الأَرْضِ بِنا يَسْرِي

يا وَلَدِي... يا وَلَدِي... يا وَلَدِي...

وكانا يبكيان معًا بعد ذلك دون أنْ يدريا السّبب، فإذا فَرَغا من تلك اللّحون، قام أبوه فَعلّق العُود على بطنه إلى يسار الدّاخل إلى المكتبة، قريبًا من رفوف الشِّعر، ويقول: «العود يعرفُ أصدقاءَه».

وكان يخرج مع أبيه إلى الجبل، ويجلسان على قمّته ساعاتٍ طويلةٍ دون أنْ يتكلّما، وهما ساهِمان في الأفق البعيد، هادِئان كأنّهما نبيّان، وصامِتان كأنّهما تِمثالان قُدّا من حجر، ولم يكنْ أحدٌ يدري كُنه العوالم الّتي تضجّ فيهما تحتَ هذا الصّمت القاتل. لأبيه معه قصصٌ لا تنتهي. شكّل موتُ أبيه خيطًا رفيعًا من الجنون الحقيقيّ. لم يكنْ ليُدرك أنّ هذا الجسد الّذي علّمه كلّ شيءٍ سوفَ يكفّ عن الحركة، وعن صَفْعِه عندما يتطلّب الموقفُ ذلك!

كان يُشبه أباه في كلّ شيءٍ، ولم يكنْ يُشبه أُمّه في شيءٍ. البيتُ الّذي ضَمّ ثلاثَتَهم؛ كان يتكوّن من ثلاث غُرف، ينامان في واحدة، وينام هو في ثانية، وكانت الثّالثة للمكتبة الّتي تتراصّ فيها الكتب في

رفوفٍ خشبيّة تمتدّ حتّى السّقف. وكان البيت يقع في الطّرف الشّماليّ القصيّ للقرية، وآخر ما تصل إليه الطّريق المُعبّدة، جاثِمًا أمام عددٍ من أشجار السّرو والصّنوبر الّتي تبدو في اللّيل أشباحًا عملاقةً تحرسُه، وكان مفتوحًا على الفضاء المُطلق، ينعم بهدوءٍ صافٍ، فلا تكادُ تسمع هنا شيئًا، باستثناء بعض العواءات في اللّيل، الّتي كانا يحتاجانها أيضًا. وكان هو يسأل أباه عمّا ضاعَ من الكتب لا عمّا وصلَ إليهم منها، يسأله عن مجلّدات التّوحيدي الّتي أحرقها في أُخريات حياته، وكان أبوه يقول له: «التّوحيدي مجنونٌ عاقلٌ مثلُنا، ألم يقلْ: إذا جاءكَ الحقُّ بما يدقّ عن الفهم فلا تُحاكِمْه إلى نقص العقل.. وإذا فتَنَكَ العقلُ بدقائق البحث، فاسْتقبِلْه بحقائق التّسليم؟!». ويسأله عن كتاب أرسطو المفقود عن الكوميديا، فيردّ: «أرسطو اخترع فلسفته وشعره وموسيقاه ليُداري الجنون». ويسأله عن رسائل الجاحظ الّتي لم تصل، فيردّ أبوه: «إنّه مهووسٌ بالكتب مثلنا، لقد انتحر حينَ دفنَ نفسَه تحت كعوبها». ويسأله عمّا ضاع من مذكّرات تشرشل، فيقول أبوه: «إنّه كان يُفكّر في الانتِحار مثلنا», ويسأله عمّا لم يكتبْه تشارلز ديكنز، فيردّ: «إنّه كئيبٌ مثلنا». وهكذا يستمرّ الحوار...

ضاقت غرفة المكتبة عليهما بما رَحُبتْ، كانت

الكتب تتلاقَى، تتلاصق، وتتشاجر، وتتشابك، وتتعارك، وتتهارش، ولا يوجد بين كتابٍ وآخر فُسحة ولو ضئيلة من أجل أنْ يتنفّس أحدها، كان الضّيق الشّديد يضغطُ على رِئاتِها، إلى أنْ راحت تندلق في كلّ اتّجاه، تسلّلت إلى غرفة النّوم والممرّات، والمطبخ، والحَمّام، والمدخل، وأرفف الأحذية والصّحون، والأسِرّة، وطاولة الطّعام، وكان يصعبُ على مَنْ دخلها أنْ يجد فيها موطِئ قدمٍ، باستثناء سريرٍ عَجّ هو الآخَر بكتبٍ متناثرة فوقَه وتحته، يجلسُ إليه هو وأبوه، ويتحادَثان ويشربان ويُدخّنان طَوال اللّيل حتّى الصّباح، فإذا طار غُراب اللّيل، نامَا قليلاً، قبل أنْ يذهب الأب إلى عمله، والابنُ إلى مدرسته. وقال لأبيه في إحدى نقاشاته: «أتعرفُ فيمَ أفكّر يا أبي؟». «وماذا يفيدني أنْ أعرف؟». «أفكّر أنْ أحرقَ كلّ هذا، أحسّ أنّه هُراء». فيضحك أبوه: «لو أحرقْتني أنا وأمّك فلن أعترض على ذلك؛ لكَ عنّا غِنى، لكنْ كيفَ تُطاوعك نفسُكَ أنْ تحرق هذه الكنوز كلّها؟!». وأشارَ إلى الكتب الّتي عبست هي الأخرى لهذا الخاطر المريض. وابتسم ابنُه: «سأخرجها من البيت قبل أنْ أفعل». «أينَ ستضعها؟ تحت شجرة الزّيتون البلهاء؟ أم تحت شجرات الصّنوبر العتيقة؟ أمْ على العتبات المتهالِكات؟ أينَ يا بُنيّ؟! إنّكَ تحتاج إلى ثلاثة أيّام حتّى تستطيع

ذلك، ولا بُدّ أنّ حمير الحيّ الّتي تمرّ من هنا ستُخبرني بذلك».

حفلت مكتبة أبيه بالألوان كلّها، وإنْ كان الأدب الرّوسي يتصدّر قوائمها، قرأ كُلٌّ منهما كلّ ما كتبه تولوستوي وديستويفسكي وغوغول وإيتماتوف وبولغاكوف و... تناقَشا معًا في كلّ سطرٍ قرآه، وإذا تغاضَبا على رأيٍ في كتاب، قذف الأبُ الكتاب في وجهه، وهو يصرخ: «إمّا أنْ تقرأ بروحك أو لا تقرأ». وكان يقول له: «الأدب أعظم ما أنتجتْه الإنسانيّة، والطّب أتفه ذلك الإنتاج، وبينهما أمورٌ مُشتبهات. وإذا أردتَ أنْ تدخل كلّية في الجامعة فعليكَ بالأدب أو الفلسفة، وإيّاك والطّبّ، فإنّه مهنة العقول الضّعيفة». ونقّت الضّفدع، فأيقظتْه من هواجسه، ونزل إلى قهوة (سُمعة) يقضي ما تبقّى له من ليل. فتراءى له أصواتُ الصّبية ينادُون على أحدهم بالمشروبات والأرجيلة، ويعرفُ (سُمعة) زاويته القصيّة الّتي يجلسُ فيها للقراءة أو للصّمت، فكانَ يحجزها له أوّل ما يهبطُ اللّيل، وكان الزّبائن المُعتادون يعرفون ذلك، فلا يُحاولون الجلوس إليها، وهم يتهامَسون: «طاولة المجنون». وكان إذا جلس، فتَح كتابًا، أو قرأه من خياله، وكانت القراءة تُبعدُ عنه شبح الهلوسات، فإذا

سمح للذّكريات أنْ تخرج من كهوفها المُظلمة في قيعان أدمغته فقد سمحَ لأفاعي الجحيم أنْ تُطلّ برؤوسها، وكان كثيرًا ما يُسكتها بضرب رأسِه في الجدارن أو في الطّاولات الّتي أمامه، وإذا كان محظوظًا فبالحشيش، الحشيش الرّخيص المغشوش الّذي كان يأتيه به (عِيد)، ومع ذلك لم يكنْ يملك ثمنه إلاّ في حالاتٍ قليلة، وفي صداقة الحشّاشين، فالثّمن إذا لم يكن المال، فسيكون الجسد!!

(4)
دَبَّ فِيّ الفَناء

لم يُكلّم أحدًا بعدَ موتِ أبيه، ولم تسمعه أمّه ينطق بحرفٍ واحدٍ طَوال عامٍ كاملٍ. كان صامِتًا كأنّه فقدَ القُدرة على الكلام، وظلّت المنارات في حياته تتهدّم واحدةً بعدَ الأخرى. كان أبوه هو تلك المنارات الهادية، فلمّا انطفأ أظلمَ كلّ شيءٍ في عينَيه، حتّى صار يرى أنّ اللّيل يعقبه ليل، وأنّ النّهارات كلّها رحلتْ دون عودة. لم يكنْ سَهلاً أنْ يُصدّق موتَ أبيه، كان انكِسارَه الفظيع، وكان يشعر بذلك السّكين الحادّ الّذي يجرح سطح الزّجاج يمرّ على قلبه كلّما تذكّره.

ظلّتْ أمّه تتصدّق عن أبيه بعدَ موته، فرّقتْ عن روحه ثيابَه، وأرادَتْ أنْ تبيع سَيّارته، وتتصدّق بثمنها لولا أنّ ابنه منعها من ذلك، وذبحتْ كبشَين من مالٍ ادّخرتْه طَوال عشرين عامًا هي زمنُ حياتها معه. وكانتْ تدعو له في صَلَواته، وكان هو يقول لها: «ما فائدة ما تفعلين؟ اللّه الّذي أخذه، غير محتاجٍ إلى صَدَقاتِك». ولم يكنْ يتخيّله إلاّ جالسًا معه على الأريكة في غرفة المكتبة يُتابِعان النّقاش حول كتابٍ في الفلسفة أو الأدب، وكان يُدير معه نقاشًا مُتخيّلاً، ويذهبُ إلى مخالفته الرأي حتّى ولو لم يكنْ مقتنعًا

بذلك حتّى يصفعَ نفسَه كما كان أبوه يفعل، وأدمنَ خِلافَه، حتّى اعتادتْ يدُه صَفْعَه، وظلّت تلك اليدُ تصفعه حتّى دون نِقاش، وكان وهو يجلسُ في مقاعد الدّراسة وفي وسط الحِصّة في غمرة اندماج الأستاذ في شَرْحه، وفي وسط العيون المُعلّقة بالسّبّورة وبالمعادلات المخطوطة فوقَها، يصحو الطّلاّب من ذهولهم على صوتِ الصّفَعات. وحدثَ أنْ ذُهِلَ الطّلاب بما سَمِعوا أوّل الأمر، ثُمّ صارَ ذلك مألوفًا، وإذا حانث منهم التِفاتةٌ نحوه كي يكفّ حتّى يستوعبوا من الأستاذ، رفع يده الصافعة يقلّبها في وجوههم، ويهتف: «لا عليكمْ، أنا أناقش أبي الميّت في فلسفة هيجل وكانط، ووجوديّة سارتر ونيتشه، دعوني في هُرائي لأدعكم في هُرائِكم». ولم يعدْ أحدٌ يأبه به أو بصفعه لنفسه، وكان ذلك يُريحه، وكان شَعْرهُ يتناثَر فوقَ وجهه فيُغطّيه في غمرة تلك الصّفَعات. لكنّه بعدَ زمنٍ من ذلك لم يعدْ يُسيطر على يده، وصارتْ يدُه غريمَه، فلا هو توقّف عن تخيّل الجِدالات بينَه وبين أبيه، ولا يده توقّفتْ عن إيذائه؛ حتّى آمنَ أنّها لا تنتمي إليه.

أيّام الامتِحانات كان ينام في الحَمّام، يملأ (البانيو) بالكتب والأوراق، ويخربش فوقَها، فإذا تعب، أو طالَ عليه الأمد، يجعل منها مخدّة تحت رأسِه،

ويتكوّر على نفسِه مثل قُنفذ، ويُحاول النّوم، لم يكنْ لينام أكثر من نصف ساعة، يصحو بعدها أو خِلالها، وربّما سكب على نفسه الماء وسطَ أوراقه الّتي تذوب، وتنتهي، وتُصبح أثرًا بعدَ عين.

كان صِياح أبيه في ليالي الشّتاء الطّويلة يستمرّ حتّى الفجر، صوتُ أبيه فيه صَحلة، وإذا مَدّ الصّرخة أو مَطّها كان يعوي كذئب جريح، لم تمرّ ليلةٌ واحدةٌ دون صِياح، وربّما ضرَبَ أمّه، أو أهانَها، أو قذفَ بها خارج البيت، ثُمّ لم يكنْ منها إلاّ أنْ تجلسَ على العتبة في الخارج بعض الوقت ريثما يهدأ هِياجه، ثُمّ تدخل، ولا يعترض هو طريقَها، بل كان يسألها أحيانًا عن الشّيء الّذي أيقظَها في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل! لم يكنْ من شيءٍ يُمكن أنْ يُوقفه عن الصّياح سوى جلوسهما معًا في المكتبة للقراءة أو النّقاش. ثُمّ لم تكنْ أمّه تفعل شيئًا أمام صِياح أبيه، كانتْ في مرّاتٍ كثيرةٍ - إذا كانتْ حسنةَ الحظّ فلم تمتدّ نحوَها يدُ أبيه - تلفّ رأسَها بقماشةٍ سميكة تُحاول أنْ تُخفّف من أثر الزّعقات على أذنَيها، وكانت تلك الصّيحات في ذلك البيت الرّيفيّ القصيّ تذهبُ في موج اللّيل، وتضيع فيه؛ وكم من صَرَخاتٍ غرقتْ مع نُباح الكلاب وعزيف الرّيح في تلك اللّيالي القارِسة!

قالتْ له أمّه ذاتَ يومٍ: «إنّ أباكَ رجلٌ طيّب». فردّ: «ولكنّه يضربك؛ الطّيّبون لا يُؤذون أحبابَهم!!». «إنّه يُعاني». «مِمّ يُعاني؟». «من الفقد. من الضّياع والتّيه». «فلماذا تزوّجكِ إذا كان لا يُريد لهذا الزّواج أنْ يستمرّ؟». «لكي يُنجِبَ ابنًا يُشبهه؛ ربّما نجح فقط في ذلك، وأخفقتُ أنا». «أنا أسأل لماذا اختار أنْ يبتليكِ دونَ سِواكِ لكي تكون رحمها نُطفةً لولدٍ مُحتملٍ يريدُه مثله؟». «كان يتمنّى أنْ يكون إنسانًا آخَر، ولكنّ النّاس لا يختارون الحال الّتي يكونون عليها، إنّهم يُولَدون بها. ألستَ تُشبهه؟!».

لم يكنْ في القرية أيّ سلطةٍ تردع الأب عن غَيّه، لا شرطةَ، لا قانون، لا حِساب، ... كان يمضي في سُكره، يقسم راتبه الّذي يتقاضاه من التّدريس مناصفةً بين كأسِه وعائلته. وكان يقول لزوجته: «هذا لكم، وهذا لي». يذهب بسيّارته (اللادا) القديمة روسيّة الصّنع الّتي تُشبه صندوقًا مُربّعًا من الحديد إلى المدينة، يشتري عشر زجاجاتٍ، تمكث معه أيّامًا، وكلّما أنهاها، عادَ مرّة أخرى ليشتري غيرَها. وكان المرض يقضم مع كلّ زجاجةٍ شيئًا من روحه، حتّى إذا حلّتِ السّنة الّتي أقعدَتْه في الفِراش بسبب إدمانه، راح يهتفُ على مسامع ابنه بصورةٍ أقربُ إلى التّوسّل بأبيات أبي

نواس:

دَبَّ فِيّ الفَناء سُفلاً فَعُلْوا

وأراني أموتُ عُضوًا فعُضْوا

ليسَ من ساعةٍ مضتْ لِيَ إلاّ

نَقَصَتْني بِمَرّها بِيَ جُزْوا

وبدا لنديم أنّ هذا الأب القاسي يتحوّل إلى مُتسوّل مُتوسّل؛ يسأل أمّه الأشياء بلطف، ويهمسُ في أذنيها بعبارات الحبّ، وكثيرًا ما كان يراه يشدّ على يد أمّه وهي تجلس إلى جانبه في الفِراش تسقيه بعضَ الدّواء، وتمسح العرق المُتفصّد عن جبينه: «سامحيني يا أمّ نديم، صحيحٌ أنّني لم أحبّكِ، ولكنّ الحُبّ ليسَ اختيارًا، اكتشفتُ بعدَ هذه السّنين كلّها أنّني كنتُ مُخطِئًا؛ يبدو أنّني سأرحل». وكانتْ هي تخفض رأسها، ولا تقول كلمةً واحدةً، وكان في قلبِها ألفُ كلمةٍ لتقولها، ولكنّها كانت تستعيضُ عن ذلك كُلّه ببكاءٍ صامت.

وكانت الخمر على الحقيقة تنقصُه، وتأكل منه شيئًا فشيئًا حتّى أقعدَتْه، وصار يبعثُ بابنه إلى المدينة كي يشتري له الزّجاجات، وهو يشتم: «لماذا لا يصنعون الخمر هنا والعنب وفيرٌ في هذه القرية الملعونة؟! لماذا

عليّ أنْ أدفع نصفَ ثمن هذه الزّجاجات اللّعينة وقودًا للسّيّارة؟!» وكان كلّما كرع زجاجةً، رماها بما تبقّى في يده من قوّة في وجه الجِدار، فربّما انكسرتْ أو تشظّت، أو تأبّت على الكسر فتدور على الأرض مثل قلبه ألفَ دورةٍ في قلقلةٍ تامّةٍ قبلَ أنْ تستقرّ، وكان يبصقُ عليها في كلّ الأحوال؛ وذات مرّةٍ بصقَ دمًا، وجحظتْ عيناه من الرّعب، لكنّه سرعان ما استغرقَ في ضحكٍ هستيريّ.

القرية الّتي لعَنَها أبوه في صَحوه ومنامه، كانت مَلاكَه الحارس، كان يرى أنّها نجاته من العالَم المُتداعي، ومن الهُراء الّذي كان يسمعه في المدرسة، ومن ثَمّ في الجامعة، وخاصّة ذلك الّذي يَقيئُه الأساتذة الّذين كانوا يَحسِبون أنفسهم سادة العلم، وَكَهَنة المعرفة. كان يلجأ إلى شجرة الزّيتون المُعمَّرة الّتي تقف بكامل امتدادها التّاريخيّ أمام البيت، الشّجرة الهَرِمة توزّعتْ في كلّ اتّجاه، وتقوّست أغصانها العالية من فوق، حتّى شكّلتْ ما يُشبه القُبّة لكلّ مَنْ يدخل إليها، فيجد تحت تلك القبّة ظِلاًّ ظليلاً، وتاريخًا يتكلّم بألفِ لِسان، ويسمع في ذلك الصّمت الّذي يحمي الدّاخل إليها من كلّ الضّجيج في الخارج أصواتَ مَنْ غابوا، ومَنْ عاشوا وماتوا، وحتّى أولئك الّذين تصوّفوا

هنا، وجعلوا من هذه الشّجرة رمزهم أو سبيلهم إلى سدرة المُنتهى. كان ينامُ تحتها في ليالي الصّيف، وكان يركنُ جذعه إلى جذعها العتيق، ويقرأ أو يُحادث نفسه، وكان يعنّ له أحيانًا أنْ يتسلّق أغصانها، ويجلس اللّيل كلّه صامتًا فوق أعلى قمّتها، ينظر إلى الأفق، ويُحدّق في النّجوم، ويرى على صفحة السّماء البعيدة الدّاكنة السّاكنة كثيرًا من العوالم الّتي يصنعها خيالُه.

وكانتْ له مع هذه الشّجرة حكايات، حكايات لا يدري من قَصّها عليه، أهي الشّجرة نفسُها أم أرواح الّذين أراحوا من تعب الدّنيا أجسامهم تحتَها؟! أم قَصَّها هو عليها؟! كان يعرفُ أنّ عمرها أكثر من أربعة آلاف سنة، إنّها أكبر من الإسكندر الأكبر، ومن كسرى أنوشروان، ومن هرقل عظيم الرّوم، ومن ثلاثة أرباع الأنبياء الّذين جاؤوا من بعدِ أبيهم إبراهيم. كان يكنسُ قاعَها، ويتلمّس شُقوقها، ويُقبّل أوراقَها، وكانتْ لا تزال رغم كلّ هذه السّنين المتطاولات مُثمرة، وكان لا يسمح لأحدٍ بالاقتِراب منها، وكان يقطفُ ثِمارَها بنفسه، ويُحمّل شوالات الزّيتون في شهر تشرين الثّاني في سيّارة اللادا الصّفراء، ويذهب بها إلى معصرة القرية، ويبيع منها زيتًا كثيرًا، ويُبقي له ولأمّه ما يكفيهما طَوال العَام.

يُعجبه فيها ثباتُها، وخلودُها، وتواضُعها، وإعراضُها عن الجاهلين، ومع أنّه كان يُحبّ فيها الثّبات والتّواضع، ويتمنّى الخلود المُستحيل الّذي تمتاز به إلاّ أنّه لم يكنْ يُعرِضُ عن الجاهلين مثلها. وكان يسمع صوتَها، ويفهم عليها، وكم أيقظَه نِداؤها في اللّيل البهيم من فِراشه، كانت توقظه عشر مرّات على الأقلّ في كلّ ليلةٍ وهي تهمس: «حادِثْني؛ إنّ حديثكَ حُلو»، وكان يحنو عليها أكثر مِمّا يحنو على أمّه، ويستلقي تحتها أكثر مِمّا يستلقي في فِراشه.

السّنة الّتي تلت وفاة أبيه، لم تكنْ صَعبةً عليه إلاّ في افتِقاده الحِوار مع أبيه، ومع أنّه استعاضَ عن حواراته معه بحواراته المُخيّلة، وحواراته مع شجرة الزّيتون، إلاّ أنّ نكهةً مُحبّبة في شتائم أبيه لم يكنْ ليجدَ مثل طَعمها مع الشّجرة.

ودخل الثّانويّة العامّة، كان يَرى الامتِحانات مهزلة، ولولا أمّه الّتي كانت تتوسّل إليه أنْ يتقدّم إلى الامتحانات لأمضَى عامَه ذلك في الجبل، وتحت الشّجرة! كان يحفظُ الكتب، وكان يملأ ثلاثَة دفاتر في الامتحان، يُجيبُ بنصفِ دفتر، وفي البقيّة يضع رأيه في النّظريّات والقوانين الرّياضيّة، وربّما صَحّح بعضَ الأسئلة الخاطئة. ونصَحه أستاذُه في الفيزياء من قبلُ:

«أعرفُ أنّه لن يصعبَ عليكَ أيّ سؤال في الثّانويّة، أنتَ مُقلِق، لا أدري ماذا أقول لك... ولكنّ الوزارة تريدُ أنْ تُجيبَ ما تريدُ هي لا ما تريدُ أنتَ، وأعرفُ أنّكَ لن تمنع نفسكَ من أن تقول ما تريد، فابدأ بالإجابة الّتي تريدُها الوزارة، ثُمّ ناقش الأسئلة وجدواها وصحّتها بعد أنْ تُنهي ما يُريدون». وكان يكتبُ في رأسِ كلّ إجابة: «هذا ما تريدون، ثُمّ هذه هي الحقيقة وهي ما أريد». وكان يعلم أنّه يبحثُ عن الحقيقة، الحقيقة الّتي لم يعدْ يبحثُ عنها أحدٌ سِواه بعدَ موت أبيه. ولم يكنْ مُفاجِئًا – على الأقلّ له – أنْ يحصل على المركز الأوّل في الدّولة، وفي اليوم الّذي كرّمهم الوزير، كان يرى القاعة مليئة بالجثث، وبالتّماثيل الشّمعيّة الباهتة، وبالأسطوانات الجوفاء، ورأى أصنامًا تُصفّق، وأخرى تهتف، وثالثة تتمايل، وحوانيت تحمل مُحنّطين، وكان يشمّ رائحة بولٍ من كلّ المُتحدّثين، وكان يشعر أنّه أمام جوقةٍ غريبةٍ متأنّقةٍ في لباسِها، تتصنّع الحميميّة في نظراتها، ولكنّها تُغنّي في مأتم، وتنوح في عُرس!!

زار قبر أبيه في النّاحية الغربيّة من الشّجرة المُباركة، لم يقبلْ أنْ يدفنوه في مدافن القرية، قال لهم: «أبي ليسَ ملاكًا ولا شيطانًا، إنّه مزيجٌ من الاثنين، ولا أحدَ في هذه المقبرة إلاّ ملاكٌ أو شيطان، وعليه

فأبي لا ينتمي إليهم». بعدَ ذلك التّكريم، جلسَ إلى قبرِ أبيه، ونظر إلى الدّالية الّتي زرعها فوقَه وهي تنمو رويدًا رويدًا، ثُمّ سكبَ من زجاجة الخمر كأسَين، وسقى تراب أبيه: «الأمواتُ تحتاجُ أرواحهم إلى أنْ تُروى من هذا الجديب. يا ساكنَ هذا القبر قُمْ أحادثك، وراح يترنّم بقول القائل:

نَزورُكمْ لا نُكافِيْكُمْ بِجَفْوَتِكُمْ

مَنْ عالَجَ الشّوْقَ لَمْ يَسْتَبْعِدِ الدّارا».

ورأى إلى قبر أبيه عددًا من الموتى الرّاحلين الّذين خلَطَهم التّراب بذرّاته، رأى فيهم كل الفلاسفة والشّعراء والحُكماء الّذين كان أبوه يُحدّثه عنهم، وحدَّثَته نَفْسُه: «إنّ الأرواح تحنّ إلى مَنْ يُشبهها؛ ماذا لو عادَ جميعُ الأموات من قبورهم إلى الحياة؟».

قُبِلَ في كلّيّة الطّبّ بالجامعة الأردنيّة على حساب الدّولة. وبدأ حياةً ظنّها جديدة، لكنّه لولا بعض الورود الّتي كانت تنمو في أطراف جسده الفاني، وتتسلّق مثل غمامةٍ على روحه، لظنّها استمرارًا للهُراء الّذي لم يستطعْ طوال سنواته السّابقات أنْ يغسل نفسه منه، ولا أنْ يتخلّص من أدرانه.

نقّت الضّفدع، صَحَتْ أوهامُه، هل ينزل إلى

قهوة (سُمعة)، فيجد بعض السّلوى، وماذا هناك غير استمرارٍ للعبث الّذي يخنقه. ضربَ رأسه في الجِدار، وصفعَ عنقه، وتناثر شَعرُه على عينَيه، رَجّله أمام المرآة، ورأى فيها شخوصه السّتّة يرمقونه ساخرين، عنّ بباله أنْ يكسر ما تبقّى منها، لكنّه خافَ أنْ يفقدهم إلى غير أوبة، هل يذهبون مع المرايا؟ إنّهم يُعيدونه كلّما تاه إلى الجادّة، وليكنْ... نقّت الضّفدع من جديد، هُرِع إليها: «يكفي أيّتها النّقّاقة، سوف أترك لك المكان كلّه».

صفقَ الباب خلفه، وهبط الدّرجات، ليجد نفسه أمام الشّارع، نقل خُطُواته إلى المقهى، ومن بعيد كان صبيان المعلّم (سُمعة) يجوسون عبر الطّاولات يُقدّمون الشّاي والقهوة والأرجيلة للزّبائن في هذا العالَم السّفليّ القديم!

(5)
لا شيءَ مِثلُ الكأسِ يُنسِي!

كانتْ معه في درس البيولوجيا، لفتَتْه ضِحَكتُها المُشرِقة عندما قال للدّكتور الّذي كان يعرضُ فكرة أصل الأنواع لداروين: «ما دَخَلت الفلسفة في شيءٍ إلاّ أفسدَتْه». وكانتْ تقول له بعدَ الدّرس: «دَعْنا نتفلسف؛ أليسَ الطّبّ في ناحيةٍ منه وجهًا من وجوه الفلسفة؟!». فيردّ: «هؤلاء ليسوا إلاّ مُجترّين». ويُشير إلى كتاب (اللاطمأنينة) لِـ (فرناندو بيسوا) في يدها، ويُتابع: «الفلاسفة كلّهم عِيالٌ على أبي». وتضحك، ويفترّ ثغرُه قليلاً، وهو ينظر في وجهها القمحيّ، وتتابع هي: «وما أهمّ ما تفوّق به أبوكَ عليهم؟». فيضيّق عينَيه كمن يتذكّر، ويرفع ذقنه قليلاً، ثُمّ يهتف: «قولُه: الخمرة لا تحبّ مَنْ لا يُحبّها». فتزداد ضحكتها، ويتابع هو: «لو أنّه حَيّ وكان ذا قلم، لأفحم طوائف من المُتفلسفين المُدّعين». وتقطع ضَحِكتها، ويظهر على قَسَماتِها الجِدّ: «مات؟» ويُكمل: «لقد مات منذ ما يقرب من سنتَين، لكنّه ما زال حَيًّا في مكانٍ ما». ويُشير إلى قلبه، وهو يردّد: «ما فائدة الأحياء إذا ماتوا هنا؟ إنّما يُقاس الأحياء بحضورهم في قلوبنا، لا بتقاسمهم معنا هذا الفراغ الكاذب».

كان غريبًا، وغامِضًا بالنّسبة لها، فأرادَتْ أنْ تستكشفَ شيئًا من غُمُوضه، وكان نابغةً فأرادتْ مثل الكثيرات أنْ تتقرّب إليه، ولكنّ هيئته الّتي كانتْ مُنفّرة جعلتِ هؤلاء الكثيرات يختصرْنَ الطّريق، ويذهبْنَ في طريقٍ أخرى غير الّتي يقفُ هو فيها عارِيًا من كلّ شيءٍ إلاّ من عفويّته وبَداءَته. ولأنّه لم يكنْ يكتبُ خلفَ دكاترة الطّبّ حرفًا واحِدًا، لم يملْنَ إلى مُصادقته من أجل الحصول على الكُرّاسات الّتي يدرس منها، فهو لم يكنْ يحمل كُرّاسًا واحِدًا، ولا قلمًا، وكان في أيّام الامتحانات يستعيرُ قَلَمه من أقرب الجالسين حوله. ولِذا لم يكنْ فيه ما يُشجّع على الاقتِراب منه، إلاّ لمن استطاع أنْ يلمسَ فيه تلك الرّوح المتمرّدة الثّائرة الّتي تسكنه، ولأنّها روح، فلم يكنْ يلحظُها أحدٌ، ووحدَها - بِقَدَرٍ ما - غرقتْ في روحه، وصارتْ تراه مُلهِمًا لها.

«أنا هيام». ولم يردّ هو بحرفٍ، وظلّ شارِدًا ينظر إلى سَطْح فنجان القهوة الّذي يشرب منه، وكرّرتْ: «أنا هِيام، ....». تستحثّه على أنْ يقول شيئًا بدلاً من صمته الأبكم، وأرادَ أنْ يقول لها اسمه، لكنّه تعثّر بأسمائه السّتّة، وحار فيما يختاره لها من بينها، ولكنّه قرّر أنْ يقولها جميعًا، فردّ وهو ينظر في لوزِ عينَيها: «أنا ماركس، صالح، نديم، حافظ، ابن عبّاس،

وأبو نواس». وجلجلتْ منها ضَحِكَةٌ لفتتْ إليهما بعضَ الأنظار في الكافتيريا، وخفتتْ ضَحِكتُها تدريجيًّا، وردّ هو من عنده: «يُمكنكِ أنْ تناديني بأحدها إذا أعجبكِ، أو بها كلّها». واختارتْ له يومئذٍ: «حافظ». وكان لا يزال يحفظُ كلّ شيءٍ حتّى موجات عينَيها الذّابحتَين، فقَبِل بذلك.

أوقفته ذكراها، قبل أنْ يجلس إلى أبعدِ طاولةٍ في المقهى، إنّها قِدّيسة، كانتْ تملك كركرةَ الأطفال، وبراءة عيونهم، وهو يُحبّ ذلك، يُحبّ تلك الفترة من طفولته الّتي تسبق غيبوبته عندما أُغرِق رأسُه في البركة في ذلك اليوم التّعيس، الطّفولة الّتي تعني أنّ المرء كان يملك معرفة العالَم، وطهارته، وجَماله، ونبوءته، وفنونه، وعبقريّته، قبل أنْ تمتدّ يدُ الحياة إليه فتلوّثه، وتُمزّقه، وتلوّنه بألف لونٍ، وتُغرقه في بحرٍ من الدّناسات. وتذكّر أوّل قصيدةٍ للسّيّاب كَتَبَها لها: **«عيناكِ غابَتا نخيلٍ ساعةَ السّحَرْ... أو شُرفتان راحَ ينأى عنهما القَمَر»**. وقال لها يومَها: «لا أحدَ يستطيع أنْ يفهم هذه الأبيات سِواي، كلّ مَنْ شرحوها أخطؤوا، الشّعر حياة، وهو إنْ لم يكنْ قادِرًا على تفسير نفسِه بالإحساس به فهو هَذْر. أنا لم أجدْ عينَين تشرحان هذا الكلام سِوى عينَيكِ». واستغربَ هو من نفسِه؛ من هذه

الرّومانسيّة الّتي استيقظتْ فيه بعد أنْ غاصَ في زَهْو عينَيها، وهو الّذي لم يعرف من المرأة غير آبارِها المُظلِمة. ولم يدرِ على أيّ وجهٍ يُمكن أنْ تُحبّه امرأةٌ ما في زمنٍ ما مع كلّ تناقضاته الّتي يعجز هو نفسُه عن تفسيرها. ولكنّها معه؟ أحبّتْه بكلّ جنون، حتّى أدركتْ أنّها مريضةٌ به على نحوٍ من الأنحاء!!

وسألها: «وماذا نُحبّ فيمن نحبّ حينَ نُحبّ؟». فلم تجدْ جوابًا، وردّتْ سؤاله بسؤال: «هل تعرفُ النّجوم الّتي تُولَد ولكنّها مُعتمة لأنّ ضوءَها لم يصلْ إلى سطح كوكبنا التّائه؟ تلكَ أنا؛ مُضيئة بكَ، وإنْ لم يرَ هذا الضّوء في أغوار روحي سِواك!». وخُيّل إليها أنّها وهبتْه أعزّ ما يُمكن أنْ يُوهَب؛ قلبها.

هل يتخلّص من الأصفاد الّتي ترسفُ بها روحه بحبّه لها؟ كان حُبّه لها جُرحًا ظلّ ينزفُ حتّى قضى عليه، وكان حُبّها له نورًا ظلّ يُضيء جَنَبات روحَيهما حتّى انطفأ. وقال لها: «إنْ لم يكنْ هذا الحُبّ نورًا ينبع من قلبِك الّذي هو قلبي، فإنّنا سنضلّ. وإذا أخطأ شُعاع ذلك النّور طريقه فإنّه سيظلّ يشقّ طريقه في السّديم دون أنْ يقع على غايته، ولن يعودَ أبدًا!».

«لسنا ناضِجين لكي نحبّ كما ينبغي. الحبّ

الّذي يُعمّر طويلاً لا يُقال، لا يُمكن أنْ تضع يدكَ على حقيقته، ولا يُمكن فلسفته، ولا حتّى البوح به. فإذا أردْنا أنْ نسير هذه الطّريق معًا فعلى الحبّ أنْ يملك في نفسه ولنفسه قوّته الدّافعة لكي يستمرّ».

وتناهَى إليه نقيقُ ضفدعه من الشُّبّاك البعيد في الطّابق الثّاني من الفندق الرّخيص، وهَمّ أنْ يقوم من كرسيّه في المقهى من أجل أنْ يُطعِمها، لولا أنّه رأى (عيد) قد أقبلَ إليه، فعادَ إلى مكانه، وحينَ صارَ على رأسِه، دَسّ إليه قطعةَ الحشيش الّتي أدمنَها: «الصّنف الّذي تريده، لا بُدّ أنّكَ بحاجتها». فردّها نحوه، وهو يقول: «لم يبقَ معي نقود، لو عملتُ في وظيفةٍ جديدةٍ فسأتمكّن من شرائها، أمّا اليوم فلا». فرمقه (عِيد) بنظرةٍ ذات معنى: «جسدكَ يفي بالثّمن».

ها هو أبوه، يقول له: «يا ماركس لن تُحَلّ قضايا هذا العالَم المُهترِئ، فاشربْ». فيردّ: «أَنَنذِرُ الكأس للموت؟». «إنّ أصدِقائي قتلتْهُمُ الرِدّة، ولا شيءَ مِثلُ الكأسِ يُنسي»، ثُمّ يروح يترنّم أمامه، بقولِ بَشّار:

وأخٌ سَلَوْتُ لهُ فأذكرَه أخٌ

فَمَضَى، وتُذْكِرُك الحَوَادِثُ مَا مَضَى

فَاشْربْ على تَلَفِ الأَحِبَّةِ إِنَّنا

جُزُرُ المَنِيَّةِ ظاعِنِينَ وَخُفَّضَا

«يا ماركس؛ ذهبَ أهلُ الدّثور بالأجور». فيسأله ابنه: «ومَنْ أهل الدُّثور يا أبي؟». فيردّ: «كلّ مَنْ لعبتْ به الشَّمول، فإنّها تشقّ عمّا في حَبابِها فتُخرج أنقى ما في عقل المرء». ويضحك ماركس، وتتلقّاه أمّه خارجًا من المكتبة، فتقول له: «إنّ درسَكَ مع الشّيخ غدًا». فينظر خلفَه إلى الباب المُواربُ وأبوه ما زال يكرع الكأسَ بعدَ الكأس، فيُحسّ أنّ المسافة الفاصلة بينهما، هي المسافة بين الكأسِ والكُرّاس. فيقول لها: «وماذا بعدَ أنْ حفظتُ القرآن؟». «أنْ تُثبّته، أنْ تفهم عن الشّيخ، أنْ تتفقّه». فيردّ: «الفقه هنا...» ويشير بإبهامه إلى أبيه وهو يُعطيه ظَهره، ثُمّ يتابع: «أحنّ من الفِقه هناك». وتبكي أُمّه: «ليس لي ابنٌ سِواك؛ فهل تريدُ أنْ تُهلكَ نفسك مثلما فعل أبوك؟». فيردّ وهو يصطنع سخريةً في غير موضعها: «لقد تعلّمتُ من الشّيخ: (كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة)». وتلوذُ أمّه بالصّمت، ودموعها تتقاطر على خَدَّيها سخينةً.

وَخَرَجا إلى شجرة الزّيتون المُعمَّرة، وقال له وهو يتهادَى من سُكرٍ وتعب: «إذا مِتّ فاجعلْ عروقي قريبًا إلى عروق هذه الشّجرة» ويمشي ثلاث خُطواتٍ أو أربعٍ مُترنّحة، ويُكمل: «هنا، ثُمّ ازرع على قبري داليةً من

دوالي هذه القرية العتيقة، وإذا جَنّ ليلُ الذّكريات، فاعصِرْ على قبري من كَرْمِها؛ فإنّ طول العهد بالكأسِ يُنسي، وإنّ طول الأمد بالسّقاء يُمحِل، وإنّني لا أقدر أنْ أجمعَ جفافَين على روحي»، ويترنّم بِبيتَي أبي مِحجن الثّقفيّ:

إذا مُتُّ فادفِنّي إلى جَنبِ كَرمَةٍ

تُرَوّي عظامي بعد موتي عُروقُها

ولا تَدفِنَنّي بالفلاةِ فإنّني

أخافُ إذا ما مُتُّ أنْ لا أذوقُها

وانتحى به الطّبيب الّذي كان يفحصُ أباه: «إنّ أباكَ مُصابٌ بتشمّع الكَبِد، وبهشاشة العِظام، وإنّه لن يقوى على السير، وبارتِشاحٍ في الرّئتين، وبالتِهابٍ في البِنكرياس». وصرخَ أبوه به حينَ حاولَ أنْ يمنعه عن الكأسِ ذاتَ مرّة وهو يشرح له ما قاله الطّبيب:

دَعْ عنك لومي فإنّ اللّوم إغراءُ

وداوِني بالّتي كانتْ هي الدّاءُ

صَفْراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَها

لو مَسّها حَجرٌ مَسَّتْهُ سَرّاءُ

ويعلو صوتُه مُتحشرجًا في صدره الّذي راحَ يعلو ويهبطُ بشِدّة: «أعطِني الكأسَ وغَنِّ، فالغِنا سِرُّ الخُلود». وكان يتّكِئُ عليه إذا مَشى، وإذا قامَ، وإذا جلسَ إلى طاولة الطّعام. وكانت أمّه ترقبُهما بصمتٍ وتبكي، وجذبتْ ابنَها من طرفِ كُمّه: «ساعِدْه على الشّفاء، ولا تُساعِدْه على التّمادي». «إنّه يستعجل موتَه». «إنّه لا يخافُ اللّه». إنّ اللّه الّذي تعرفينه يا أُمّي غير اللّه الّذي يعرفه». «اللّه هو اللّه يا بُنيّ، وهو يقبل التّائبين وإنْ أسرفُوا». «دَعِيه يا أمّي، إنّ نصائحكِ له تزيدُه فيما هو فيه». «إنّكَ مِثْلُه، ما الّذي فعلتُه لكما حتّى تُعاقباني بذلك؟!» وتبكي من جديد، فينهرُها: «أنا لا أطلبُ منكِ غير الصّمت». «كيفَ أصمتُ على ضَلاله، وهو يسير إلى النّار بقدمَيه!!».

وأنهضَه من الفِراش، وقال له» املأ الكأسَ واقرأ عَلَيّ». وأرادَ أنْ يسير إلى الحمّام ليقضيَ حاجته، فما كادَ يقفُ على قدمَيه حتّى سقط، وحملَه بين يديه كما لو كانَ طِفلاً، وخلعَ عنه ملابسه، وأجلسَه على المِقعدة، وقال له: «أنْ ترى عورتي أنتَ خيرٌ من أنْ تراها أمّك»، ويضحك وهو يتابع: «هذا الحِصان لم يعدْ قادرًا على الرَّعي من الصّدور النّافرات يا بُنيّ، لقد ذهبتِ الخمرة بالفُحُولة». فيضحكُ ابنُه بدوره: «ثمنٌ يبدو عادِلاً

للمتعة يا أبي». وتخفتُ ضحكاته، وهو يدري أنّ مصابيح كثيرة قد انطفأتْ في أعماقه مُذْ أوقد على الخمر، وأنّ أصدقاء أكثر قد تخلّوا عنه مُذْ صادقَ الصّهباء!

أفكارُه أشباحُه، تُطارده في كلّ مكان، تلتصقُ به، تخرج له من شقوق جلده، تتطفّل عليه في ساعات صَفْوه، تُذكّره دائمًا بالماضي، بكلّ ما حدثَ له، تستعرضُ له في شريطٍ واضحٍ وسريع خساراته الكثيرة الّتي لم تنتهِ، تغوصُ بأنيابِها في روحه، كيفَ يُمكن أنْ يكون شكل هذه الرُّوح الّتي لا تُرى؟! يسيلُ دمٌ غير مرئيّ، يشمّ رائحة تلك الدّماء، ولا يرى لونَها، يفزع، يتنامَى فزعُه، ولكنّه سرعان ما يتواءَم مع فزَعه، وما الفزع إلاّ خيالاته الّتي لا تكفّ عن الظّهور. يهربُ منها أحيانًا، ولكنّه يكتشفُ أنّه يهربُ إليها!!

واستيقظَ من أحلامه على صوتِ صبيّ القهوة يقول: «تشرب إيه يا دكتور؟».

(6)
هيام

وانتصفَ اللّيل، فعادَ إلى غرفته في الطّابق الثّاني من الفندق الرّخيص، وكانت الطّريق قد سكنتْ، والمارّة قد قلّوا، كأنّهم فِئرانٌ قد دخلت إلى جُحورها، ورأى شُرطيًّا يسير مُتلفّتًا حوله في حذر، وظنّ أنّ الخوف مُنزرعٌ في نفوس البشر كلّهم، وهتف في نفسه: «هل ستنتهي حياتي في هذه الشّارع اللّعين، وفي تلك الغرفة البائسة؟!». وضعَ رِجلَه على العَتَبة، وهو يهمّ بصعود الدّرجات إلى تلك الغرفة الّتي صارت عالَمه، ورآها...

كانا يمشيان في بَهو الكلّيّة، وكانت هياكل عظميّة تُطِلّ برؤوسها من خلف الزّجاج في ذلك البَهو، إنّهما على مقربةٍ من مختبر التّشريح، وقال لها وهو يُشير إلى الجماجم الّتي تتدلّى من تحتها زَرَدات العِظام: «هؤلاء أحياء»، ويُكمِل وهو يُشير إلى زملائه وزميلاته الّذين يذرعون البَهو ماضين إلى مُحاضراتهم: «وهؤلاء موتى». وتُحدّق في عينَيه دون أنْ تردّ، كانت تعرفُ أنّه مريضٌ في عقله، ولكنّها كانت تُحبّه، ولو كان الحُبّ مُبصِرًا لما عميتْ عن غراباته كلّها ولا عن هَذَياناته. ولقد قالوا: «الحُبّ أعمى». وقال لها وهما

يقفان أمام جُثّة في المختبر: «القلبُ آلة تُشرِقُ بالحِكمة، وإذا كان من موعظةٍ فهي في هذه الجُثّة الّتي انطفأ قلبُها لا في قلوب أولئك». وتلفّتَ حولَه بعينَين واسِعَتين ناعِستَين، وشَعرُه يتهدّل فوقَهما، وقالتْ: «لو رفعتَ هذا الشّعر عن عينَيك لأراك». فردّ: «لا أريدُ لأحدٍ أنْ يراني، أنا هكذا أفضل». «هل تختبِئ خلفَ هذا الشّعر الطّويل المُنسدل على وجهك؟». «لن يصعبَ عليكِ أنْ تريني إذا أردتِ».

ووافقتْ أنْ تذهبَ معه إلى القرية، دخل بها إلى المكتبة، وساحَ بها بين رفوفها، وأحسّتْ أنّها تدخل في عقل هذا الفتى، وعرّفها ما كان يقرأ هو وأبوه، وتركَها تتمدّد على الأريكة الّتي كانا يجلسان عليها معًا، وراحَ يتلو عليها ما يحفظُ من أشعار أبي نواس، وهو ينظر في عينَيها اللّوزيّتَين، ووجهها القمحيّ، ونزل بنظره إلى صدرها المُكتنِز، وخُيّل إليه أنّه يترَجْرَجُ تَرجْرُجَ الخمر في الكأس، فاستيقظَتْ فيه الشّهوة، وعوى الذّئبُ في خلاياه عُواءً شهوانيًا، ولولا أنّ قَرْع الكُؤوس في أبياتِ أبي نواس كان أعلى من ذئب الشّهوة لراحَ يلتهمها بقُبُلاته الحميميّة، ثُمّ جذبَها من يَدِها المُخمليّة، وخرجَا إلى السّاحة، وأحسّ أنّ يده صارتْ نَدِيّة، وأنّ عروقَه اخضرّتْ، وجلسَا تحتَ الشّجرة، وقَصّ عليها إحدى

حكاياتها، وحانتْ منها التِفاتةٌ إلى القبر، وركضَ سؤالٌ في عينَيها سَمِعَ هو صوتَ لهاثِه، وصَدّه قبل أنْ يستمرّ في الرّكض دون أنْ يدري إلى أين، وهتف: «نعم... قَبْرُ أبي». وترَكَها مشدوهةً تُقلّب طرفَها في الشّجرةِ حينًا وفي القبرِ أحيانًا، ودخل إلى البيت، وعادَ مُسرِعًا منه وهو يحمل زجاجةَ الخمر، وكأسَين، وناداها: «تعالَي، لقد نادَتْني روحُه». واقتربتْ مُتوجّسةً ناحيةَ القبر، وسكبَ لها الكأسَ ومدّه إليها، وهي لا تزال غيرَ مُصدّقة، وسألتْ بصوتٍ مجروح: «تشرب؟!». فردّ كأنّه استغربَ سؤالها: «منذُ الثّانية عشرة». وأرجعتْ رأسَها إلى الوراء: «لقد تأخّرتُ، أريدُ أنْ أعود». «ليسَ قبلَ أنْ تشربي معي». «أنا لا أشرب». وهتف: «مسكينة. مسكينٌ من لا يشرب». وتقزّزتْ وهو يكرعُ الكأس، وأدارتْ رأسَها إلى الجهةِ الأخرى، وأرادتْ أنْ تُولّي، لولا أنّها رأت امرأةً قادمةً من بعيدٍ في شُرشِها الأسود، ولفّةِ رأسِها الدّاكنة، وفي يدها بعضُ الحاجيّات قد جلبتْها من السُّوق، وقال لها وهو ينظر بعينَين زائغتَين، قبل أنْ يبدأ سؤالُها بالرّكض في مدى عينَيها: «أمّي. امرأةٌ طيّبة. ربّما من الجيّد أنْ تتعرّفي إليها». ووجدتْ في رؤيتها شيئًا من الطّمأنينة، وكانتْ أمّه قد اقتربتْ منهما، وقال لها: «هيام، زميلتي في كلّيّة الطّبّ، جاءتْ لتقرأ الفاتحة على روحِ أبي». وأكملَ وهو يضحك:

«ظلّتْ تقول لي طَوال العام أريدُ أنْ أرى البطن الّتي أنجبَتْك، وأنا أقول لها أمّا أنا فأريدُكِ أنْ ترَي النّطفة الّتي قذفتْ بي إلى هذا العالَم المُراوغ، تعالَي إلى القبر». وأرادتْ أمّه أنْ تُولول، أن تصرخ، واحتارتْ بينَ ذلك وبينَ أنْ ترحّب بالضّيفة، أنْ تقول شيئًا، لكنّها ظلّتْ خرساء، أعطتْهما ظَهرها، ودخلتْ إلى البيت، ورأى هو الحيرةَ في عينَيها، فهتف: «يُستَحسَن أنْ ندخل، إنّها ستُعِدّ لنا طعامًا طيّبًا».

قال له أبوه: «إنّه يلزمنا لكي نعرف، ديوانُ امرئ القيس، وكتابان في المنطق، وثلاثة كتب في الفلسفة، وعشر زجاجاتٍ، وكهف». «من أجل أنْ نعرفَ ماذا؟». «من أجل أنْ نعرفَ اللّه والشّيطان». وقال: «أعرفُ الكهف، بقي عليكَ أنْ تعرّفني اللّه والشّيطان». ومضَيا إلى رأسِ الجبل، كان الكهفُ تجويفًا في قعر صخرةٍ ضخمة، قد بسقتْ حولَها الأشجار من كلّ ناحية، وقَضَيا ثلاث ليالٍ فيه، يقرآن، ويشربان، ويضحكان. وقال لأبيه في ادلهمام اللّيلة الثّالثة: «غارت النّجوم، وانطفأتِ الشّرارة». «نحن مَنْ يبدأ النّار». «نحن في سجن». «كيف؟». «لا يفهمنا أحدٌ». «أنا أفهمك». «قلتُ نحن؛ أنتَ سجينٌ مثلي يا أبي». «لا تكرهْ أحدًا ولا تعشقْ أحدًا؛ مَنْ يستحقّ ارتجاف هذه المُضغة في

الصّدر غير المعرفة، غيرُ الكأس، غيرُ التّوق». «نحن لا نملك هذه المُضغة حينَ ترتجف». «الضّعفاء لا يملكونها، نحنُ لسنا كذلك». «إنّنا نموت». «نحنُ لا نموت. نحن نجومٌ، قد نغيّر مواقعنا، قد يكسرنا الضّوء، قد نلمَع هنا فيما نحن هناك، ولكنّنا لا ننطفِئُ بحال أبدًا». ورأى زهرةً أضاءث في ليلتهما الأخيرة، وسأل أباه: «ما تكون هذه الزّهرة؟». «إنّها زهرة الخشخاش يا بُنيّ؛ زهرة الحِكمة، أتعرفُ كلّ ما سكبه أهل المعرفة من عِلم على جُلُود رُقُوقهم؛ إنّما كانث لامتلاء نقيع هذه الزّهرة في عُقُولهم». وضحك: «نأخذُها معنا إذًا». «بل تأخُذنا هي معها يا بُنيّ. أحسِنْ قولَك تَحكُمْ عِبارَتُك».

على طاولة الطّعام، نطقتْ: «إنّه طيّب». «لقد طيّبَه حُضورك». وظلّتْ أُمّه صامتة. وركبا معًا إلى آخر نُقطةٍ تصل إليها الطّريق التّرابيّة في الجبل. وقالتْ له بصوتٍ مهزوز: «إلى أين تأخذنا؟». «إلى اللّه. أنا أحبّ اللّه. ألا تُحبّينه أنتِ؟». ونزلا من السّيّارة، وجذَبَها من يدها. وشعرَ بارتِجافة يدها في يده كأنّها عصفورٌ رجفَ من الماء البارد في اللّيلة القارسة. ووصلا إلى القمّة، وتراءى لها الأفق، وشهقتْ، وهي ترى من هناكَ السّماوات البعيدة. وهتف: «هنا اللّه». ونظر حولَه،

وتابع: «كُلّ متصوّفة البشر ناموا تحتَ تلك الشّجرة»، وأشار إلى شجرةِ سنديان عتيقة تطاول عليها العُمر حتّى لم يعد للتّاريخ إلى جانِبها ذِكْر. وتقدّمها إلى حيثُ الشّجرة، وأتاح لها ذلك أنْ تُعاينَ نُحُوله الشّديد، إلى درجة أنّه خُيّل إليها أنّ كائنًا عظميًا هو الّذي يتحرّك أمامَها، وجلستْ إلى جانِبه، وهتف: «هنا... من تحت هذه الشّجرة، على هذه الهيئة مرّ الحلاّج، والسّهرودي، وابن الشّاطر، وبِشر الحافي، وماركس، وابن الفارض، والتّلمسانيّ، ويعقوب البارّ، والمسيح، وحسن الصّبّاح، وأبو ذرّ، وابن مسعود، وابن الحُباب، وابن ثمانين...». وأوقفته من سَيْل الأسماء الّذي بدا أنّه لن ينتهي على شفتَيه، وقالتْ: «مَنْ هؤلاء؟ أنا لا أعرفهم...». وردّ حزينًا: «بالطّبع! أنتِ لا تعرفين إلاّ مَنْ تقرئين عنهم في كتب الطّبّ الميّتة...». واستدرك: «ولكنّه لم يفتْكِ شيءٌ... لو تركتِ هُراء الجامعة لأهل الحُمْقِ، ونِمتِ معي هنا أربعين ليلةً، فستعرفينهم جميعًا، وسترينَ أرواحَهم». وشعرتْ بالخوف، وهتفتْ: «لقد تأخّرت». وابتسم: «أنتِ لا تعرفين إلاّ هذه الجُملة... قولي أيّ شيءٍ آخر... أيّ شيءٍ».

وعادَا إلى البيت. وانتحتْ بها أُمّه جانِبًا، وهمستْ في أُذنَيها: «أينَ ذهبْتُما؟ أنا أحذّرك». ورجفَ

صوتُها هي الأخرى: «مِمّ تُحذّرينني يا خالة؟». «مِن ابني... إنّه مجنون...». «مجنون؟!!». «أبوه كان كذلك؛ إنّها قِصّةٌ طويلة».

وسألها وهما يعودان إلى المدينة: «هل لمستِ الفارق؟». فسألته بدروها: «ماذا تعني؟». «بينَ الفضاء الواسع والجحور الضّيّقة». واستزادَتْه، فأردف وكان قد غاصتْ سيّارته في الشّوارع: «انظري إلى هذه الهياكل الجوفاء، إلى هذه المركبات الّتي يتقاذفها الشّارع، إلى هذه الأصوات الباردة... ستعرفين».

وأخذتْه أُمّه إلى الشّيخ الّذي عَلّمه القرآن، وانحنى ابنُ عبّاسٍ وقبّلَ يدَ شيخه، وابتدره الشّيخ بعدَ ذلك فاحتضَنَه. وقالتْ أمّه للشّيخ: «إنّه مَمْسوسٌ يا مولانا». وردّ الابن: «بل هي المَمْسوسة يا سيّدي، إنّها لم تشعرْ بي يومًا». وتغاضَى الشّيخ عَمّا قاله ابنُ عبّاس، وهتفَ بأمّه أنْ تتركه له. كانتْ رائحة الخمر تفوحُ من فمه. وهبطا الدّرجات إلى المكان الّذي كان يحفظُ فيه القرآن، وجلسَا إلى المحراب الصّغير، وشعر الشّيخ برغبةٍ في البكاء، وهو يرى عينَي تلميذه السّاجِيتَين، كان يبدو أنّه ينظر في الفراغ ولا يرى شيئًا، وهتفَ بحنوّ: «ما الّذي أصابكَ يا بُنيّ؟». «رحيلُ أبي كسرني يا شيخ، أسمع صوتَه في أذني، لا أستطيع

أنْ أدرك أنّه رحل، أكلّمه في اللّيل، صوتُه، هل تدرك معنى أنْ تسمعَ صوتَ أبيك دون أنْ تراه، لكنّه يُخاطبني بصوتٍ صافٍ كأنّه هنا، أُقسم لك بالآيات الّتي حفظتُها أنّني أسمعه، وأحادثه، ويطلبُ منّي أشياء، أشياء كثيرة، ويُحاورني كما لو أنّه ما زال هنا، هنا في مكانٍ ما، ليسَ في أذني فقط، بل في كلّ ذرّةٍ فِيّ، في هذا الفراغ، في هذا الوجود، أنا أعرفُ صوتَ أبي، لا يُمكن أنْ أُخطِئه، إذا كان غير موجودٍ، فلماذا يُجيب عن أسئلتي كلّها، ويُحاورني في تلك الأمور الّتي لم ننتهِ من الحِوار فيها؟! هل أنا أهذي؟! كلاّ سيّدي الشّيخ، الصّوت الحقيقيّ لا يصدر إلاّ عن جسدٍ حقيقيّ، هذا الصّوتُ أثبتُ عندي من صوتي أنا!!». وسحّتْ دموع الشّيخ دون أنْ يدري ماذا يقول، ووضع يده على صدر الفتى، وتلا عليه: «ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريد».

ورآها مُقبِلة في الكُلّيّة، فشعر أنّه وجد نفسَه، «ما علينا لو قرأنا تحت تلك الشّجرة شيئًا بعيدًا عن هذه القاعة الّتي لا تكفّ عن القذفِ بالموتى أو ابتلاعهم». وسارا إلى الشّجرة، وقال: «الشّجرة نَبْتُ الحِكمة، وقوفُها شامخةً هازئةً بكلّ ما حولَها عَلَّمنا أنّه لا شيءَ يستحقّ، نحن لا نستحقّ، هذا الكون لا يستحقّ، الطّبّ لا يستحقّ، وحجارة العُقم الّتي

تتدحرجُ في هذه الكلّيّة لا تستحقّ». «وما الّذي يستحقّ إذًا يا حافظ؟». «هل يُمكنك أنْ تعرفي بِمَ يضجّ هذا العالَم الفسيح الّذي ينزوي في زاويةٍ صغيرةٍ من صدري؟». وأخذَ يدها، وهَمّ أنْ يُقبّلها وهو يرى أصابَعها الرّفيعة المُنمنَمة، ولكنّه عدَلَ بها عن شفتَيه الشّاحبتَين إلى صدره، وأحسّتْ بنبضاتِ قلبه السّريعة، وانتقلَ إليها صوتٌ قادمٌ من جُبّ عميقة، ونظرتْ في عينَيه السّاجيتَين، وغاصتْ فيهما، وأدركتْ أنّها تورّطتْ كثيرًا، وانزلقتْ معه في الدروب المُظلمة إلى آخرها!!

وقال لها: «قتلوا أبي». واستغربتْ: «مَنْ قتَلَه»؟!. «جهل النّاس، إنكارهم لحقّه في الحَياة، وتصاغرهم عن أنْ يعرفوه، ولو ظلّ النّاس يتعاملون معي بهذه الطّريقة فسيقتلونني أنا أيضًا». وسكتَ، فلم تجدْ شيئًا لتقوله له، وتابع: «وهل ستقتلينني مثلهم؟». وفاجأها السّؤال، وأرادتْ أنْ تضحك، وتسأل: «أنا؟ لماذا؟». لكنّها بدلاً من ذلك هَمّتْ أنْ تحتضنه كطفلٍ مُدلّل، وتبكي من أجله. ونزّتْ دموعٌ صافية بالفعل من زاوية عينها اليُسرى، ومسحَتْها بأطراف أصابعها، وهمّ هو بدوره أنْ يمصّ تلك الأصابع الّتي مسحتْ بها دموعها، ولكنّه أوقفَ نفسَه، وسألها: «ماذا تعرفين عن ويليام جيمس؟».

(7)
الصّلاةُ خيرٌ من النّوم

في السّنة الثّالثة لدراسة الطّبّ، صعدَ إلى الجبل، سارَ بخطٍّ مُستقيمٍ إلى الكهف، الكهف الّذي مرّتْ على لياليه الثّلاث مع أبيه خمسُ سنواتٍ عِجاف، احتاج إلى أنْ يقضيَ فيه ثلاثَ ليالٍ كليالي أبيه من أجل أنْ تُضيءَ له زهرة الخشخاش في اللّيلة الثّالثة فتملأ كهفه المُظلِم بالنّور، قامَ إليها كقِدّيس، ومشى بخطواتٍ جذلى، لكنْ ببطءٍ وحذر، كحبيبٍ يخافُ أنْ يفقدَ حبيبه، ومدّ يده المُرتعشة، وعادَ بها إلى البيت، وضعها في فازةٍ زُجاجيّة، وقبّلَ أوراقَها، وسَقاها بالماء. لم ينمْ ليلتَه تلك من الفرح، ظلّ ينظر إلى نُورها في الظّلام حتّى سقطَ اللّيل. قام في الفجر إلى قبر أبيه، وحفرَ لها حفرةً تليقُ بمقامَها، وزَرَعها هناك، وقفَ على رأسِها، وخاطَبها: «سيفرح أبي بجوارك كثيرًا». وظلّ يسقيها حتّى حلّ اللّيل من جديد، سمع صوتَ أبيه: «لم تنسَ إذًا؟». فردّ: «خمسُ سنين يا أبي لن تُنسيني، ألسنا نتوقُ إلى الحِكمة معًا؟! ولئنْ فاتَنا في حياتَك أنْ نفعل ذلك، فها أنا أفعلها في حياتِكَ الأخرى». وأعطاها ظَهره، وولّى إلى غرفته، وتمدّد على سريره، لكنّه لم يغمضْ له جفنٌ!

نمتِ الزّهرة بشكلٍ سريعٍ وعجيب، برعمتْ أكثر من عشرين برعمًا في أقلّ من أسبوع، أخذ البراعم وزرعها حولَ القبر بشكلٍ دائريّ، وظلّ يزرع المزيد منها حتّى غطّتْ زهرة الخشخاش ساحة البيت، واقتحمتْ العتبة، والدّرجات السّبع الّتي تُفضي إلى المدخل الرّئيسيّ، حدثَ ذلك في أقلّ من شَهر. وفَزِعتْ أُمّه من هذه النّبتة الغريبة الّتي ظهرتْ فجأةً، وسألتْه عنها، فقال لها: «إنّها نبتة الحِكمة. انظري إليها كم هي جميلة؛ سيقانها الخضراء الدّاكنة، وزهرتها البنفسجيّة اليانعة». ولكنّها توجّستْ منها: «إنّها تنتشر بسرعة». «إنّها لعزيزةٌ على مَنْ عرف». وكان يشقّ ساقَها، ويشربُ السّائل الّذي ينزّ منها بتلذّذٍ طاغٍ.

ولم يُشفَ ما في صدر أُمّه مِمّا رأتْ، وظلّتْ منها على خوفٍ وحذر، حتّى قطفتْ زهرةً منها وذهبتْ بها إلى عجوزٍ في القرية، وسألتْها عنها، فقالتْ لها: «إنّها مُخدّر». وعادت الأمّ مُولولةً إلى ابنِها: «تزرع المُنكرات في ساحة بيتنا يا صالح». وظنّ أنّها لا تُوجّه الكلام إليه، فقد نسي لوهلةٍ أنّ (صالح) هو اسمُه أيضًا، وهتف: «ومَنْ قال لكِ ذلك؟». فردّتْ: «عجوزٌ في القرية». فضحك حتّى بانتْ أسنانه على غير انتظامٍ من خلفِ ثَغره: «وهل تصدّقين امرأةً خَرِفة؟ قُلتُ لكِ

إنّها تهبُ الحِكمة، ولكنّ الحِكمة - فيما يبدو - بعيدة عن عالمكنّ المُتخلّف أيّتها النّساء الهَرِمات». ولانتْ عباراتُها وهي تستعطفه: «إنّ الله لا يقبلُ مِنّا إلاّ طيّبًا يا بُنيّ». «إنّكَ تحكمين بجهلٍ يا أمّي، أنا أعرفُ الله خيرًا منك». «إنّ أباكَ قد ماتَ وأنا من حاله في حسرة، فلا تزدْ حسرتي وأنتَ تمشي في طريقه». «إنّ أبي كان من أهل الله، ولكنّ النّاس أرادَتْه من أهل الشّيطان». وهمّ أنْ يقول لها ما قاله الحجّاج في احتضاره: «إنّ هؤلاء يزعمون أنّكَ لن تغفر لي»، ولكنّه ابتلع العبارة وصَمَت، وتركتْه ودموعها تسحّ على خَدّيها، وكانتْ تُدركُ من جديدٍ أنّها تفقده.

ولم تطمئنّ أُمّه إلى ذلك، فاستشارت العجوز إيّاها في محاربة الزّهرة الوقحة الّتي اقتحمت البيت، فقالتْ لها: «صُبّي عليها من بَول النُّوق، ورَوث البِغال، وبَعَر الشّياه». وعملتْ أُمّه بنصيحة العَجوز فكانتْ تخرجُ من الصّباح، تكنس الرّوث والبَعَر من طرقات القرية، وتسأل الرّعيان أنْ يأتوها ببول النُّوق، وكانتْ تدفع لهم من أجل ذلك أموالاً كثيرة، وبعدَ شَهرٍ آخَر، تغوّلت الزّهرة حتّى تعربشتْ على جدران البيت، وتسلّقتْ على أسقفه، وتلّوثْ على صنابير المِياه. وسيطر الذُّعر على عينَي أمّه وهي ترى ذلك، وصرختْ:

«إنّها نبتة الشّيطان، الشّياطين تُحيطُ بنا من كلّ جهة. يا ربّ رحمتك». فردّ: «كُفّي عن إضاعة مالك وقُوّتك في الجري وراء الأوهام، ودعي زهرةَ الحِكمة وشأنَها».

ووفّرتْ له زهرة الخشخاش في شتاء الجبل المُهلك ليالي من الأُنس لا تُنسَى. وكان يجرح ساقَها عند أبيه، فيسيلُ حليبُها على ظهر القبر، فيشعر أنّ عِظام أبيه قد تحرّكتْ من تحته، وأنّ ذرّات التّراب الّتي تجثم فوقَها حجارة القبر قد تنمّلتْ، فيهتف: «اشربْ يا أبي في الآخرة كما كنتَ تشربُ في الدُّنيا». فيسمع صوتَه: «اسقِني يا بُنيّ فإنّني ما زلتُ عطشان». فيعودُ إلى الدّاخل راضِيًا جَذِلا، ويجلسُ على الأريكة في المكتبة، يكرعُ كأسًا بعدَ أخرى، ويترنّم بقول القائل:

وكأسٍ ترى بين الإناءِ وبينَها

قَذى العينِ قد نازعتْ أمّ أبانِ

ترى شارِبَيها حينَ يَغْتَبِقانِها

يَميلانِ أحيانًا ويَعتدِلانِ

وخُيّل إليه أنّ (أمّ أبان) قد خرجتْ من بين أوراق الكتب، بيضاء، مُهفهَفة، عارية، ترقص بغنج، يهتزّ كلّ شيءٍ في جسدها البَضّ، ويعوي فيه ألفُ ذئبٍ،

وهي تردّد البيتَين وتزيدُ عليهما بقولها:

فما ظَنُّ ذا الواشي بأبيضَ ماجدٍ

وبيضاءَ خَوْدٍ حينَ يلتقيانِ؟!

ثُمّ تهوي عليه، فيقع فيها وتقع فيه، ويذوبان... ويذوبان!

وضمّهما مُختبر التّشريح من جديد، وكان يُعمِل في الأجساد مِبضعه باحتِراف، ويقول للجثث: «أنا أحسنُ صديقٍ لكم، إنّه لن يعرفَ ما كنتم عليه ويغفر لكم سِواي، وهؤلاء...» وينظر في وجوه زميلاته وزملائه: «لا يرون ما أرى». وكان يُغطّي عِظامهم باللّحم في خياله، ويُنشِئ لهم عيونًا تلمع في داخل التّجاويف الفارغة، ويملأ الجماجم بتلافيف الدّماغ، ويُرجّل الشّعور النّاعمة على الرّؤوس، ويُلبِسهم لباسَهم الّذي كان يُخيّل إليه أنّ الجُثث عاشت حياتَها ترتديه، فألبسَ بعضَها فساتين، وأخرى عمائم، وثالثة ربطات عنق، وأنمى لبعض الذّقون لِحًى، وحلقَ أخرى، وأكنزَ صدورًا، وأضمر أُخرى... وكان يُخيّل له أنّ الجثث تعودُ حية، وأنّها تقومُ من رقدتها وتجلس على حوافّ المناضد، وتركن أيديها على تلك السّطوح، ترتاح من تعب الموت، ثُمّ هيّ تقفز من تلك المناضد على سُوقِها،

وإذا هي حَيّة كما كان أوّل عهدها بالحياة، لكنّها ازدادت حِكمةً بعد أنْ ولجتْ عالَم الموت وعادتْ منه، ثُمّ هو يُحادثها، ويُمازِحها، وينصحها، ويُلقي في رُوعها فلسفاته. وظلّ على ذلك إلى أنْ صُعِقَ ذاتَ مرّةٍ أمام إحدى الجثث، وصاحَ صيحةً ارتجّتْ لها جَنَبات المُختَبر، وسقطَ مغشيًّا عليه، وانخلعتْ قلوب زملائه لتلك الصّيحة، وهُرِعوا إليه، وحملوه إلى المستشفى، وحينَ أفاق لم يرَ غير وجه (هيام)، وكانتْ عيناه لا تزالان ترشحان بالرّعب، وأطرافُه ترتجف، وهدّأتْ ابتسامتُها الحانية من رَجَفانه، ومن تعبِ رُوحه، وسألته: «ما الّذي أصابك؟». وظلّ صامِتًا، وأردفتْ: «لم تكنْ أوّل مرّةٍ تقفُ فيها أمام جُثّة، إنّكَ أخبرُ من أستاذ التّشريح في التّعامل مع تلك الجثث؛ فما الّذي حدث؟». وابتلع ريقَه بصعوبة، وهو يقول لها: «إنّها جُثّة أبي». وهَزّتْها الكلمة، ونظرتْ حولَها لتتأكّد من أنّه لم يسمعْ ما قالَه سِواها. وسألتْ: «جُثّة أبيك؟!». لقد قلتُ لهم في ذلك اليوم: «إنّ أبي لم يمت، وإنّهم قتَلوه، وأخذوا جُثّته للتّشريح، وها هي بعدَ أربع سنواتٍ من ذلك اليوم تظهر هنا، ومَنْ يدري كم مختبرًا عرض فيه هؤلاء الملاعين جُثّته عاريةً قبل أنْ يأتوا به إلى مُختبرنا؟!». ولم تشكّ في أنّ وعيه لم يعدْ إليه بعدُ، فتناولتْ كأسًا، ورشقتْ بالماء البارد وجهه، وسرت

البرودة في حُمّاه فهدأ، وأحسّ بتلك البرودة المُنعِشة، وهتفت: «إنّ قبرَ أبيك في تلك السّاحة قريبًا من شجرة الزّيتون المُعمّرة!». «لا، لقد أوهموني بذلك، لم يدفنوا في القبر إلاّ الكفن!». وطلبتْ من الطّبيب المُشرف عليه، أنْ يُعطيه حُقنةً مُهدّئة، ونامَ على إثر ذلك، نامَ لأوّل مرّة.

وتسلّل من المستشفى في اللّيل إلى الجامعة، ودخل إليها من أحد الأبواب الخلفيّة، وكسرَ زجاج النّافذة، وقفز إلى المختبر، وهُرِعَ إلى جُثّة أبيه، واحتضنَها بكلّ ما في الكون من شوقٍ، وبكى على صدره بكاءً مريرًا، ونحب، وكادَ صوتُ نَشَقاته يفضحه، وقال له: «تركوك عاريًا في البرد يا حبيبي». وأعاده إلى سريره، وقال له: «لا تخفْ، ستكون في أمانٍ»، كانت الجُثث الأخرى في المختبر تبكي هي الأخرى، وسمع إحداها تقول: «لو أنّ لي ابنًا حانِيًا مثلك؟!». وضحكتْ جُثّة في الزّاوية البعيدة: «أنا ملعونة». وكانت تلك العبارة كلمةَ السّرّ، وخُيّل إليه أنّ الجثث كلّها قد جلست على مناضدها، واتّكأتْ على باطن أيديها، وأرختْ جماجمها على عِظام صُدورها، وراحتْ تردّد: «أنا ملعونة... أنا ملعونة...». وتحوّلت العبارة إلى نشيدٍ جماعيّ ارتجّتْ له الجُدران والأبهاء، وراحَ

يرقصُ هو على إيقاعها، وصرخَ في وسط النّشيد: «اخرسْن أيّتها المومياات القذرة، اخرسْن؛ أبي يحتاج إلى بعضِ الهدوء». وامتثلت الجُثت له، وسكتتْ، واضطجعتْ على ظهورها، وانسحبتْ إلى مناضدها، وسكنتْ تمامًا. وظلّ هو إلى جانب جُثّة أبيه حتّى غمر نور الشّمس فضاء القاعة العالي، وتوافدَ الطُّلاّب إلى المُختبر، ورأوه في هيئته الرّثّة، فلم يُلقُوا له بالاً، وارتاح هو إلى ذلك، وجاءتْ إليه: «تركتَ المُستشفَى؟». «بعدَ أنْ غادرْتِني مباشرة». «أنتَ محتاجٌ إلى الرّاحة». «أبي ناداني». وأخذتْه من يده كطفلٍ تائه، وانتحتْ به في زاوية بعيدة، وتلفّتَتْ حولَها قبل أنْ تهمسَ في أذنَيه: «إنّه ليس أباك». ولكنّه ظلّ يفحص الأرضَ بنظراته الزّائغة، وهَزّتْه من كتفَيه: «ليسَ أباك». ورفعَ رأسه إليها، ونصبَ كتفَيه، ونظرَ إليها من خلال حدقتَين بلهاوَين: «بل أبي، أنتِ لا تعرفينَ شيئًا». وتركَها، وتركَ المختبر، ورأى أستاذ التّشريح على الباب فهمّ بأنْ يبصقَ عليه، ويصرخ في وجهه: «قاتل». لكنّه زوى جِذعه، ومضى إلى القرية، وتمدّد إلى جوار القبر، وهتف: «اللّيلة أعيدك إلى هنا يا أبي. سامحني، لا يمكنني أنْ آخذكَ وهم ينظرون إلينا». وانتظر حتّى غطّت الجبال قُرصَ الشّمس، فاستقلّ سيّارته، وتأكّد من أنّ الكيس الأسود سيتّسع للجُثّة،

وأنّ بعضَ العَتَلات والمفاتيح معه، ووصل إلى الباب الخلفيّ للجامعة، وولجها، وقفز من الشُّبّاك إيّاه، ومشى جذلان إلى منضدة أبيه، وسمع أصواتَ الجُثث تسترحمه: «خُذنا معك». وبهدوء تامّ حمل الجُثّة بين يدَيه، وأودَعها في الكيس الأسود بعناية، وقبّل جبين أبيه، وهمس في أذنه: «سامحني، كان يجب أنْ أنقلك بطريقةٍ أكثرَ تهذيبًا». وارتجّت الجمجمة وهي تتأبّى على طرف الكيس وشدّ السّحاب، ومضى إلى الباب، وبالعتلة استطاع أنْ يخلع القفل بسهولة، وعادَ إلى الجُثّة وربّتَ عليها، وحملَها كما لو كانت عروسًا تُحمَل إلى مخدعها. وسارَ بها في طُرُقات الجامعة مطمئنًّا، حتّى خرجَ من حيثُ دخل، وأودعها في الكرسيّ الخلفيّ للسّيّارة، وسمعها تقول: «برفقٍ يا بُنيّ، برفق». وسارَ إلى البيت، كانت الطّرق إلى القرية ساكنة، مُظلِمة، مُوحِشة، وبعيدة، وكان أكثر أهلها قد ناموا، ومضى حتّى وصل إلى البيت، وتراءى له القبر على ضوء القمر الفضّيّ، وقد شَعّث حجارتُه السَّكَنِيّة، وشاهِدَتُه كانت أطول مِمّا كان يراها، وأنزل الجُثّة إلى الأرض، وهمّ بأنْ يبدأ بنبشِ القبر لكي يُعيدَ أباه إليه، لكنّه سمع الجُثة في وسطِ لُهاته وعَرَقِه الّذي يتصبّب منه: «في المكتبة يا بُنيّ، روحي ترتاح هناكَ أكثر». وكادَ يصل إلى الكفن لولا أنّ هذا الهاتف أوقفه، فرمى

المِعول، ومسحَ عرقَه بظاهر يده، وردّ: «حُبًّا وكرامةً يا أبي». وحمل الجُثّة من جديد، وارتقى الدّرجات السّبع، وكانتْ زهرة الخشخاش تُضيء هي الأخرى على تلك الدّرجات، وضحك، وهو يقول: «عادَ الحبيب». وسارَ حتّى وصل إلى الأريكة في المكتبة، ومدّد الجُثّة هناك، ونزعَ عنها الكيس الأسود، وتراءى له وجه أبيه، وخُيّل إليه لوهلةٍ أنّه ليسَ هو، وأنّه حمل الجُثّة الخطأ، وأصابه الهلع للحظة، قبل أنْ يُمعنَ النّظر فيها، ويرى صَفّ الأسنان يضحكُ له، وهتفَ وقد بردَ هَلَعُه: «إنّها ضحكة أبي». وأتمّ نزع الكيس الأسود، ثُمّ عمدَ إلى بعضِ المحاليل الّتي أعدّها لهذه اللّحظة، وراحَ يمسح بها الجُثّة بأكملها، وتوقّف عندَ موضع القلب، وهَمّ أنْ يبكي، ولكنْ لِمَ؟ إنّ أباه حَيّ، فلمَ يبكي؟! وستنتعشُ روحه إذا سَقاه، أو قرأ عليه ما كانا يقرآن، وأتمّ مسح الجُثّة، ثُمّ جلس إلى جانِبها على الأرض، وأرخى رأسه على صدرها، وحدّثَ أباه: «إنّنا بحاجة إلى الرّاحة الآن، وفي الغدِ مُتّسع، ولديّ الكثير مِمّا أريدُ أنْ أقوله لك». وغفا، لكنّه استيقظَ على صوتٍ قادمٍ من الحَمّام، وعرفَ أنّها أمّه قد قامتْ تتوضّأ لصلاة الفَجر، وسمعَ صوتَ باب غرفته يُفتَح، وصوتَها وهي تنادي: «صالِح، قُم، فالفجر قد نادَى، الصّلاة خيرٌ من النّوم».

(8)

هل الاعترافُ بالحبِّ ذنب؟

خَلَطَ زيت التربنتين مع الكافور مع النبيذ، وأضاف إلى الخليط نترات الصوديوم، ونترات البوتاسيوم، وبرّده في وعاء بلاستيكيّ كبير في الثّلاّجة، وكان يدهنُ جثّة أبيه به. وبحثَ عن ثِيابه، فوجد أنّ أمّه قد تبرّعتْ بها كُلّها، وصرخ بها: «كان أولى بثيابه من الآخرين». ولولتْ عندما رأتِ الجُثّة تتمدّد على أريكة المكتبة، وكشفَها صوتُها المذعور: «هل سرقتَ هذه الجُثّة من الجامعة يا صالح؟». ونظرَ إليه مُستخفًّا: «أنا لم أسرقْها، إنّه أبي، وأنا أعدتُه إلى بيتِه». ودارتْ بها الأرض، وكادتْ تسقط، وأنقذتْها شَهقةٌ عميقة: «أبوكَ ماتَ يا صالح؟». «وهذا الّذي ترينَه؛ أليسَ أبي؟ تعالَي». وقال الكلمة الأخيرة برجاء طفلٍ بريء، واقتربتْ من الجُثّة، وصرختْ من جديد: «إنّه ليسَ أباك». «كاذبة، إنّكِ لا تعرفينه كما أعرفه، إنّه هو، انظري إلى ابتسامته، لو كنتِ تلحظين تلك الابتِسامة في حياتكما لعرفتِ أنّه هو، ولكنّكِ كنتِ لا تنظرين إليه طَوال عشرين عامًا، لم تكوني تنظرين إلاّ في الأواني الفارغة». وصكّتْ وجهَها بيدَيها، وخرجتْ من الغرفة، وسمعتْه: «أينَ ثِيابه؟ لماذا تبرّعتِ بها؟ هل

سنتركه عاريًا؟». وخلعَ ثيابه، وراحَ يُلبِسها له بهدوء. وسمعَ صوتَه: «برفقٍ يا بُنيّ... زرّر لي القميصَ جيّدًا، امسحَ على ياقته، ورُش بعضَ العُطور، وحاول أنْ تجدَ لي كأسًا نظيفة». وفعل. وجلسَ على الأرضِ بقربه، وسَمِعَه يقول: «اقرأ يا ماركس». واستحضَر ماركس أحبّ الكلمات إلى أبيه في حواراتهما الأخيرة:

فَلَوْ أَنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيْعَةً

وَلَكِنّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أنْفُسَا

وَبُدِّلْتُ قَرْحًا دامِيًا بَعْدَ صِحَّةٍ

فَيا لَكِ مِنْ نُعْمَى تَحَوَّلْنَ أَبْؤُسَا

وظلّتِ الجُثّة عامَين، يُطيّبها كما لو كانا سيذهبان معًا إلى حفلٍ، وكان يُحادثه كأنّه ما زال هو هو، وسرقَ بعدَ ذلك بشهرَين، جُثّةً أخرى، وتكوّمت الجثث في بيته، وظلّتْ أمّه تُولول حتّى فكّرتْ أنْ تتركَ البيت وتذهب لتنام عند أحدٍ من أقاربها، لكنّه لم يكنْ لها أحدٌ في القرية، لم يكنْ لها أخٌ، وأخواتها السّت مُتْن، وآخرهنّ موتًا غادرت الحياة قبل ثماني سنوات، وأبوها وأمّها قبل ذلك بكثيرٍ، واضطرّتْ للعيش مع الجُثث، وصارتْ تأتيها الكوابيس كلّما تذكّرتْ في اللّيل أنّ هناك ما يقربُ من عشر جُثثٍ في البيت، يُجلسها ابنُها

المجنون في المكتبة وبين رفوفوها وفوقَ الكُعُوب، ويروح يُحادثها. ودبّ فيها الرّعب، في ليالي الشّتاء، وكان يُخيَّل إليها اختِلاطُ أصواتِ الرّعد وصوتُ هطول المطر الغزير مع أصواتِهم، وكانث تنظر إلى قطرات الماء الّذي يسيل في خطوطٍ مُتعرّجةٍ على نافذة غرفتها فتحسّ أنّها دموع الجُثث، وكانث ترى بين فينةٍ وأخرى على كلّما لمع البرقُ وجوههم الرّاشحة بالرّعب، وعيونهم المفتوحة، وأفواههم وهي تصرخ: «أنقذينا».

كانتْ سرقة جُثّة أبيه عن طريق خلع بباب مختبر التّشريح، لكنّ الجُثث الأخرى سُرِقتْ عن طريق رشوة الحارس الّذي يملك المِفتاح، كان يجمع له النّقود من أمّه ومن بيع الزّيتون في الشّتاء، وكان يسرق على فتراتٍ متباعدة حتّى يُبعِدَ الشُّبهة، ولم تصلْ تحرّيات الشّرطة إلى نتيجةٍ، فلم يكنْ أحدٌ يهتمّ كثيرًا بسرقة الموتى، مَن هذا المخبول الّذي يجد في سرقة الجثث المتفحّمة، والعظام البالية مُتعةً؟! ولكنّ السّارق انكشف رغم حذره الشّديد. وحينَ داهموا بيتَه، لم يجدوا غير جُثّة أبيه، أمّا الجُثث الأخرى فكان قد حفرَ لها قبورًا في ساحة البيت، وجرح سيقان زهور الخشخاش على عِظامهم، وسقاهم، ثُمّ أهال عليهم التّراب، وراحث زهور الخشخاش هذه تنمو على القبور من جديدٍ، فلم

يلحظْ أحدٌ أنّ أمواتًا تحتها يرقدون بسلام! وكانت السّاحة بديعة المنظر، مستويةً حتّى لا تكادُ ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا!

وقال لهم: «لم أسرقْ أحدًا. الموتى عادوا إلى ديارهم الّتي جاؤوا منها». ولم يشكّوا في خَبال عقله، ولمّا فتّشوا البيت لم يجدوا غيرَ جُثّة أبيه، فأعادوها إلى الجامعة، وبكى عليها بُكاءً مريرًا حتّى فقد الوعي. واعتكف في البيت شهرًا بعدَها، وكادَ يُفصَل من الجامعة لولا تدخلّ هيام؛ هيام الّتي أحبّته ولم تُصدّقْ أنّه سرقَ هذا العدد الكبير، وأسرّ في أذنها: «سرقتُ آلاف الحشرات والحيوانات، ولم ينتبهوا؛ هل الإنسان عندهم أغلى من الحيوان؟!».

وقالتْ له: «إنّها خمسُ سنواتٍ من العشق، مشيتُ في دروبٍ لم يكنْ لأحدٍ أنْ يمشيها معكَ سِواي، وكنتُ أسأل نفسي في اليوم ألفَ مرّة، لماذا تفعلين ذلك معه؟ هل سرقَ عقلك؟ ما الشّيء الّذي يُميّزه حتّى تقبلين بغريبٍ مثله؟ ولكنّ الأسئلة في الحبّ تبدو لا معنى لها، تبدو سطحيّة، تبدو بلا إجابات! هل يملك العِلم تفسيرًا مُمكنًا لذلك؟ الحبّ يُفسّر نفسَه بنفسِه، لقد أحببتُك؛ أحببتُكَ من كلّ قلبي، وهذا يكفي؛ هل الاعتراف بالحبّ ذنب؟ وإنّ الطّريق إلى بيتنا

مفتوحة». وألقَى رأسَه على صدره، وقال بعدَ لحظةِ صمت: «الطّريق إلى بيتكم طويلة». وردّتْ: «إنّها لقصيرةٌ على مَنْ أراد».

وقال لأبيها: «أنا حافظ، ولي خمسةُ أسماء أخرى، ولكنّني أقدّم نفسي بالاسم الّذي تُحبّ ابنتك أنْ تُناديني به، أنا يتيم، ولا يوجد أحدٌ أكبرَ من نفسه ولا من اسمه، وأريدُ أنْ...». وتوقّف عن أنْ يُكمل، وأنقذه صوتُ أبيها: «أنا لا أزوّج ابنتي لمجنون». وهمّ أنْ يقفَ على قدمَيه، ويصفعه، لكنّ قدمَيه خانتاه، وظلّ صامتًا، يفحص الأرضَ بنظراتٍ زائغة. وخرجَ مع أمّه في سيّارة اللاّدا، وعادا إلى القرية.

وقالتْ له في اليوم التّالي: «جَبان، لم تُقاتلْ من أجلي!». وردّ: «المجانين لا يُحسِنون القِتال، إنّهم يخبطون خبطَ عشواء». وكرّرتْ: «الطّريق إلى بيتنا ما تزال مفتوحة».

وتخرّجا في كلّيّة الطّبّ، وتزوّجتْ من زميلٍ آخَر، كان أبوه مثل أبيها في العسكريّة، وقال الأب لأبيه: «النّاس لا تفهم أنّ الرّتب مراتب». وسافرا معًا إلى أمريكا ليُكمِلا اختِصاصهما في التّشريح. وهامَ هو في الدّروب المُتشعّبة المُظلمة المنخورة في عقله،

وأدمنَ على السُّكر، وقالتْ له أمّه: «جَبان، لم تُقاتِلْ من أجلها!».

وعمل في مُستشفى (البشير) عامًا في قِسم الجراحة، قدّمتْه شهاداته، وعلاماته الّتي لم يحصلْ عليها أحدٌ في كلّيّته منذ تأسّستْ. ثُمّ انتقل إلى مستشفى المركز العربيّ للقلب، وبدأ من هناك رحلةً لم يجدْ أمتعَ منها في حياته.

كان يُحبّ القلب، يشقّ القفص الصّدريّ حوله، ويُخرجه من بين الضّلوع، ويحمله بكلتا يدَيه، ويُحدّق فيه تحديق العاشق، وتُراودهُ نفسُه في أنْ يقضمَ منه مُضغةً، لكنّه يحسّ بعيون زملائه من حوله تُحملقُ فيه فيتراجع، يُجري العمليّة ويُعيده إلى مكانه، وهو لا يزال يحلم بقضمةٍ كقضمة التّفّاحة الأولى، ويحرّك لسانه وهو يشعر بلذّة.

وفدَ إلى المركز مرضى من أنحاء العالَم كلّه، كان يستمتع بالنّظر إلى قلوبهم، ووصلتْ سمعتُه إلى الدّول خارج الأردنّ، لم يُجرِ عمليّة واحدة دون نجاح، كان يوسّع الشّريان التّاجيّ، ويُغذّي القلب، ويُعيده سليمًا إلى ضلوع صاحبه، وينعم بعده المريض بحياةٍ هانِئة، كانوا يشعرون بنشاطٍ في الجسد، وبإقبالٍ على الحياة،

وبرغبةٍ عارمةٍ في العيش، بل إنّهم شعروا أنّ قلوبهم بُدّلتْ بقلوب عاشقين، فكانوا يُحبّون من جديد. واستمرّ هو في لعبته: إخراج القلوب من الصّدور وإعادتها إلى مكانها خلقًا آخَرَ أكثرَ نشاطًا وحيّويّة. وبدت تأتيه الهدايا من كلّ مكانٍ، وتنوّعت الهدايا في أشكالها وألوانها، حتّى إنّ بعضَ الرّجال الّذين كانوا مُشرفين على الموت وعادوا للحياة من جديد، بسبب أصابعه الذّهبيّة عرضوا عليه بناتهم للزّواج عندما عرفوا أنّه لا يزال عَزَبًا، وكانوا يقولون: «خُذْ قلوبنا».

وأعجبتْه العبارة الأخيرة، وبدأ مشوارًا آخَر على هذا المستوى، وصَدّقها بالمعنى الحرفيّ، فكان يضع نفسَه مكان الخالق العارف بخلقه، والصّانع الخبير بآلته، فيُقرّر مَنْ يُحيي ومَنْ يُميت، وصار يطلبُ طلبًا غريبًا من المريض الّذي يريد أنْ يُعالِجَ له قلبَه: «عليه أنْ يأتي مع ابنته فقط». وكان يحوّل المرضى الّذين لا بنات لهم إلى زملاء آخرين، ولكنّ هؤلاء المرضى كانوا يُصرّون على أنْ يُجريَ هو بنفسه العمليّات الجراحيّة لهم، وكان هو يُصرّ على طلبه، حتّى جاءَه بعضُهم بفتياتٍ جميلاتٍ ادّعَوا أنّهنّ بناتهم.

وكانَ لديه ميزانٌ دقيقٌ في الحياة والموت: هذا يعيش، وهذا يموت. وقرّر بعدَ عامٍ آخر أجرى فيه أكثر

من مئة عمليّة للقلب، أنّ كلّ هؤلاء المرضى يستحقّون حياةً أفضل بالموت، فبناتهم لم يعدْن جميلاتٍ بالقَدْر الكافي، ونفّذ رغبتَه القديمة، فكان يُخرج القلب، ويبدأ معه رِحلته، مصّ شيئًا من الدّم الثّاعب من القلبِ الأوّل، وأعادَه إلى ضلوعه، ثُمّ بدأ يشرب ذلك الدّم في القلوب التّالية، ثُمّ انتهى به الأمر إلى أنْ يقضم قضمةً خفيفةً في غفلةٍ من عيونِ مُساعديه، ثُمّ مارسَ لعبةً أخرى بعدَ أنْ فزع من منظره أحدُ المساعدين، وهدّده بأنْ يشي به، فأخذه من كتفه، وقال له: «سأخلع قلبك مثلما أخلع قلوبهم لو نطقتَ بحرفٍ واحد».

وتركَ قضم القلوب، وعادَ إلى سيرته الأولى، ولكنّه في زيارات الكَشْف على المُتعافين، كان يطلب من ذويه أنْ يخرجوا من الغرفة، ثُمّ كان يُعطي المريض حُقنةً في الوريد، ويكتب له على الخروج من المستشفى بعدَ يومٍ أو يومَين، وماتَ المريضُ الأوّل، ثُمّ الثّاني، ثُمّ الثّالث، وكرّتْ حبّات المسبحة؛ كان يُعطيهم مصلاً سامًّا، يُميتهم ببطء، بعضُهم مات بعدَ شهر، وبعضهم عاشَ سنةً أو اثنتَين، ولكنّه مات في النّهاية، وكانَ يلذّ له سماع النّبأ، ويرقصُ في اللّيل، وهو يضغطُ على طرف الإبرة المُميتة في الظّلام الشّاحب فتنزّ من طرفها الدّقيق مصلَ الحياة كما كان يُسمّيه.

ولم يطلْ به الأمر كثيرًا، فقد دارتْ حوله الشُّبُهات، واستُدعِي للتّحقيق الجنائيّ، وانتهى التّحقيق ببراءته، فلم يثبت عليه شيءٌ. ولكنّ سمعته بدتْ تسوء، ولم يعدْ أحدٌ يبعثُ مرضاه إليه، وكان يشعر بالرّاحة لذلك، ويهتف: «جَهَلة، إنّها إرادتي، ولو أردتُ لجعلتهم يرجعون إلى الحياة بقلوب العاشقين، ولكنّ الموتَ الرّحيم أفضل لهم». وقال له مدير المستشفى بأسًى: «كان بودّي أنْ أقول لكَ غير هذا الكلام، إنّها أربع سنواتٍ من العمل مع أفضل أطبّائنا، ولا أدري كيفَ أفسّر الموقف أمام عبقريّ مثلك؛ ولكنّنا بالمُختَصَر لم نعدْ بحاجةٍ إليك».

(9)

لماذا رحلتَ وتركْتَني؟!

ونام تلك اللّيلة الّتي طُرِد فيها من المُستشفى على الأريكة في غرفة المكتبة نومًا هانِئًا، نام خمسَ ساعاتٍ مُتواصلة، لم يحظَ بالنّوم لهذه الفترة الطّويلة من قبلُ أبدًا، ... وعندما استيقظَ أوقد سيجارة الحشيش وملأ الكأس، وراح يقرأ رواية (منزل الأموات)، ومرّ النّهار بطيئًا، ولم يسمعْ صوتًا لأمّه، كان يتوقّع أنْ توقظه على صلاة الفجر على عادتها... وانتظر حتّى انتصَف، وناداها بصوتٍ عال، لكنّها لم تُجِب، وصرخ: «أريدُ فنجانًا من القهوة يا امرأة». ولكنّها لم تُجب. وفكّر أنّها ذهبت إلى السّوق تشتري بعضَ الحاجيّات في غفلةٍ منه، أو أنّها تقفُ الآنَ أمام أحد الرّعيان تطلبُ منه أنْ يأتيها ببول الإبل. وهمّ أنْ يقوم إلى غرفتها ليتأكّد بنفسِه، ولكنّه وجدَ أنّ قواه لا تُساعده، ففضّل أنْ يظلّ مُمدًّا على الأريكة، ويُتابع قراءته، ثُمّ جاع، وقرصه الجُوع في معدته الحامضة قرصًا حادًّا، وصرخ: «يا امرأة أنا جائع، ألا يُمكن أنْ يجد الإنسان في هذا البيت لُقمةً يأكلها». ولكنّ الصّمتَ ظلّ ساريًا. ووقفَ هذه المرّة على قدمَيه، ومشى بتثاقلٍ إلى غرفتها، ووقف على الباب ينظر.

وجدَها واهنة، هرمتْ كثيرًا، لم ينتبه من قبلُ إلى أنّها هرمتْ في غفلةٍ منه إلى هذا الحدّ. وأراد أنْ يقول: «إنّك لا تصلحين للحياة؛ فالحياةُ أقسى مِمّا تظنّنين»، ثُمّ مشى خطوةً إليها، كانت مُسجّاة على السّرير تنظر بعينَين ذابلتَين، تختصران حُزن السّنين الثّقيلات الماضِيات، ووقعَ بصرُها عليه فنشطتْ قليلاً، وتحرّكتْ شفتاها وقالتْ شيئًا لكنّه لم يسمعْ ما قالتْ، ورفعتْ يدًا ضعيفةً تُشير إليه لكي يقترب، واقترب منها، ووجد لنفسه مكانًا يجلسُ فيها على السّرير إلى جانبها، وهمس: «كنتِ صحيحةٍ حتّى الأمس يا امرأة، ما الّذي أصابك؟». «لقد نهشني الحُزنُ عليكما، كنتُ أموتُ من أجلكما وأنتما لا تدريان». وأشاح برأسِه عنها، وهمّ أنْ يقول لها: «لم تفهميه، مثلما لم تفهميني». وأردفتْ: «لم تُجب لي طلبًا واحدًا طَوال حياتي». فردّ: «لم أكنْ حاضِرًا في حياتِك لكي أجيب لكِ طلبًا الآن!». وبكتْ في أعماقِها بكاءً جنائزيًّا، وصمتتْ طويلاً تستجمعُ أفكارَها قبل أنْ تقول: «سرقكَ أبوكَ منّي، لا أريدُ إلاّ شيئًا واحِدًا منك قبل أنْ أموت، أنا أعرف أنّ الله في قلبِك، ولكنْ أريدُكَ أنْ تسمعَ له، لقد كنتَ تُصمّ آذانك عن نداءاته طَوال هذا الوقت... كلّ ما أريدُه منك يا بُنيّ أنْ تعودَ إلى الله... لو كنتُ أملك أنْ أهبكَ روحي من أجل أنْ تعودَ إليه ما تأخّرت... يا بُنيّ ها أنا

أرحل، وأبوكَ من قبلُ رحل، كلّنا غرباء أنا وأنتَ وأبوك، فلا تزدْ غربتنا في الآخرة كما زدتَها في الدُّنيا...».
وسحّتْ دموعها على خدودها الشّاحبة، ثُمّ جاهدتْ لتمدّ يدها إلى يده، وشعرَ بالسّكينة تسيل في عروقه، وجاهدتْ أكثر لترفع رأسَها بما تستطيع، ولثمتْ يده، وتشمّمَتْها، وضمّتْها إلى صدرها، ورجتْه: «لا أريدُ شيئًا أكثر من ذلك!». وعادتْ فألقتْ برأسِها على الوِسادة، وأغمضتْ عينَيها بهدوء، وأطلقتْ زفرةً حرّى أخيرة، وسكنتْ كما لو أنّها أرادتْ بعد كلّ ذلك أنْ ترتاح من عبءٍ ثقيل طويلٍ!

وقال لهم: «لم يكنْ لها في القرية غيرُ أخواتِها، فادفنوها إلى جانبهنّ». فردّ عليه الحارسُ: «المقبرة امتلأتْ، ليس هناك مكان، ولكنْ يُمكن دفنُها في المقبرة التّحتا». وتسلّل في الليل، ونبش القبر السّابع الّذي عن يمين أخواتِها، وأخرجَ عِظامه، وحَمَلَها في كيسٍ أسود، ودَفنها في ساحة بيته، وهتف بالعِظام: «سامحيني، لم يكنْ هناك مكانك، كان لسواك، والآن يُمكنكِ أنْ ترتاحي هنا». وقال لهم في صبيحة اليوم التّالي: «القبر السّابع فارغٌ لو كنتُم تملكون عيونًا لتُبصِروا».

كان يزور المقبرة الفوقا بعدَ موت أمّه، ويسكر عند قبرها، وينام فيها ليالي، ويسأل: «رحلتُما

وتركتماني وحيدًا، لقد كنتما أنانِيَّيْن!».

وتذكّرها، تمشي في شوارع نيويورك، مَرِحةً، تُطلِقُ ضحكاتٍ هستيريّة، تنام مع زوجها الغبيّ؛ زميلهم الّذي كان يُغمَى عليه كلّما وفدث جُثّةٌ جديدةٌ إلى مختبر التّشريح، تصرخ من المتعة، وترتاح من اللّذّة، ورآها تطبع أحمر شِفاهها على صدره، مثلما كانث تطبعه على فُنجان القهوة المُرّة في أحد المقاهي العتيقة في المدينة. ولعنَ حياتَه، وحياتَها، والبهو الّذي جمَعهما في ذلك اليوم البعيد، وسقطَ في الفراغ، فلم يكفّ عن السّكر في المقبرة، ولا عن النّوم تحت شاهدة القبر، وكان يسمعُ صوتَ أمّه: «إنّ اللّه في قلبك، فلماذا تُصرّ على ألاّ تراه؟!».

ولم يجدْ عملاً بعد أنْ طُرِدَ من المستشفى، وملأ وقتَه بالقراءة، لكنّ الكتب لم تشفِ ما به، وصعد الجبل، واعتكفَ في الكهف، وأنفقَ ما لديه من أموالٍ على الحشيش والخمر، وعاشَ ليالي عاريًا في ذلك الكهف، وانتظر اللّيالي الثّلاث الأولى، فلم يرَ زهرةَ الخشخاش، وعبرتْه عشرات اللّيالي يستجلبُ ضوءَها، لكنّها تأبّث عليه، ونزلَ من الجبل إلى بيته، ورآه موحِشًا، يرشح بالموت في كلّ زاويةٍ من زواياه، وفكّر أنْ يعودَ إلى مختبر التّشريح ليستعيدَ جُثّة أبيه المسروقة، لكنّ

المختبر صار بعيدًا مثله، والجامعة صارتْ أبعد، والذّكريات أبعدَ وأبعَدَ، وسمع في إحدى اللّيالي صوتَ هيام يأتيه من شوارع نيويورك: «إنّه ليسَ أباك». واستيقظَ يتفصّد عرقًا، وسار إلى مدخل البيت، وفتح الباب، فصفعتْه ريحٌ قويّة، وبصقَ في الفضاء، وصرخ: «لا تقولي ذلك يا فاجرة». وصفق الباب خلفه وعادَ للنّوم، ولكنّه لم يستطعْ أنْ يغفو لحظة.

ووقفَ على قدمَيه من جديد، وسارَ إلى غرفةِ أمّه، كان سريرها لا يزال على هيئته منذُ ماتت، مثنيًّا من طرفه، كأنّها قد قامتْ للتّوّ من أجل أنْ تزقظه لصلاة الفجر، وتستعدّهي للصّلاة، وأحسّ أنّ روحَها تملأ المكان، وهتف: «هل أنتِ هنا؟». ولم يُجِبْه إلاّ صوتُ الرّيحفي الخارج. وشعَر بحفيفٍ يلفّ عنقه، فتلمّسها، فلم يجد إلى عروقَه النّافرة، ونظَرَ إلى النّافذة، فرأى رؤوسًا كثيرة تتسلّق على الزّجاج، مفغورة الأفواه، مفتوحة الأعين، وأسنانها تلمع على ضوء النّجوم، كأنّها رؤوس الشّياطين، وميّز من بينِها الجُثث الّتي كان يسرقها، كانتْ تستغيث، وتصرخ، وتلعن، وصرخَ هو بدوره: «ارحلنَ أيّتها الرؤوس العفنة». ولكنّها بدل أنْ ترحل، راحتْ تُقهقه، وتحفر بأظافرها وعِظام أصابعها على الزُّجاج، وتهتف بصوتٍ

جماعيّ: «أنتَ ملعون». فصرخَ بصوتٍ راعف: «بل أنتنّ الملعونات أيّتها العِظام النّخرة». وخرجَ من غرفة أمّه، وأغلق الباب، ودخل المكتبة، فتخيّل جُثّة أبيه مُسجّاة على الأريكة، واقتربَ منها، وجثا على رُكبتَيه، ودفنَ رأسه في طرف الأريكة، وتوسّل إليها: «لماذا رحلتَ وتركتَني؟!».

وأيقظته الشّمس، كان لا يزال دافِنًا رأسه هناك، ووقفَ على قدمَيه، ووهبته الشّمسُ بعضَ الطّمأنينة، ونظر إلى رفوف المكتبة، فرأى أغلفة الكتب كلّها قد تحوّلت إلى اللّون الأسود، وأنّ العناوين الّتي على كعوبها قد امّحت، وسار بين الرّفوف، وتناول كتابًا ما، وقلّبَ صفحاته، فرآها كلّها بيضاء، ليس فيها حرفٌ مطبوعٌ واحد، وقذف به إلى الأرض، وبصقَ عليه، ثُمّ تناولَ كتابًا ثانِيًا وثالِثًا، إلى عشرة كتب، كانت صفحاتها كلّها بيضاء، غير مرقومٍ فيها شيءٍ. وداسَ عليها وهو يخرج من البيت بائِسًا.

وطافَ في القرية يجمع بَعَر الشّياه، وروثَ الخيول، وزار الرّعيان، واشترى منهم بول الإبل، وعادَ فسقى زهور الخشخاش، وهتف: «اكبرنْ أيّتها الزّهرات حتّى تغطّين الأرضَ كلّها، وتعملقنَ حتّى تدفنّني أنا والبيت والسّاحة والسّيّارة وشجرة الزّيتون وقبر أبي

تحتكنّ، نحن نريدُ أنْ نترك هذا العالَم الكاذب». ونمت الزّهرات، وتعملقتْ بالفعل، حتّى صارت الزّهرة الواحدة أعلى من شجرة الزّيتون، واستمرّ هو يأتي بالرّوث والبَعَر وبالبَول ويسقي الحبيبات!

ولم تكفّ رؤوس الشّياطين عن الظّهور من خلفِ زجاج النّافذة في غرفة أمّه، وكُنّ يصرخن بجملتهنّ المعهودة: «أنتَ ملعون». وردّ ذات مرّة هو يلوّح بقبضتَي يدَيه: «أنا ملعون... بالطّبع أنا ملعون... هل هذا يريحكنّ... أنا أعترف بأنّني ملعون... والآن؛ هل هذا الاعتِراف يريحكنّ... هيّا اغربْنَ عن وجهي». وشعر أنّه يزداد انكِسارًا، وخطرتْ بباله الملاءات البيضاء على أسرّة مستشفى القلب، وودّ لو أنّه يرى بياضًا في حياته مثل بياض تلك الملاءات، وتذكّر الممرّضات بأروابهنّ البيضاء، وصدورهنّ النّافرة، وابتساماتهنّ المُشعّة، وشعر في يُبوسه القاتل أنّه بحاجة إلى تلك الطّراوة. ونهضَ ذات يومٍ ولبسَ أفضل ما لديّه، ورجّل شَعره الطّويل، ورشّ بعضَ العطور، ودار حول نفسِه يستعرضُ جسده، وهتف: «يومٌ جميل، لا بُدّ أنّ المرضى ينتظرونني في المستشفى». لكنّ نور عينَيه انطفأ في لحظةٍ عندما تذكّر أنّه فُصِل من المستشفى قبل أكثرَ من عام، وأرادَ أنْ يبكي لكنّ عينَيه لم

تستجيبا له!

وأسدلَ ستائر البيت، وأرادَ للشمس أنْ تغيب إلى الأبد، وقطعَ أسلاكَ الكهرباء عن البيت، ولزمَ غرفته شهرًا كامِلاً لا يخرجُ منها، وكادَ يموتُ من الجوع والعطش ورائحة البول والعَطَن، ولكنّ راعِيًا مرّ بالبيت، راعِيًا مجهولاً من أولئك الرّعاة الّذين يغلبُ غِناؤهم أصواتَ أقدامهم، ونظرَ من نوافذه، فرأى السّتائر تحجب عنه ما في داخله، وطرقَ على الزُّجاج، فلم يسمع صوتًا، ودار حول البيت، فلم يرَ غير زهور الخشخاش تملأ الفِناء حتّى إنّه لم يكدْ يعثر له من بين جذوعها على موطِئ قدمٍ له، ووصل إلى المدخل الرّئيسيّ وطرقَ الباب أكثر من عشر مرّات، ولمّا استيقظَ أبو نواس في الطّرقة العاشرة كان الرّاعي قد رحل. وتحامل على نفسه، كان جسدهُ كومةً من عِظامٍ بارزة يُغطّيها جِلدٌ رقيق، ودخل الحَمّام، وفتح صنبور الماء، ووقف تحتَ الدّشّ، وتذرذرتْ قطرات الماء، وانسكبتْ على جسده، فانتعش، وشعر أنّه يعودُ إلى الحياة من جديد، وعبّ من الماء، وشرب كأنّ كلّ عطش الأحياء في جوفه، وظلّ تحتَ الماء حتّى بشبشَتْ مسامات جِلده، وطريتْ روحُه، وخرج إلى السّاحة عاريًا، وفتحَ الباب، فكادتْ عيناه تعميان لنور

الشّمس، واتّقاها بوضع كفّه أمام عينَيه، وبدأتْ عيناه تعتادان الضّياء، ورأى السّاحة على حالها تضجّ بزهرة الخشخاش، ودار بعينَيه يبحثُ عن قبر أبيه في تلك الجهة فلم يره، ودار بعينَيه إلى الموضع الّذي يركنُ فيه سيّارته، فرأى سقفَها يختفي خلفَ الزّهرة العِملاقة. ولم يرَ أكثرَ وضوحًا من قمّة شجرة الزّيتون الهرمة. وأحسّ أنّ الحياة خارجَ البيت غير الحياة داخله، وسارَ إلى سيّارته، وفتح صندوقها الخلفي، فعثر على بعضِ بقايا الطّعام المتعفّنة، فالتهمها بتلذّذ، ثُمّ أخذَ بعضَ سيقان زهرة الخشخاش، وجرحها، وشرب من سائلها البهيج. وأخذَ نَفَسًا عميقًا، وهتف: «هل أرحل؟!

(10)
هل يجوعُ طبيب؟

وعدلَ إلى العُود، فأنزلَه من عَلْيائه، ونفخَ فيه لينفضَ الغُبار عنه، ومشى بين الكتب إلى الأريكة، وثنى رُكبتَه، وانتزع الرّيشة من مكانها، وهَمّ أنْ يعزفَ لحنًا من ألحان الشّيخ إمام الّتي كان يُحبّها أبوه، ولكنّه ما إنْ بدأ حتّى انقطع أحدُ الأوتار الخمسة، وأنّ أنينًا خافِتًا قبل أنْ يهمد، وشعر أنْ شريانًا في قلبِه قد انقطع، وحاول أنْ يعزفَ بأربعة أوتار، ولكنّ العود عانده، وسمعه ينشج: «لستَ مثله، فدعْني في وَحدتي»، ولم يستطعْ أنْ يُكمل، فأعادَ الرّيشة إلى مكانها، وقامَ فعلّق العود على بطنه على الحائط قريبًا من رفوف الشِّعر، ومسح على ظهره، وهتف: «حزينٌ أنتَ مثلي على فراق حبيبنا!».

وعادَ إلى الأريكة، فتناول من تحتها الرّقوق الّتي كان أبوه يُخربش فيها، ويحرصُ عليها صانِعًا لها غلافًا من الجِلد، فوجدَ فيها مقولاتٍ متناثرة، وأشعارًا متفرّقة، وبعضَ الكلام غير المفهوم، وأجزاءً من رسوماتٍ غامضة، واختلطَ عليه الأمر إنْ كانتْ تلك الكلماتُ قد خَطّها أبوه أو قد خَطّها هو، ولم يتبيّنْ على وجه الدِّقّة إنْ كانت تلك الرّسومات الغريبة قد رسَمها

بريشته أو أنّ أباه قد فَعَلها، وتساءل يستجلبُ زمنَ الأُنس مع والده: «هل كان أبي رَسّامًا؟!». كانت الرّقوق تضمّ إحدى عشرة رسمة، وتساءل: «لماذا هذا الرّقم؟».

كانت إحدى تلك الرّسوم تُظهِر جسدًا لا يبدو إنْ كان جسدَ رجل أو امرأة، له رأسان حليقان، أحدُ الرأسَين لرجلٍ قد شُطِفَ نِصفُ جُمجمته بمِنشار حادّ والعينان مُطفأتان، والرأس الآخر لامرأة قد لُفّتْ قطعة قماشٍ سوداء على فمها، وهي بعينَنين فارغتَين مُظلِمتَين، وكانتْ يدُ الّتي في جهة الرأس الأنثويّ تختبئ خلفَ ظهرها، بينما كانت يدُ الرّأس الذّكريّة قد امتدّتْ إلى البطن المُشتركة بينهما فدخلتْ عبرَ شَقٍّ إلى موطن الكبد، وهي تحاول أنْ تستخرجه، وكان الجسد العاري مليئًا بالنّدوبات، والجروح في كلّ مكان... وظنّ أنّه هو الّذي رسَمَها، ولولا أنّ اليد كانتْ تستخرجُ الكَبِدَ لا القلب لتأكّد أنّه هو الّذي قام بذلك، وهمس: إنّ فيها خيال جَرّاحٍ!

وكتبَ في رَقٍّ جديد: «الأيّام تتشابه، أكادُ لا أرى». ورسَمَ وجهًا بخطوطٍ مائعة، وعينَين مشقوقتَين، كأنّما مرّتْ شفرةٌ حادّة من أعلاهما إلى أسفلهما، ثُمّ رسمَ حبلاً غليظًا يلتفّ على رأسٍ مقطوعةٍ، وشعرَ ببعضِ الضّيق، ثُمّ رسم في الرَّقِّ الآخرِ رأسًا مقطوعةً

تظهر من تحتها قِطَع اللّحم، وتنزّ منها قطراتُ دمٍ قاتمة، وضيّقَ الحبل على العنق، وشعر ببعضِ الرّاحة، ثُمّ قام إلى الثّلاّجة، وقد نهشه الجوع، ففتحها فوجدها خاليةً، وخُيل إليه أنّ عددًا من الفئران والصّراصير تركضُ فيها، وعادَ إلى الرّقوق، وكتب: «لا شيءَ يستحقّ». وأرادَ أنْ يُكمل العبارة فخانته، فتركَ الرّقوق، ومضى إلى السّاحة، وفتّش عن قبر أبيه، فوجده في ناحيته وقد غطّته زهور الخشخاش بكامله، فأزاحها عنه، ودهَسَها بأقدامه، ثُمّ قرفص عند القبر، وتمنّى أنْ يجدَ كأسًا له وأخرى لأبيه، ولكنّ الكأس كانت عزيزة، فاكتفَى بجرح بعض سيقان الخشخاش، وأسالَها على القبر، وراحَ يهذي: «اشربْ فإنّا قَدْ عَطِشْنا، كُلُّ عَطْشانَ مِنَ الأَوْهامِ ناهِلْ... اشْرَبْ فإنّ الأرضَ كافرةٌ وإنْ العُمرَ زائلْ... اشربْ فإنّا ماضِيان إلى النّهاية مثلما كانت بدايتُنا بلا معنى، ولا وجهٍ، ولا لونٍ، ولا نورٍ يُضيء لنا الدّروب الثّاكلات ولا تواكلْ... اشربْ فإنّي مثلما الأيّام قد خذلتْكَ مخذولٌ وخاذلْ... ولسوف تخلو الدّارُ منّي مثلما يومًا خلت منكَ المنازِلْ...». وصحا، وتلفّتَ حوله فوجدَ الفِناء على حاله، وانتبه إلى أنّه ليس هنا، وهمس: «هل أنتَ هُنا؟ ألم يسرقوا جُثّتك؟!». ودخل إلى الدّار، وارتمى على الأريكة في المكتبة، وراحَ يستجلبُ فَراشات النّوم.

وقضى شهورًا طويلةً في بيته، يستجدي الرّعاةَ العابرين لقمةً ولو يابسة، وقال له راعٍ ذاتَ مرّة: «أيجوعُ طبيب؟». وقال له آخَر: «هل أنتَ فقيرٌ إلى هذا الحدّ؟!». وقال له ثالث: «رَحِم الله أباكَ لقد كان يُطعِمُ حتّى الفِئران، واليومَ لا تجدُ اللّقمة؟!». وقال له رابع: «رَحِم الله أُمّك، لقد كانت دعواتُها تُشبَعُ أهل القرية كلّهم، أفلا دعتْ لكَ قبلَ أنْ تموت؟!». وقبلَ أنْ يهتف به راعٍ عابرٌ خامس، قال له: «وفّرْ نصائحكَ لنفسِك، كلّ ما أريدُه نصفَ رغيفٍ يابس ولو بالتْ عليه أغنامُك».

وسرتْ في القرية همهماتُ النّساء: «إنّه مَلعون، كان عاقًّا لأمّه، لو بَرَّها في حياته لكانَتْ حاله أفضل اليوم» ثُمّ يَتساءلْنَ بمرارة: «هل يجوعُ طبيب؟». ومرّتْ به راعيةٌ ذاتَ مساء، وكانتْ عيناها كحلاوَين، ووجهها أبيض شابتْه حُمرة الوَرد، وسرى فيه ماء الشّباب، تلفّ رأسَها بمنديلٍ قرمزيّ يشبه لون خمرةِ أبيه، وكانتْ أُذُناها تَبرُزان من تحت المنديل، وقد تدلّى من شحمتيهما المُخمليّتَين قرطان يتأرجحان كلّما هزّتِ الرّاعية رأسَها فيُحسّ أنّه يتأرجح معهما، وهتفَ بها: «بعضَ الخُبزِ أيّتها الجميلة، بعضَ الخبز يا ذات المنديل القرمزيّ ولو كان من ذلك الّذي تُطعمينه لخرافك؟».

وقالتْ له: «أعرفك». فقال لها: «نعم؛ مَجنون، مَنْ لا يعرفُ المَجنون؟». وقهقهَ بصوتٍ عالٍ، ثُمّ سكتَ فجأة. وردّتْ: «عبقريّ، كنتُ صغيرةً يومَ قالوا إنّكَ حصلتَ على المركز الأوّل على مستوى الدّولة في الثّانويّة، كان هذا قبل أكثر من عشر سنواتٍ، وكنتُ لا أزال في الصّفّ الأوّل أو الثّاني». فردّ وهو يتفحّصها: «وما فائدة هذا الكلام يا صغيرتي، هل في جِرابكِ بعضُ الخُبز؟!». ورأى عينَيها الجميلتَين تُغرغِران، وهتف: «إذا كنتِ تريدين البدء في البُكاء فامضي من هنا، أنا جائع». وظلّتْ واقفة، وأرادتْ أنْ تقول له كلامًا كثيرًا، ولكنّه انحبسَ في فمها، وظلّتْ تتأمّله، كأنّها تتأمّل مخلوقًا عجيبًا، وهتفتْ في النّهاية: «قريتُنا أحنّ على أبنائها من الكلبة على جِرائِها». ولم يدرِ ما تقصد بهذه العبارة؟ ولكنّه أعجبه تشبيه الكلبة، وأرادَ أنْ يقول لها: «يا كلبتي الصّغيرة، بعضَ الخُبز، أو الحليب». ولكنّها كانتْ قد مضتْ!

وبدأتِ الأحلام تنهشُ دِماغه، في أحدِ أحلامه، ظهرتْ له رؤوس الشّياطين الّتي كانتْ تظهر لأمّه فوقَ زُجاجِ نافذتها، كان يضحكُ في الحلم، ويقول: «كلّ هذه الرّؤوس لي، لم يكنْ لأبي أو لأمّي منها رأسٌ واحِدة». وقفزَ رأسه من فوقِ كتفَيه وانضمّ إلى

الرّؤوس فرأى شيطانًا جديدًا، وقهقه. ونصَحه أحدُ حُكماء القرية: «لا تكنْ كأبيك، أنتَ طبيبٌ ناجح، وعبقريّ، عُدْ إلى المدينة، ومارسْ مهنةَ الطّبّ كما كنتَ تمارسُها من قبلُ واكسبْ منها رِزقكَ بدلاً من أنْ تستجدي الرُّعاة البائسين الخبز اليابس الّذي لا تأكله حتّى الدّوابّ!!». وتخيّله على سريرٍ في مركز القلب، وقد فتحَ صدرَه، وأخرجَ منه القلب، وقطّع شرايينه، ورفعه عاليًا فوقَ فمه، وتأمّله بعينَين شَبِقتَين قبل أنْ يسمح لقطرات الدّم أنْ تسيل في فمه، ويشربَ منها حتّى صَفَّى كلّ قطرةٍ فيه، ثُمّ أدناه من فمه وراحَ يمضغه بشهوةٍ ولذّة. لكنّه نفضَ رأسه، وسمحَ لأفكاره أنْ تتناثر وتسقطَ على الأرض، وأعطاه ظهره ومضى.

وذاتَ مرّةٍ رأى في النّوم نسرًا ضخمًا يحطّ على نافذة المكتبة، كان له جناحان كبيران جدًّا، وكانت عيناه تُشبهان عينَي أبيه، فمشى إليه، وفتحَ النّافذة، وسمعه يقول: «أنا أبوك، فاصعدْ ظَهري، ودَعْنا نرحلْ من هذا العالَم الكاذب». وقفز فوقَ ظَهره، وطارَ به النّسر بعيدًا، وحلّق فيه إلى السّماء العالية جدًّا، فرأى من هناك أنْ الأرضَ ذبابةٌ تدور على غير هُدى، وشاهدَ كواكبَ تضجّ بعوالم أخرى، وخلقًا يتناثرون تناثر الجراد في الصّحارى المُقفرة. وصحا من نومه مذعورًا،

كان اللّيل شديد الظّلمة، وهُرِعَ إلى قبر أبيه، ومن العتبة شاهدَ النّسر إيّاه يطير من فوق شاهدة القبر، وخَفْقُ جناحَيه يملأ أذنَيه، وحلّق في السّماوات، وتبعَه ببصره على ضوء القمر الشّاحب حتّى غاب في أجمة اللّيل.

وعادَ إلى الأريكة، كان قد نَحُل تمامًا، وشَحُبَ وجهه حتّى لم يعدْ له، ونبّهتْه معدته الفارغة طَوال هذه الأيّام إلى أنّه إنسان، وأنّ الجوع مهما حاولتَ الهربَ منه، فستجده يقفُ في وجهك عندَ كلّ مُنعطف. ومضى من جديدٍ إلى القرية يبحثُ عن طعام. لكنّه عادَ من منتصف الطّريق، أعادَتْه رغبتُه في كتابة بعض الكلمات على الرّقوق في ذلك الدّفتر الجلديّ، وعبثَ بالقلم، وغاص في عقله فرأى حشدًا كبيرًا من النّاس في دوائر، تبدأ صغيرةً، ثُمّ تلتفّ خلفَها دائرةٌ أكبر، فأكبر، إلى عددٍ لا نهائيّ من الدّوائر البشريّة الّتي تدور حول مركزها دوران الصّوفيّ حول نفسِه، وحدّق بعينَيه لكي يرى مَنْ يحتلّ ذلك المركز الّذي تلتفّ حوله الدّوائر البشريّة فما استطاع أنْ يرى لتكالب النّاس وكثرتهم، ورأى الطّوفان البشريّ يدور حول ذلك المركز في حركةٍ دائبة تُشبه حركة الإلكترونات حول النّواة بدون توقّف!! ثُمّ خَطّ على رَقٍّ جديد: «في الفراغ؛

لأنّهم من الفراغ وإلى الفراغ». ثُمّ غاصتْ عيناه فرأى الخيول إيّاها الّتي كان يراها في صِغَره، ورأى نفسه يهربُ منها مذعورًا، وهي تلحقُ به وتصهل صهيلاً مُرعِبًا، وتفغر أفواها تكادُ تلتقمه، وظلّ يركضُ حتّى خانتْه قُواه، وتعب، وأيقنَ أنّه سيصير في لحظات داخل أشداق هذه الخيول الجامحة، وظهرَ له فجأةً وجه الفتاة الرّاعية الّتي قابَلها منذُ أيّام، وكانت تبتسم، وفتحتْ له صدرها، فغاب فيه، وذابَ هناك، وسكتتْ أصواتُ الخيول، واختفتْ فجأة، ووجد في صدر تلك الرّاعية أمانَه. وكتب: «أصعدُ على أشلاء موتي بلا روح». ولم يُدركْ ماذا تعني العبارة الّتي وجد أصابَعه تكتبُها بلا إرادةٍ منه، وعندما أرادَ أنْ يُفسّرها، كتب: «ما أنا؟!».

ووجدَ حَلاًّ لهذه الوساوس الّتي تطرقُ دِماغه، الانتِحار؛ أشرفُ ما يُمكن أنْ يفعله طبيبٌ في حالته، إنّه أعلى درجات الحرّيّة في عالَمٍ تخترمه العبوديّة، وفكّر في السُّمّ، فكّر في الزّرنيخ، «إنّ أدراجي تحتوي بعضًا منه» هكذا حَدّثَ نفسَه، ثُمّ فكّر في بعض المحاليل الكيميائيّة الّتي يكاد يرى بلّوراتها بعينِه المُجرّدة، ولكنّها لم تكنْ موجودة؛ فالبيتُ فارغٌ إلاّ منه ومن الكتب ومن العُود الحزين الّذي قال له حينَ أرادَ

أنْ يعزفَ عليه: «دَعْني؛ فلستَ مثل أبيك». وفكّر في طرقٍ أسهل أو ممكنة، أنْ يصعدَ على سطح البيت ويتردّى من هناك، ولكنّها طريقةٌ ليست مضمونة، سيعيشُ بكسورٍ تذكّره بإخفاقه في تنفيذ مهمّة سَهلةٍ وشريفةٍ مثل الانتِحار! وعدل عنها إلى أنْ يصعدَ إلى الجبل ويشنق نفسَه فوقَ شجرة السّنديان إيّاها الّتي كان يتعبّد المتصوّفة اللّهَ تحتَها، ولكنّه خجل من أنْ يقولوا عنه: «مسكين؛ عرفْناه وأنكره!!». فعدل إلى أنْ يَشنقَ نفسَه فوقَ شجرة الزّيتون الهَرِمة، ويترك جسده يتدلّى من تحتِ أحدِ جذوعها الصّلبة، ولكنّه ظنّ أنّ وزنَه الّذي هو وزنُ ريشةٍ في مهبّ ريح لن يكون كافِيًا لتنفيذ مهمّته، وخافَ إنْ نجح في ذلك أنْ يُخجل الشّجرة فلا تعودُ تطرحُ زيتَها للعابرين، وهمسَ لنفسِه: «أقطعُ شرياني وأنزفُ حتّى الموت». لكنّه خافَ ألاّ يكون في شراينه دمٌ كافٍ لكي تنجح مهمّته، وخافَ أيضًا أنْ يعجز عن الكتابة أو المُحاورة وهو ينزف، أو يفقد وعيه فلا يرى موتَه الجميل. وفكّر في أنْ يقتلع قلبَه من صدره كما كان يفعل في مستشفى القلب لمرضاه، ويأكل قلبَه، لكنّه خافَ ألاّ يجد القدرة على أنْ يأكله بعد أنْ يقتلعه، وأحسّ بعجزٍ شديد، وأوجعتْه فكرة الانتِحار الّتي كان يراها أكثر أفكار البشر عبقريّةً ووضوحًا، وأعلاها في سُلّم الحرّيّة، وأخرج الدّفتر

الجلديّ، وكتَبَ في أحد رقوقه: «ليتَ أُمّي لم تلدْني!».

(11)
الحَريق

وسطعَتِ الشّمس، وأزال السّتائر عن نوافذ البيت كلّها، فغمرَه الضّياء، ونظر من نافذة المكتبة، فرأى الجبل من تلك النّافذة وادِعًا، يبتسمُ له، ورأى الأشجار الّتي تعلو قمّته خضراء يانعة، والأرض من تحتها ساكنة، وهتفَ في نفسه: «الرّحيل».

وطافَ في البيت، من غرفةٍ إلى أخرى، ورأى سرير أبوَيه، على عهده منذ مضتْ أمّه إلى حُفرتِها، والشّرشفُ مَطويّ على حاله لم تمسّه يد، ثُمّ عدل إلى غرفته، فرآها كئيبةً، رائحتها خانقة، وخُيّل إليه أنّه يرى عددًا مَهولاً من الضّفادع تقفز فوقه، وتُصدر نقيقًا مُزعِجًا، وقد غَطّاه الدّم حتّى صار يسيل من أطرافه، وكان لا يزال يُمسِكُ بمقبض الباب، عندما جالت بخاطره أبيات السّيّاب: «أَوْصِدِي البابَ فَدُنْيا لَسْتِ فِيها... ليسَ تَسْتَأْهِلُ مِنْ عَيْنَيَّ نَظْرَةْ... سوفَ تَمْضِيْنَ وَأَبْقَى أيَّ حَسْرَةْ... أَتَمَنَّى لَكِ أَلاَّ تَعْرِفِيها... آهِ لَوْ تَدْرِيْنَ ما مَعْنى ثَوانٍ في سَرِيرٍ مِنْ دَمِ... مَيِّتَ السّاقَيْنِ مَحْمُومَ الجَبِينْ... تَأْكُلُ الظَّلْماءُ عَيْنَيَّ وَيَحْسُوها فَمِي... تائِهًا في واحَةٍ خَلْفَ جِدارٍ مِنْ سِنِينٍ وَأَنِينْ... مُسْتطارَ اللُّبِّ بَيْنَ الأَنْجُمِ...». وأغلق باب الغُرفة، وتنهّد تنهيدةً

طويلة كادتْ لها عِظام صدره تتكسّر.

وذرعَ ردهات البيت ردهةً ردهة، وغرفةً غرفةً، وممرًّا ممرًّا، ثُمّ ألقى جسده على أريكة غرفة المكتبة، ونظرَ إلى الرّفوف الّتي تتراصّ فوقَها الكتب، والأرض الّتي تعجّ بها لا يكادُ يجدُ فيها المرء موضعًا فارِغًا، وأرادَ النّوم، فعصاه على عادته منذ سنواتٍ سحيقةٍ، وفكّر في القراءة، ولكنّه لم يجدْ كتابًا ليقرأه، وشعرَ أنّ الكتب لم تعدْ ذات فائدة، وأنّها صارث كلّها في عقله، آلافٌ منها مسطورٌ في مركز الذّاكرة الّذي هو أقلّ من حجم حبّة العدس، ورأى أنّ الكتابة قبل أنْ يرحل قد تُحقّق له بعضَ الرّاحة، ونزع أحد الرّقوق، وكتب لأبيه: «لم أكنْ أريدُ فراقَكَ ولكنّ الموتَ عجّلك، حينَ نلتقي يومًا ما في مكانٍ ما في زمانٍ ما سأُخبرك بكل ما كنتُ أريدُ أنْ أقوله لك». ثُمّ خطّ تحت هذه العبارة، قول المتنبّي:

وإنّ رحيلاً واحِدًا حالَ بيننا

وفي الموتِ من بعدِ الرّحيلِ رحيلُ

وغفا ثلاث دقائق، رأى نفسَه يخرج منه، ويقول له: «أحرقْ كلّ شيءٍ». وشعرَ أنّه كان يبحثُ عن هذه العبارة من زمنٍ، فاستيقظَ وقد عَزَمَ على ذلك.

ومضى إلى قبر أمّه في المقبرة الفوقا، وطاوعتْه عيناه، فبكى على الشّاهدة بكاءً شديدًا، واحتضنَ القبر احتِضان الأمّ لرضيعها، وهتف: «لم تكوني لنا». وشعر برجّةٍ في القبر، كانتْ أتربته تتحرّك، وجفل، وأصغى سمْعَه، فتناهتْ إليه أصواتٌ كأنّها قادمةٌ من أسفل نقطةٍ في الأرض أو أعلى نقطةٍ في السّماء، واختلطت الأصوات، وتشوّش عقلُه، ولكنّ الأصوات المُتداخلة بدأتْ تصفو شيئًا فشيئًا، حتّى مَيّز صوتَ أُمّه، كانتْ تقول له: «الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه». وتذكّر يومَ طلبَ الشّيخُ منه أنْ يتلوَها يومَ طارَ به من الفرحة، في ذلك اليوم البعيد، ونظر حينَها إلى عينَي أُمّه فرآهما تضحكان، كأنّ سرور الكون قد تجمّعَ فيهما. ثُمّ سمعَ أصواتَ الغربان والبوم الّتي تعتلي جذوع الأشجار في المقبرة تنعب، وبعضُها يطير، وآخر يحطّ، إنّها حركةٌ تُشبه حركة البشر، يتصايَحون، وما يُدرِكون أنّ الّذين حَطّوا على أشجار هذه الحياة سيطيرون عنها عمّا قريبٍ. وسمع صوتَ أُمّه حانِيًا يهتفُ به: «كنتُ أريدُ لكلمة اللّه أنْ تحفظَك، ولكنّكَ لم تُطِعْني». فردّ مُستهزِئًا: «لقد كانت كلمة أبي أشدّ تأثيرًا من كلمة اللّه». وردّتْ: «كان أبوكَ يعرفُ اللّه أكثرَ مِمّا أعرفُه أنا، ولكنّ الشّيطان قعدَ له في الطّريق، فلمّا رآه أخذ بيده، ولو عَصاه لما آل إلى الضّياع والخمر

والحشيش. يا بُنيّ أنا في القبر أراك، وآسَى على ما تفعل، ولو كنتُ أملك أنْ أعودَ إلى الدُّنيا لهمستُ في رِئتَيكَ الباردتَين: إنّه يُحبّك، وأنا أحبّك، وإنّه يُحبّنا، فلا تُولّ لحُبّه ظَهرَك». وشعرَ بانِكسار، وقال لها: «لقد مضيتُ في الغاية، وإنّني في آخرها، وقد تهدّمتْ من خلفي كلّ الطّرق الّتي سلكتُها، وما أراني سأعود، فإنّ تلك الطّرق من بعدي قد تبدلتْ!!». فردّتْ: «إنّ رحمته تُعيدُ إليكَ الدّروب المسروقة، فلا تيأسْ». «وأبي؟». «بينَ يدي الله». «هل أجدُ الله؟». إنّه فيك، فقطْ أصغِ إلى النّداء القديم الّذي فيه». وبكى حتى ارتجّتْ جذوع الأشجار الّتي فوقَه، وحتّى خُيّل إليه أنّ أصوات الغربان الّتي تطير دون عودة قد صارتْ تبكي هي الأخرى.

ظلّ يزور المقبرة شهرًا، يسألها، وتُجيبه، وينامُ أحيانًا بين القبور، يتمدّد إلى قبرٍ لطفلٍ، ويبكي، وهو يقول: «كنتُ يومًا بريئًا مثلك». ثُمّ يذهب إلى قبر امرأةٍ عجوز، ويتمدّد إليه، ويهتف: «هل لديكِ ما تقولينه لي؟». ولم يتركْ قبرًا رأى على شاهدته ما يُثير شجونَه إلاّ تمدّد إلى جانبه، وحاوره، وسأله: «هل من عودة؟».

وعادَ إلى البيت بعد شهرٍ من النّوم في المقبرة

الفوقا، ورآهما من جديدٍ، يضحكان في شوارع نيويورك، وهمّ أنْ يبصق في وجهها، ويقول لها: «خائنة». ولكنّه لم يفعل، وهتف: «الحبّ أكذب عاطفةٍ عرفَها البشر». وتركهما يُعطيانه ظهرَيهما، وأردافُها ترتجّ في سعادة، وهو يلفّ ساعده حول جذعها جذلان، وشعرُها اللّيليّ يطير على إيقاع هبوب الرّيح! ومشى خُطُواتٍ مُبتعِدًا عنهما، ثُمّ فجأةً لفّ جِذعه باتّجاههما، وصرخ بها: «هيه أنتِ؛ توقّفي.. توقّفي أيّتها الخائنة»، وركضَ إليها تتأجّج في أعماقه رغبةٌ عارمةٌ بقتلها، ودَفَعَها فسقطتْ أرضًا، ثُمّ انكبّ عليها، وتخيّلَ أنفاسَها تتقطّع وهو يشدُّ بكلتا يدَيه على عنقها، وزوجُها ينظرُ إليهما دون أنْ يُحرّك ساكِنًا! كانت عيونها تجحظُ مُستغيثةً مَذهولة، وجهها يَزْرقّ، وذراعاها النّحيلتان تلتفّان حول ذراعَيه في محاولةٍ يائسةٍ لإزاحته من فوقها، وهو لا يزال يشدّ على عُنُقها دافِعًا بثِقل جسمه فوقَها حتّى تلفظَ آخرَ أنفاسِها، وتهمد حركتُها، وتكفّ رِجلاها عن الحركة، وتنسدل ذراعاها حولها ببطء، ثُمّ يسيلُ خيطٌ رفيعٌ من الزَّبَد والدّم من زاوية فمها... ولكنّ ذلك كلّه لم يحدثْ إلاّ في خَياله!! كيف تجد مثل هذه الخَيالات سبيلاً إليه؟! إنّ حديقةَ عقله الخلفيّة تضجّ بالأفكار السّوداء، وتعجّ بالغربان النّاعقة، والبوم النّاعبة.

وسرى الملل في جسده وانداحَ في عُرُوقه، ورأى كلّ شيءٍ مُظلِمًا مُطفأ، وأحسّ أنّه لا تربطه في هذا المكان أيّة رابطة، باستثناء قبر أبيه الّذي ظلّ يؤمن أنّ جُثّته ليست فيه، وأنّها سُرِقتْ منه، وعزمَ على الرّحيل، إلى أيّ مكانٍ غير هذا، واستحوذتْ عليه الفِكرة، فصار يرى حروفها الأربعة تظهر له في كلّ شيءٍ، على أرضيّة المكتبة، ورفوفها، ورقوقها، وكعوبها، ونوافذها، وفي الهواء تتساقطُ تساقُطَ قطرات الماء من الميزاب في الشّتاء، وعلى أواني المطبخ الّتي كانتْ قد يبست وجفّت، وتشقّق خشبُها، وبَهَت، وحالَ لونُه، وانبتّ، وفكّر في الأشياء الّتي يُمكن أنْ يأخذها معه، فلم يجدْ شيئًا يستحقّ باستثناء الدّفتر الجلديّ، وتناوله، ومضى خارِجًا من العتبة، وتنفسّ الصّعداء لمّا رأى الفضاء الفسيح أمامه، وشعرَ أنّه حُرّ، وأنّ قراره هذا أفضلُ ما يُمكن أنْ يفعله في حالةٍ بائسةٍ كهذه.

وركضَ بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ وهو يحتضن الدّفتر، ثُمّ توقّف، وهتف: «الحريق». ووضع الدّفتر على صخرةٍ خارجَ ساحة البيت، وعادَ، فجرحَ سيقان عشرةٍ من زهور الخشخاش، وشربها، وظلّ يشربُ حتّى دارتْ به الأرض، وراحَ يتذكّر الموضع الّذي كانتْ أُمّه تضع فيه جالونات الكاز الّتي تستخدمها لموقدة

الشّتاء، ودخل البيت، وهُرِعَ إلى الجالونات فأخرجها، كانتْ أربعة جالونات، وراح يسكب الكاز على الموجودات كلّها، وعلى الأرض، ثُمّ أشعلَ عُودَ ثقاب أمام العتبة من الدّخل، وهمّ أنْ يرميه على الأرض، ولكنّه سرعان ما انطفأ، وهتفَ وهو يبتسم: «هذا أنا يا أبي، ما أسرع انطِفاءَنا!». ثُمّ أشعلَ عودًا آخر، ورماه، وخرجَ سريعًا يحمل جالونَين، وسكبَهما على زهور الخشخاش، وحول قبر أبيه، ولكنّه رأى القبر يتحرّك، وحدّق لكي يتأكّد، فرآه بالفعل يتحرّك، وتراجَع خُطوتَين إلى الوراء، كان البيتُ قد بدأ يحترق، والنّار راحتْ تعرجُ فيه عَرَجَ البَطّة المذعورة، وتناهَى إليه صوتُ طقطقات العود في غرفة المكتبة وهو يئنّ، وخُيّل إليه أنّه يقول: «كان عليكَ أنْ تُحرِقني فلستَ كأبيك». ولكنّ أباه الّذي قال له العود للتّوّ إنّه ليسَ مثله، سمعه من تحت القبر، يهتفُ به: «لا تُصدّقه، العُود خشب، وأنا من لحمٍ ودمٍ وروح، أنتَ مثلي، وليس بوسعكَ أنْ تكون إلاّ مثلي». وصرخ: «لن أكون إلاّ مثلك». ووجدَ نفسَه يُردّد بيتَي أحمد شوقي:

أَنا مَن ماتَ وَمَن ماتَ أَنا

لَقِيَ المَوتَ كِلانا مَرَّتَينْ

ثُمَّ صِرنا مهجةً في بَدَنَينْ

وسمع صوتَ أبيه: «لا تتركْني وحدي، خُذني معك». فردّ: «وهل أنتَ هنا؟». وتحرّك القبر من جديد: «إنّني لا أستطيع أنْ أخرجَ وحدي، فساعِدْني». وعمد إلى القبر ملهوفًا، وبدأ ينبشُه، وحفرَ عميقًا والنّار تحرق بينَ يدَيه كلّ شيءٍ، وصُعِق عندما برزتْ له عِظامُ أبيه، وصرخ: «أنتَ هنا إذًا؟!». «وما هذا الّذي بين يدَيك يا أحمق؟ بالطّبع؛ ألا تراني؟!». «كنتُ أظنّ أنّهم سرقوا جُثتك؟!». «هَيّا أسرع قبل أنْ يأتي الحريق على كلّ شيءٍ». وأخرجَ عِظامَ أبيه كلّها، وكوّمها، وراحَ يبحثُ عن كيسٍ يضعها فيه، ووجدَ أحدَ الأكياس الّتي كان يستعملها لقطاف الزّيتون، وألقاها فيه، ثُمّ هُرِعَ إلى الخارج، وهو يحمل الكيس فوقَ ظهره، ورمى عودَ ثقابٍ أخير على السّاحة، فراح كلّ شيءٍ يحترق، وخُيّل إليه أنّ الكتب كانتْ تصرخ من خلفِ ظهره: «لماذا فعلتَ هذا؟ نحنُ سبب حياتِك فَلِمَ كنتَ سببَ موتِنا؟». فردّ: «أنتنّ سبب ما أنا فيه». وسمعهنّ يقلْنَ: «إنّها أوهامك، استيقظْ أيّها الطّبيب المريض!». ولعنهنّ في سِرّه، وسمع كلّ شيءٍ يستغيثُ به؛ روح أمّه، شرشفُها الّذي تركه على هيئته يوم أنْ غادرتْ، أوانيها الّتي

يبستْ من العطش، ولَفّتُها البُنّيّة، وروحُها الطّيّبة، والأشجار، وزهور الخشخاش، والزيتونة الهَرِمة، والقبر الّذي صار فارِغًا، والتّراب الّذي كان يمشي فوقَه، و... كلّ شيء!

ووصل إلى الصّخرة الّتي كان يضعُ فوقَها الدّفتر الجلديّ، وألقاه هو الآخر في الكيس، وأحسّ أنّه بهذا الدّفتر الّذي ألقاه يُعيد إلى عِظامِ أبيه روحَه، وإلى رَمِيمها نُضرتَها. ووقفَ من بعيدٍ يرى النّار وهي تأكل البيت والسّاحة، وترتفع ألسنتها عاليًا، وهالَه منظر الزّيتونة الهَرِمة وسيّارة اللاّدا اللّتَين تحوّلتا إلى كتلةٍ من النّيران. وأخذَ يبكي، وهو يُمسكُ بالكيس في يمينه، وكانتْ حرارة النّار تصل إليه على بُعدِها، ومسحَ دموعه دون أنْ يدري لماذا يبكي، ثُمّ توقّف عن البُكاء، وبدأ يضحك، وهو يتراجَع بخطواتٍ مَهزوزةٍ إلى الوراء.

وتوقّف قليلاً يستمتع بمنظر الحريق، وضيّقَ عينَيه، كان يرى أدخنةً سوداء تصعدُ من بين اللّهب الطّاغي على هيئة أجسادٍ بشريّة، وصوّب نظره إلى الجهة الّتي تقع فيها المكتبة، فرأى آلافًا من الكُتّاب يصعدون، كانَ بعضُهم يلعنه، وبعضُهم يشكره، وبعضُهم يقول له: «لماذا لم تأخذْنا معك؟!». وبعضُهم يقول: «لقد حرَّرْتَنا». وسمعَ صوت (بولغاكوف) وهو يخرج

من (قلب كلب) ويقول له: «هل ستقتلني مرة ثانية؟». فسأله: «ومتى كانت المرة الأولى؟». فردّ: «عندما دَسّتْ لِيَ الدولةُ سُمًّا في الكأس». فضحك: «لستَ أكرمَ على الله من سُقراط؛ هو الآخر مات بالسّمّ؟ ولا بأس من أن تجرّب الموت مرة ثانية بطريقةٍ مُختلفة، ربما هذه الطريقة أكثر رومانسية، أن تلتهم النيران قلبَكَ أيّها الكلب البشريّ». ورأى حرشفةَ (مسخِ كافكا) تُطقطِق تحتَ النّيران، وزَبَدُها يسيل. ورأى (فان غوخ) يمدّ أصابعه في النّيران يضحك، وهي تتساقطُ إصبعًا إصبعًا، وهو يقول: «أريدُ أنْ أراها فقط للمدّة الّتي ينتهي فيها احتراقُ أصابعي». ورأى الحديقة تعجّ بالأجساد المُعلّقة على جذوع النّخل المَطليّة بالقار كأنّهم في حديقة قصر (نيرون)، ونيرون إلى جانبه يستمتع بمنظر المؤمنين المسيحيّين الّذين تأكلهم النّيران، وأيديهم الّتي تتفحّم، وعيونهم الّتي تسيل، وجلودهم الّتي تنضج، وشمّ بالفعل رائحة شواء الأجساد البشريّة، وهتف: «لقد كان خيال نيرون واسِعًا جِدًّا!!». ورأى في الزّاوية الجنوبيّة للمكتبة القساوسة في محاكم التّفتيش بالأندلس وهم يُلقون بعشرات الآلاف من كتب الهرطقة إلى النّار، ورأى عددًا آخر من المُهرطِقين يُساقون إلى قلبِ السّاحة ويُقذَفون في النّار. ورأى هتلر يُلقِي في أفران الغاز أفواجًا من النّاس،

وتجدُ النّار طريقَها إلى ابتِلاعهم... وتتابعتْ عليه الصّور حتّى رأى محارق التّاريخ كلّها تقفُ شاهدةً أمامه في ساحةِ بيتِه، وهتف: «لقد كان الحريقُ حَلاًّ». وشعر بالرّاحة، وألقى كيسَ العِظام والدّفتر على ظَهره ومضى، وهو لا يزال يسمعُ الاستغاثات والانهيارات تنشبُ في جمجمته وهو يردّد غير آسفٍ على ما فَعَل: «العِلم في الصّدور لا في السّطور».!

وظلّ يمشي حتّى مرّ ببركة القرية، وعادَث به الذّاكرة إلى طفولته، ورأى أولئك الّذين أغرقوه ينبتون من أطراف البركة، وأصابه الهلع، وهَمّ بأنْ يرمي الكيس، ويُطلِقَ ساقَيه للرّيح لولا أنّه سمعَ نقيقَ ضفدعٍ تحتَ قدمَيه، ونظر فخُيّلَ إليه أنّها الضّفدع الّتي مدّتْ له يدَها يومَ غرقِه لتُنقِذه، عيناها هما عيناها، وصوتُها الّذي لا يُخطِئه، ولونُها... وذابَ هلعُه، وجثا ينظرُ في عينَيها ويبتسم، ثُمّ أجلسَها بحنوّ بينَ يدَيه، وراحَ يُحادِثُها: «سنرحل معًا يا مبروكة، هذا هو اسمكِ منذُ اليوم» قبل أنْ يضعها إلى جانب العِظام والدّفتر، وينظر نظرةً أخيرةً إلى القرية، ويمضي.

وها هو قد غادر القرية المَنسيّة؛ قريته الّتي يعيشُ أهلُها خارجَ الزّمن كما كان يعتقد، تُعاني من التّخلّف، ومن الأوهام الّتي تُؤمن بها، ومن الحكايات

الخرقاء، ومن الخُرافات الّتي تحكم طريقةَ عيشِها، القرية الّتي يُقبّل أهلُها يدَ الشّيخ لأنّه يُعلّمهم حروفَ القرآن دون أنْ يفقهوا شيئًا، القرية الّتي تنامُ نساؤها تحتَ أقدام أزواجهنّ، ويغْسِلْنها كلّما عادوا من أعمالهم في المزارع المنتشرة في الجبل، القرية الّتي تنكشطُ جلود رِجالها وهم يحكّون الطّين المُتيبّس فوقَها، كلّما عادوا من الحُقول إلى بيوتهم في الأماسي المَطيرة، القرية الّتي لا تعرفُ من الحياة غير الرّضا بكلّ شيء. ولعنَها في سِرّه ألفَ مرّةٍ ومضى!!

(12)
أستطيعُ أنْ أطير

بردتْ روحُه بعد أنْ تركَ بيوتَ القرية كُلّها خلفه، كان العالَم أمامه كُتلةً من الصّقيع، وكومةً من الزّجاج الصّقيل المُحايِد، ووجدَ نفسه يركضُ، كان يركضُ جهةَ الجنوب، دون غاية، لم يكنْ يدري إلى أين، ولكنّ الجنوبَ جِهة، كان يشعر أنّه يهربُ من قَدَرِه، ولم يكنْ يدري أنّه يهربُ إليه، كان يُحاول أنْ يُفلِتَ من الجنون ولم يكنْ يدري أنّه يقعُ فيه... ظلّ يركضُ، يتعثّر، يسقط، يقوم، يندفع بسرعةٍ، تخدشه غصون الأشجار المُتدلّية، يسقط ثانيةً، ينهض، يندفع من جديد، ويركض، يلهث، يتصبّب عرقًا، والعظام الّتي تتقلقلُ على ظَهره تقول له: «على رِسلك، لقد هرَسْتَنا!!». وهو يردّ: «سأجدُ مكانًا لكي أُرمّمك، أنا طبيب وأعرف ما أفعل، فاخرسي».

وصل إلى عَمّان، في مساء ذلك اليوم الّذي رحلَ فيه، كانتْ أمامه جبلاً مُنيرًا، تنبث في أطرافه وعلى قِممه الأضواء كأنّها عيونُ جِنّياتٍ حزيناتٍ، ولكنّه رأى في أضوائِها بعضَ البهجة، وتذكّر أيّامه في العمل، فشعرَ بشيءٍ من الحنين، ورجفَ قلبُه رَجفَان نهرٍ وادعٍ مرّتْ عليه نسماتٌ علائل، واقشعرّ بدنُه وهو يرى كلّ

الّذين عالَجهم في مستشفى القلب، وهم يصطفّون في الظّلام ومن خلفهم تتراقص الأضواء البعيدة، يُرحّبون به قائلين: «أهلاً بعودتك». وصرخَ: «أنتم لستم أنتم». وضحكتِ الخيالات المُتموّجة أمامه، وقلن: «ألا ترانا؟ فنحنُ إذًا حقيقة!». «كلاّ، كلّ هذا موجودٌ في عقلي فقط، لقد أصابَ عقلي التّلف». ونفضَ رأسه، وهمّ أنْ يُتابع سيرَه، ولكنّه سقطَ فجأة، فجأةً من دون سابق إنذار، واستسلم للنّجوم الّتي كانت تضحك في صفحة السّماء، وللأضواء المتراقصة البعيدة، وهتفَ قبلَ أنْ يغيبَ عن الوعي: «ما أشدَّ بؤسَكَ يافتى، ليتني أستطيع أنْ أمسِّحَ تلك الرّماح من تلك الدّماء!».

استيقظَ في الفجر، على صوتِ بعضِ الكلاب الضّالّة، نهضَ، نظر إلى السّماء، كان لونُها ينفتح على النّهار، وذبالات النُّجوم تودّع الوجود، وخُيّل إليه أنّه ينطفِئ مثلها. وقام، كانت أطرافُه تُؤلمه، أشواقُه تحرقه، ذكرياتُه تطعنه، والطّريق المتلوّية الفارغة تُشعره بالوحدة. مشى. لا بُدّ أنْ يمشي، لن يصل مَنْ يُطيل الوقوف، والحنين شاقولة في القلب، والحياة غانيةٌ دَهَسَها قِطارُ الشّيب، ومع ذلك لا بُدّ أنْ يمشي.

ظلّتِ الشّمس تلسعه حتّى وصل إلى وسط البلد في عَمّان، دلّه بعضُ المارّة على فندق (هارون)، زبائنه

قليلون، وأرخص فُندقٍ من تلك الفنادق الّتي تُطلّ نوافذها الخشبيّة القديمة على الشّارع، والّتي تسمع في غُرِفها كلّ ما يدور على الأرض من الجهات السّتّ. قال لصاحب الفندق: «سأقيم ثلاثةَ أيّام». طلبَ منه عشرين دنانير يدفعها مُقدّمًا، وهتف: «الأجرة ستّة دنانير لليوم الواحد، وسنعيد لكَ الباقي عندما تُغادر». صعدَ الدّرج القديم الّذي يُوصل إلى أربعة غرف، كلّ غرفةٍ في زاوية، ودفعَ الباب الخشبيّ الخفيف، ورأى خزانةً خضراء عن يمين الباب بعضُ قشورها المُتساقطة قد تجمّعتْ تحتَها، وسريرًا واطِئًا، سمعَ أزيز سيقانه أوّل ما جلسَ عليه، وألقَى بالكيس أمامه، وفي مقابله رأى ممرًّا بلا باب يُفضي إلى حَمّام صغيرٍ، مِقعدة، ومغسلة فوقَها مرآةٌ تهشّمتْ أطرافُها، ودُشًّا صَدِئًا بلا حوض مُثبّتًا في الحائط، ومنشفةً حزينةً يبدو أنّه لم يستخدمْها أيّ زبونٍ من فترةٍ طويلة. وعلى الحائط الّذي يقع عن يسار الدّاخل كانتْ هناك مرآة مُلصَقة عليه، يُمكنه إذا وقفَ أمامَها أنْ يرى جسدَه كامِلاً. وكانت الجُدران كلّها بيضاء قد عَلاها بعضُ الغبار، وعشّشَتْ في زواياها بعضُ الحشرات الّتي وجدتْ لها ملاذًا هانِئًا.

«عدوّي يعيشُ فِيّ، مهمّتي في هذا البُعد أنْ

أنتصر عليه». وأردفَ يُخاطب نفسَه: «معركتي معه، ومعه فقط». وانتبه إلى حركةٍ في الكيس المُلقَى أمامه على الأرض، «إنّها مبروكة». وفكّر: «يلزمني بعضُ الأشياء، ولا زال معي بعضُ المال». نزعَ ملابسه كلّها، ودخل الحَمّام، وأطلقَ ماءَ الدُّش، وراحَ يأخذُ حَمّامًا بارِدًا، وشعرَ بأنّه يعودُ إلى حياةٍ هربث منه طَوال العامَين الفائتَين، وطمأن نفسَه: «أستطيع أنْ أعود».

وخرجَ إلى الشّارع، كان الشّارع حياة، حياةً جديدةً، حَرَكةُ المارّة الصّاخبة، مُواءُ قِططٍ جَوعى، أبواقُ السّيّارات، نِداءُ الباعة، نَظَراتُ السُّيّاح، روائح الطّعام المطبوخ، ورذَاذ العِطر المرشوش، والعَرَق الّذي ينسرب على الظّهور والسّيقان وعورات البشر، وتساءل: «هل يُشبهونني؟». وسأل عن المحلاّت الّتي تبيع الحقائب، ودلُّوه على أكثرَ من محلّ. ووصفَ للبائع الحقيبة الّتي يُريدها: «جلدُها حليبيّ، وعليها نقوش الأفاعي، وواسِعة من الدّاخل، ومخروطيّة، تُغلَق بِسَحّابٍ أسود، ولها يدان ناعِمتان، وجَنّاد في حالة إذا حُملث على الظّهر». واستغربَ البائع طلبَه، وقال له: «لن تجدَ مثلَ هذه الحقيبة في السّوق كلّها، ولكنْ يُمكن أنْ نجدَ حقيبةً قريبةً منها». واشترى من البائع الثّالث نُسخةً شبيهةً بالّتي صنَعها خيالُه. وعادَ فَرِحًا بها. ومرّ

ببعض تُجّار الأدوات المنزليّة، واشترى بعضَ الأواني. وبصيدليّةٍ تبيع بعضَ المحاليل الكيمائيّة المُطهِّرة. وقفل ينظر في الأرض، إلى أقدام النّاس، وهم يمضون إلى غاياتٍ حاول أنْ يُدركَ كُنهها لكنّه لم يستطعْ. ورأى تلك الأقدام تضربُ في اتّجاهات مختلفة، وأيقنَ أنّ اتّجاهات سَعيِهم يُلغي بعضُها بعضًا، وعليه فإنّ المُحصّلة صِفْر، والجهات عَدَم، والنّاس مِلحٌ ذائب. ودخل الفندق، صعد الدّرجات الّتي تمضي من بعدِ البَهو بشكلٍ شبه عموديّ إلى غرفته، وأغلقَ الباب خلفهَ بتوجّس، ونظرَ في أرجاء الغرفة إنْ كان يُشاركه فيها سِواه، ووضع الأواني على الأرض، واختار وِعاءً نُحاسيًا مبسوطًا ملأ نِصفه بالماء، وركزه على النّافذة بالقرب من سريره، وفتحَ الكيس، وتناول مبروكة بهدوء من داخله، ووضعها برفق في الوِعاء. ثُمّ جرّ الكيس إلى المغسلة، وأخرجَ العِظام عظمةً عظمة، وراح يُنظّفها بدقّة وبصبرٍ بالمحاليل الكيميائيّة. ونظر إلى جُمجمة أبيه، ورفعَها أمام ناظرَيه، وحَدّقَ في الفراغ الّذي في تجويفَي عينَيه، وأصابَه الهلع لمّا رأى عينَيه في مكانهما تلمعان، وتتحرّكان، وهتف: «ليسَ حقيقيًا، لا يُمكن أنْ يكونَ حقيقيًا». وسمعهما تنطقان: «فكيفَ تراني إذًا وتسمعني؟!». وارتجّ جسدُه، وارتجفتْ يداه، واهتزّت الجمجمة في يده حتّى كادَ يُسقِطها، وشجّعَ نفسَه:

«لقد شرّحتُ مِئات الجُثث، هل ستهزمني جُمجمة نَخِرة؟! هل تُرعبني جمجمة أعزّ النّاس عندي؟».
واستعادَ رباطَة جأشه، وقبّل جبين الجُمجمة، وهتف:
«لا بأسَ يا أبي. لن أتخلّى عنك!». ووضعَها أوّلاً في الحقيبة الجلديّة الحليبيّة ذات الحراشف الأفعوانيّة، وعمدَ إلى بقيّة العِظام، فنظّفَها، نظّف السّيقان، والأذرع، وما تبقّى من عِظام الصّدر والأقدام، وانتهى إلى الحوض، وابتسم: «من هنا خرجت النُطفة الّتي قذفتْ بي إلى هذا الوجود الجهنّمي».

مكثَ أكثر من ستّ ساعاتٍ ذاهِلاً عمّا حولَه، حتّى إذا انتهى من تنظيف العِظام وترتيبها في الحقيبة، رفَعها فوضعها في قاع الخِزانة الخضراء، ثُمّ مسحَ بأصابع كَفَّيه الرّقيقة على دفتر رقوقه الجلديّ، وحمله بكلتا يدَيه، واضِعًا إيّاه في الرّفّ الأعلى من الخِزانة، وتنهّد، وظلّ جامِدًا كأنّه تمِثال ينظر إليه هناك، ثُمّ خُيّل إليه أنّه يسمع صوتَ أبيه: «ليسَ هذا مكانه، بل عندَ رأسِك». ومدّ يدَيه مرّة أخرى، وحمله كما يُحمل الرّضيع، وهو يقول: «عملٌ جيّد، أستحقّ أنْ أستريح قليلاً». ومالَ إلى المرآةِ ونظرَ فيها إلى نفسه، وهتف: «لقد تعبتُ من الاختِباء وراء أوهامي، الخِداع لا يليقُ بالأطبّاء». ونقّتِ الضّفدع عندما نطق كلمة

(الخِداع)، ونظر إليها من فوقِ أكتافه عندَ النّافذة، وصرّتْ أسنانه وهو يؤكّد: «ليسَ هناك على وجه الأرض أصدق منّي!». ومشى إلى السّرير ووضعَ الدّفتر عندَ زاوية المِخدّة.

واستلقَى على السّرير، ولكنّ النّوم ليسَ سهلاً، ونظرَ إلى السّقف، فشاهدَ طواحين دونكيشوت تدور، كانت تدور بسرعةٍ حتّى لم يعدْ يرى فراشاتِها، ولكنّه يرى دوّامةً متّصلة من البَياض تبتلع في جوفِها كلّ شيءٍ، وشعرَ أنّ الدّوّامة تجذبه، وخُيّل إليه أنّه نبتتْ له بدلاً من أذرُعِه أجنحة، وانّه طائرٌ يغوصُ في الدّوّامة وهو يُجاهد أن يُفلِتَ من خلال التّحليقِ بعيدًا عن المركز، وأدركَ أنّ جناحَيه ليسَا قويَّيْن بالدّرجة الكافية، وهتف: «الطّيران صعبٌ، ولكنّني أستطيعُ أنْ أطير». وجاهدَ أنْ يُفلِتَ من الدّوّامة، ولكنّه سقطَ، سقطَ فيها، وغابَ عن الوجود.

(13)
جَسَدُكَ قد يكونُ الثّمن

أوّل ما استيقظَ كان لا يزال يردّد عبارته الأخيرة: «أستطيع أنْ أطير». وخطّط لكلّ شيءٍ سيقوم به خلال الأيّام أو الأشهر القادمة. سيستريح في هذه العاصمة المومس، وبعدَها يُغادر إلى أيّ دولةٍ أجنبيّة، البلادُ الّتي تفهم عبقريّته وجنونه، ولسوفَ يعمل في مستشفى للأمراض النّفسيّة، أو في أرقى مراكز التّشريح، ولسوفَ يُقدّم لهم براءات اختِراع تُذهلهم. وسينقشُ اسمه في صفحة الخلود. وتراءى له الخلود كذبةً كبيرة، وأنّ العدم هو الشّيء الحقيقيّ الّذي سيبتلعه وسيبتلع هذه الأمواج البشريّة المُتدافعة كلّها.

ونزل إلى الشّارع، ورأى عربةً تفوح منها رائحة الفول، كانت العربة خضراء، يقفُ خلفَها رجلٌ خمسينيّ بجثّة ضخمة ورأسٍ كبيرةٍ وشعرٍ وَخَطَه الشّيب في الفَودَين، لم يكنْ يرى غير نصفه الأعلى، وكان يملأ صحون الفول للزّبائن، وزكمت الرّائحة أنفَه، فشعرَ بالجوع، وتقدّم إليه، وطلبَ صحنًا، وقال له: «أنا...». وأرادَ أنْ يقول له اسمَه، ووجم أمام أسمائه السّتّة، واختار (نديم) دون أنْ يدري لماذا، وقال: «نديم»، فردّ

عليه دون أنْ يرفع إليه نَظَره: «أبو ياسين الفَوّال». وأضاف: «أنا طبيب...». واستدرك: «كنتُ طبيبًا». وحينَها رفع إليه الفَوّال بَصَره، وضيّقَ عينَيه، وشكّ في أنّ هذا الزّبون الجديد صادق، ودارَى استغرابه بقوله: «أوّل مرّةٍ أراك». «نزلتُ في فندق هارون، وأظنّ أنّني سأكونُ زبونًا دائِمًا عندك». ومضى إلى المخبز القريب، واشترى رغيفًا، وعادَ إلى مقربةٍ من الفَوّال، وجلسَ على الأرض مُسنِدًا ظهره إلى جدارٍ وراحَ يأكل صحنه بِنَهم. وكانتْ عينا الفَوّال لا تزالان تنظران إليه وقد زادَ شَكّهما.

وأعادَ الصّحن إلى الفَوّال، وسأله: «أين تسكن؟». وردّ الفَوّال سُؤاله بسؤال: «طبيب؟». «نعم». «من أيّ جامعة؟». «الأردنيّة». «وهل يأكل الأطبّاء على الأرضِ مثلَنا؟». «ما الّذي تراه مختلفًا فيهم؟».

وذهبَ في الشّارع الطّويل الممتدّ، ومرّ ببعضِ الأكشاك الّتي تبيع الكُتُب، وتوقّف عندَ بعضِها، وسأل عن رواية (الحمار الذّهبيّ)، فلم يعثرْ عليها، ومضى في طريقه. وعندما عادَ في المساء، كان صبيان (سمعة) القهوجيّ، يُرتّبون الكراسي في القهوة، وأرادَ أنْ يصعدَ إلى غرفته، لم يفعل في يومه غير المشي، وخُيّل إليه أنّ البشر لا يموتون إلاّ إذا توقّفوا عن المشي، وهَمّ بأنْ

يمشي إلى الشّارع الّذي لا ينتهي مرّة أخرى كي لا يموت، ولكنّ ساقَيه لم تعودا تحمِلانه، وصعد إلى غرفته، ومكثَ بعضَ الوقت، ثُمّ هبطَ الدّرجات، وانعطفَ إلى القهوة، ورحّب به أحد الصّبيان: «تفضّلْ يا باشا». وعَبَرَ الطّاولات كلّها، وتعثّر بأحد الكراسي الخارجة، فأزاحه الصّبيّ عن طريقه، ورحّب به مرّة أخرى: «من هنا». وتجاهله، ومضى حتّى انتحى في الزّاوية القصيّة، وجلس إليها. كان الزّبائن قد بدؤوا يتوافدَون، «كيفَ يجذب المكانُ النّاس؟». وأجاب نفسَه عن تساؤله: «المكان الّذي يُلقي فيه النّاس همومهم أو يحملونها». ظلّ وحيدًا مع فنجان قهوته، كان شارِدًا، كأنّ النّاس خيالات بلا أرواح. حتّى لاحظَ أحدهم يمضي باتّجاهه. كان داكن البشرة، كأنّ وجهه مُستعار من اللّيل، وكانتْ أخاديد ذلك الوجه عميقة، وعيناه صغيرتَين، ونحيلاً طويلاً حتّى كاد جذعه يتقصّف تحتَ حركة ساقَيه، ويلبسُ سُترةً كاكيّةً كثيرةَ الجيوب، وجلسَ إلى طاولته دون أنْ يستأذن، وسمعَ صوتَه فحيحَ أفعى يسأله: «زبونٌ جديد؟». وردّ: «طبيب». وقهقه حتّى دارتْ إليه بعضُ العيون: «طبيب؟». وحدّق فيه بصرامة، وهمّ أنْ يقوم من مكانه، ويقتلع عينَيه الصّغيرتَين اللّتَين تُشبِهان عينَي ذئب بأصابعه الرّفيعة من مكانهما، وأدنى جذعه على

الطّاولة، مُقتربًا برأسه، وهمس: «أنا عيد». ولم يردّ، وأردفَ: «أبيع النّشوة». وأعجبتْه العبارة الأخيرة، وسأله: «مُخدّرات؟». وابتسم: «لديّ أكثر من عشرة أصناف، ويُمكنني أن أعطيك قطعةً لتجرّب بِضاعتي». واستدرك: «العرض لمرّة واحدة». وأجابه: «أقبل». ومدّ عيد يده بثقةٍ إلى جيبِ سترته، وناوله إيّاها: «ستُعجبك، أنا متأكّد من ذلك». وتفحّصها، قبل أنْ يقول: «أبو نواس»، واستدرك: «نديم... اسمي نديم». وابتسم عيد ابتسامةً واسعةً حتّى بانتْ أسنانه الصّفراء: «أهلاً بكَ إلى عالمنا دكتور نديم». وأراد أنْ يسأله عن كُنه هذا العالَم، وهتف: «العوالم كلّها ضَبابٌ، أنتَ لا تقبضُ منها إلاّ على الفَراغ». ولم يجدْ عيد شيئًا ليقوله، وأردفَ وهو يُحدّق في القِطعة الّتي أعطاها له: «لا حُكمَ إلاّ عن تجربة». ونقّتِ الضّفدع فوقَ شُبّاكه، وانتبه إليها انتباه طريدةٍ هاربةٍ من صائد، وقال: «إنّها تُناديني». وتلفّت عيد حوله، وهتف: «مَن؟». «الضّفدع». وضَحِكا. وقال له: «هل تعرف مهرّبين؟». وردّ وهو يتلفّتُ حوله: «أنا أكبر مُهرّب. كلّ حبوب السّعادة هذه أنا هرّبْتُها». ردّ بضيق: «أنتَ طفل». صدمتْه العبارة، ابتلع رِيقه، ومنع نفسه من افتِعالٍ شِجار يكسّر فيه نصفَ طاولات القهوة على رأسِ هذا الطّبيب الأخرق، وردّ: «وأنتَ ماذا؟». «أنا أسأل يا عيد

عن شخصٍ يستطيع أنْ يُخرجني من هنا». «وإلى أينَ تريد؟». «أيّ دولةٍ أجنبيّة». وقهقه عيد هذه المرّة وهو يُرجِع ظهره إلى مسند الكرسيّ، ويضربُ بقبضته على الطّاولة: «يا رجل... تريد أنْ تتركَ بلدَك... الأردنّ جَنّة... وأنتَ؟ ألم تقلْ إنّكَ طبيب؟!». وأرادَ أنْ يقوم، ولكنّه استبقاه، وقال بصوتٍ خافت: «هل معك مال؟». «أظنّ أنّه معي ما يكفي».

وسرى جيشُ اللّيل، وعادَ إلى غرفته، أدار زِرّ الضّوء، كان المِصباح شاحِبًا قد عتمَ لكثرة خيوط العناكب الّتي لفّتْه، يلقي بضوءٍ كسولٍ لا يكادُ يُظهر الموجودات في أرجاء غرفته، واستلقَى على السّرير، ودارَ بِخَلَدِه: «إنْ خرجتُ من هنا، فلربّما أستطيع أنْ أحيا من جديد».

اختفى (عيد) شهرًا، ظلّ طَوال هذا الشّهر، يأكل صحنًا واحِدًا من الفول في اليوم، ويشربُ فنجانًا واحِدًا من القهوة كلّ مساء، ويُمتّع نفسَه بزجاجةِ نبيذ كلّ أسبوع، ولم يمرّ الشّهر حتّى كانتْ أمواله قد نفدتْ أو قاربتْ على النّفاد. كان يجلسُ ساهِمًا يُدخّن في القهوة عندما تراءى له شبحُ عِيد، وشكّ في أنّه يراه، ولكنّه جلسَ إلى طاولته بالطّريقة نفسِها الّتي جلسَ فيها في المرّة الأولى، وسأله عيد: «كيفَ وجدتَ البضاعة؟». وردّ مُستغرِبًا: «أين كنتَ طَوال هذه

الفترة؟». «لقد كنتُ في السّجن». «السّجن؟». «إنّهم يعرفونني، ولكنّني لا أمكثُ فيه أكثرَ من شهر، لكلّ واحدٍ فينا سِعر، وأنا أعرفُ سِعر كلّ شيء، حتّى الخروج من السّجن أعرفُ سِعره...» وصمتَ قليلاً قبل أنْ يُتابِع: «هل تريدُ تجربةَ صِنفٍ آخَر؟». وردّ عليه بِضيق: «ربّما ليس لديّ ثمنٌ لِبضاعتك». فردّ وهو يتفحّصه: «جسدك قد يكون الثّمن». وأردف: «ولكنّني أخشى أنْ جسدَ طبيب هزيلٍ مثلك لا يكفي». وتناول لفافةً من إحدى جيوب سُترته، وفردَ القصدير الّذي فيها، ونشق، وهو يقول: «القانون عادلٌ بعضَ الشّيء، هناك فارق، يستطيع أعتى المجرمين أنْ يحمي نفسه بالقانون، القانون علكة». وأعجبه التّشبيه الأخير، وأكمل: «هل ما تزال تريدُ أنْ تتركَ هذا البلد الطّيّب؟». وضحك ضحكة عالية، وتابع: «ولكنّكَ تحتاج إلى مالٍ، كيفَ يُمكن أنْ تحملكَ شاحنةُ تبريدٍ دون أنْ تملك ثمنَ المبيت فيها على الأقلّ». وردّ: «ربّما عليّ أنْ أعمل شهرًا أو اثنين لأجمع المال». فردّ عليه: «ولماذا لا تعمل في أحد المُستشفيات». «هذه المُستشفيات خراء، لا يحتملون عبقريّتي، فيلجؤون إلى سلطتهم، المدير فصلني من العمل». «فصلك؟». «نعم». «في أيّ مستشفى كنتَ تعمل؟». «في مستشفى القلب، أقومُ بالعمليّات الجراحيّة». «غريبٌ، ولماذا؟». «ولماذا

ماذا؟». «لماذا فصلوك؟». «حسدًا». «حسدًا؟». «الأطبّاء الآخرون لا يقومون بتلك العمليّات بالدّقّة والمهنيّة الّتي أقوم أنا بها... خافوا على أنفسهم... إنّهم موبوؤون... وأنتَ؟». «ماذا عنّي؟». «ألا تجد تلك المنافسة القذرة حتّى في عملك في التّهريب؟». «مَنْ يقول غير ذلك؟». «نحن هُراء». «خراء». «المهمّ؟». «ادفعْ».

قال لسمعة: «هل أجدُ عندكَ عملاً؟». ردّ عليه: «إنّ عملك عندي لا يكفي لشُربِ فنجان قهوتك كلّ مساء». قال للفَوّال: «أستطيع أنْ أحمل لكَ أجولة الفول، وأسهر على نَقْعِها». «لن ينفعني هذا». «جرّبْني شهرًا». «يُمكنك أنْ تدفعَ عربةَ الفول من هنا إلى آخر هذا الشّارع عند المنعطف الصّاعد إلى جبل التّاج، ثُمّ تصعد بها الجبل. لم أعدْ أقوى على دَفْعها بعدَ هذا العُمر». وعمل عنده أسبوعًا، ولكنّه اكتشف أنّه يعمل بثمن الصّحن نفسه، فتركه بعدَ أسبوع.

ورمقه صاحبُ الفندق، وهو داخل يترنّح في إحدى اللّيالي، وأوقفه قبل أنْ يرتقي الدّرجات: «ثلاثة أشهرٍ لم تدفع لي». «سأجدُ المال الكافي لأفعل». «إنْ لم تدفعْ لي غدًا، فسأرميك أنتَ وضفدعك الّتي لا تكفّ عن النّقيق في الشّارع». وأردف: «أنا مش ناقصني

مجانين». وتخيّل نفسَه من جديد، يغرز إبرة المُخدّر في عنقه، ويُمدّده على سطح مكتبه القَذِر، ويفتح صدره بِمنشار، ويُخرج قلبَه ويقضمه، وخلّص نفسَه من هلوساته قبل أنْ تتفاقَم، وأعطاه ظهره، وصعد إلى غرفته.

كانت مُعتِمة على عادتها، ألقى جسده المُنهَك على السرير دون أنْ يدير زرّ الضّوء، كان بعضُ النّور يتسلّل من أعمدة الشّارع إلى غرفته، وألقى رأسه على صدره، وأرادَ أنْ يبكي، ولكنّ صوتَ الشّيخ إمام أنقذه: «**لا تبكِ فأحزانُ الصِّغَرِ... تمضي كالحُلمِ مع الفَجرِ...**». وأطربَه الصّوت، وخُيّل إليه أنّه يسمع صوتَ العُود، العود إيّاه، وتمايلَ على ذلك الإيقاع الحزين الجميل، ولكنّ الوتر الخامس انقطع. فانقطع معه اللّحن، وسادتْ فترةُ صمتٍ، قبل أنْ يرى أباه في الزّاوية البعيدة عند الحَمّام، وهتف: «أبي؟!». كان جسدهُ يغُطيه ظهره، ويرى من فوق كتفيه نصف وجهه مائلاً نحوه قليلاً قد وَشَحه الضوء القادم من الشّارع، وهتفَ ثانيةً: «أبي؟! أهذا أنت؟!». وسمعَ صوتَ أبيه يقول له: «ملعون». ولم يتوقّعْ أنْ يُردّد أبوه ما يُردّده الغوغاء، وهتفَ في أعماقه: «لقد انقلب عقلي ضِدّي. مُستحيلٌ أنْ يكون هذا أبي!!». وشعرَ أنّ يدَين ضخمتَين تسحبان قدمَيه

إلى قاعٍ بلا قرار، وخبط الأرضَ بقدَميه ليوقف هُوُيّه، وسمع أباه ينطقُ في العتمة: «ملعون... أحرقتَ كتبي يا ملعون، أحرقتَ ما أنتجتْه البشريّة من حضارةٍ، هل تعرفُ حجم الخطيئة الّتي ارتكبْتَها؟ لو كنتَ اتّخذْتَ من جلودها حِذاءً لقدمَيك لكنتُ غفرتُ لك، ولكنْ أنْ تتركها للنّيران تلتهمها فأنتَ ملعون». ردّ عليه: «كان لا بُدّ من التّخلّص منها؛ المكتبة مثل القبور لا بُدّ في النّهاية من رَدْمها». وهتفَ أبوه به: «ملعون. إنّ إحراق كتابٍ أسوأ بكثيرٍ من إحراق إنسان». «كان عليّ أنْ أبدأ من جديد». وسمعَ صدى قهقهته: «لقد انتهيت». «يا أبي، لا تقلْ ذلك!». «ملعون؛ بماذا تختلفُ في هذا عن هولاكو؟!». وهتفَ بحرقة: «يا أبي!». وقامَ من مكانه ليسأله الغُفران، ولكنّه كان قد ذابَ في الظّلام، كما تذوب ذبالة المصباح في البلّورة قبل أنْ تنطفِئ.

(14)

لم تعدْ تأكل من صَحني؟!

كان يخبز في اليوم أكثر من ثلاثمئة رغيف. حرارة الفُرن كانت تُذيب أوهامه، كان يجدُ في الخبز طعامَه، وكان صاحب المخبز يُعطيه في اليوم عشرة دنانير، إنّها كافية من أجل تحقيق الحلم الهارب. كان يعمل كما لو كان آلة، يعجن، يكوّر العجينة، ينقرها برؤوس أصابعه، أصابعُ جرّاح هي، أو أصابع عازف البيانو؟! يُرقّقُها حتّى تُصبح بدرًا كامِلاً، يرفعها، يُديرها على مركز إبهامه كما لو كانت ثوبَ عروسٍ ترقص، ثُمّ يقذف بها إلى النّار، عليها أنْ تنضج، كلّنا عجينٌ تُنضِجه النّار، تنتفخ، تنبثُ الفقاعات، يسري فيها اللّهب، و... تفوحُ رائحة الخُبز الشّهيّ، يملأ منها صدره ويبتسم، يُخرجها اثنَين اثنَين على محفّته الخشبيّة، ويُرتّبها على الطّاولة، تمتدّ إليها أيدي الجَوعي، ثُمّ تُصبح بعدَ قليلٍ في بطون الزّبائن... حتّى عندما ننضج هناك مَنْ يأكلنا، هناك من لا يعيش إلاّ إذا أكلَ خُبزَ الآخرين... ويغيبُ في تهيّؤاته، ويبرزُ له أبوه من خلف اللّهب في أعمق نقطةٍ من الفرن، ويذهل عن نفسه، يُوقظه صاحب المخبز: «ما الّذي أصابك؟ لقد كنتَ تدور مثل مِغزل، تعمل كأنّكَ مجموعة من الخبّازين في واحدٍ،

لماذا توقّفْتَ هكذا فجأةً مثل الأبله؟». ينفض رأسه، ويردّ: «لا شيء». عادَ إلى عمله، أنضج الخبز بهمّة دون أنْ يتوقّف لحظة، رمقه صاحب الفرن وابتسم راضِيًا، لكنّ أباه برز له مرّة أخرى من داخل النّيران، وهتف به: «ملعون، لقد أحرقتَ كتبي». لم يحتمل هذه المرّة، انتفختْ رِئتاه، سرى في أوداجه دم الغضب، انفجر: «لم أكنْ أنتمي إلى ذلك المكان؛ ولذلك أحرقتُها». صرخ به صوتُ أبيه بأشدّ من صُراخه: «لم تكنْ تنتمي إلاّ إلى ذلك المكان؛ لم تكنْ تنتمي إلاّ إلى قريتنا، هل تظنّ نفسكَ أفضلَ منّي؟ لقد طفتُ بلدانًا كثيرةً، ولكنّني كنتُ مثل نبتةٍ زُرِعتْ خارج تُربتها، نحن لا ننمو إلاّ في تربتنا، كان قدَري أنْ أعود، وقدركَ أيضًا». صرخ به: «كفى». هُرِع إليه صاحب المخبز على صُراخه. هدّأ مِنْ رَوعه، سقاه بعضَ الماء، أجلسه، هدأتْ ثائرته، وسكنتْ رجفته، حذّره: «سأعتبرها المرّة الأخيرة، لقد أفزعتَ الزّبائن، إنْ سمعتُكَ تصرخ مرّة أخرى فلن تدخل من هذا الباب». وطرده بعدَ يومَين، كان يصرخُ في اليوم أكثر من خمسِ مرّات. ووجدَ نفسَه بلا عمل. دفع بعضَ ما جمعه للفندق، وأمل أنّه بما تبقّى يستطيع أنْ يخرج من عنق الزّجاجة. لكنّ عنق الزّجاجة كان طويلاً وأملس، كلّما مشى فوقَه زلقتْ رِجلاه فسقطَ في القاع.

قال له (هارون): «لقد سألت عنكَ الجميلةُ مرّةً أخرى؟ لماذا تتجاهل الأمر؟ إنّها تستحقّ أنْ تقضي معها ولو ليلةً؟ الجميلات لا يبذلْن أجسادهنّ دائِمًا». لعنه في سِرّه، ومضى إلى غرفته. كانت غرفته باردة، هواؤُها صقيع، وأطرافُه متجمّدة، بحثَ عن الدّفء في قلبِه، فوجده هو الآخَر كتلةً من الزُّجاج يكادَ يتكسّر تحتَ ضربات الأقدار. أرادَ أنْ يتناول دفتره الجلديّ، ويكتب فيه شيئًا، كان يعرفُ أنّه يحتاج إلى أوراقٍ بعدد النّجوم في السّماء من أجل أنْ يفرّغ مِعشار ما في عقله من كلمات، ولكنّه لم يستطع أنْ يكتب كلمةً واحدة، شعر بألمٍ في روحه لهذا العجز، إنّ في فمه عطشَ الصّحارى المُقفرات، وفي عقله ماء المُحيطات المالِحات، وهو مع ذلك كُلّه غير قادرٍ على أنْ يشربَ كأسًا واحدة.

كانت هذه المرّة تنتظره في البَهو. راوَدَها هارون: «صحيح أنّني لستُ في مثل شبابه، ولكنّه لا يملك المال الّذي أملكه، وعليكِ أنْ تعرفي لمن تبيعين هذا الجسد؟». شتمته وظلّت قابعةً في كرسيّها. عندما رأته مُقبِلاً نهضت على قدمَيها، واختصرت بعضَ الخُطوات عليه والتقته في القلب، ومدّت يدها مُصافحة: «أنا ليندا». وقفَ كأنّه تِمثال، وضيّق عينَيه،

وظلّ صامِتًا، دفعتْ هي عجلةَ الكلام إلى الأمام قليلاً: «أنا أعرفك؟». ضيّق عينَيه أكثر، ثُمّ أدارَ رأسه إلى الجهة الأخرى: «لا وقتَ لديّ». ردّتْ: «كلّنا لدينا بعض الوقت». «أنا متعب». «أنا هنا من أجل أنْ أُريحك». «مَنْ بعثكِ إليّ؟». «السّماء». ضحك بصوتٍ عالٍ، وضحكتْ هي الأخرى، كانتْ في أواسط العشرينيّات من عُمرها، شابّةً ناضجةً أكثر من أرغفة خُبزِه ذات الرّائحة الشّهيّة، وتابعتْ: «هل يُمكن أنْ نجلسَ في أيّ مكانٍ لكي نتحدّث؟». زمّ شفتَيه، فحصَها بنظراته من جديد، إنّها تضجّ بالشّهوة، كان لِباسُها يضيقُ على جسدها الممشوق، الّذي تتراتبُ فيه الحُزُون والسّهول بتناسقٍ مُذهلٍ ليس فيه للصّدفة ولا الزّيادة موضع: «ما الّذي يجمعنا حتّى أقبلَ بعرضٍ سخيّ كهذا؟». ردّت، وشفتاها القرمزيّتان تشكّلان دائرةً كأنّها تهمّ بقُبلة: «اليُتم». «يتيمة؟». «مثلك!». وضحك: «إنّ المصائب يجمعْنَ المُصابينا». ردّتْ بغُنج: «يُمكننا أنْ نُتِمّ حديثنا في مكانٍ آخر. لا تتمنّعْ. نحنُ من عجينةٍ واحدة». وهزّ رأسه، وبدتْ له كما قالث بالفعل، وأردفتْ: «كان أبي صديقَ أبيك». «طردَتْنا الحاجةُ إذًا؟». «قلتُ يُمكننا أنْ نقولَ كلّ شيءٍ، لكنْ بعيدًا عن هذا المسخ». وأشارتْ إلى هارون. ومشتْ أمامه داليةً من عنبٍ تتدلّى قُطوفُها وتتساقطُ حَبّاتها، وشعرَ أنّها

سَحَرَتْه، وأنّه وقعَ في شِباكِها، فتَبِعها كالمأخوذ، كانَ قد سمحَ لشِقٍّ صغيرٍ في صخرةِ قلبِه أنْ ينفتح، وكانتْ مُحيطات القلب تنتظر تلك اللّحظة، ثُمّ من ذلك الشّقّ تسرّبت القطرات في البداية، لكي تسمح للباقِيات أنْ تتدافع شيئًا فشيئًا، ثُمّ انداحت بينهما المياه حتّى كادا يغرقان فيها.

كانتْ تقسمُ أيّامَه بينها وبينهم، «لكَ نِصفُ هذا الوقت، ولو كان لديّ ما أريدُ، لوهبْتُكَ كلّ أيّامي». وسألها: «لماذا أنا؟». وغاصتْ في عينَيه: «أنا إحدى مريضاتِك في مستشفَى القلب، ألا تتذكّرني؟». وحاول أنْ يتذكّر، ولكنّه لم يُفلِح، وهتف: «فلماذا اخترعتِ قِصّة صداقة أبي مع أبيك؟». «لقد كان ذلك طُعمًا». ألصقَ لسانه في سقفِ حلقِه، وسألها: «ولماذا لم آكل قلبك مثل البقيّة؟». فردّتْ: لأنّ قلبي قلبُك، هل يأكل الطّبيبُ قلبَه؟!».

كان زبائنُها من أبناء الذّوات، وكانت تجني في اليوم ما يجنيه الوزير في شهر: «بعضُهم كرماء، وأنا أعرفُ كيفَ أكونُ كريمةً معهم؟». وشتمها: «رخيصة؟». فردّتْ: «سِعري أعلى مِنْ سعركَ وسعر أبيك وأمّك، وقريتكَ كُلّها». «مَنْ يبيعُ جسده؟!». «مَنْ يملكه». «يُمكننا أنْ نكسب المال بطريقةٍ أخرى!». «مِثل ماذا؟

أن نأكل قلوب الآخرينَ مثلاً؟!». «أفضل من أن نأكل أعضاءَهم التّناسليّة». وقهقهتْ: «في هذا العالَم، أُفضّل أنْ أكون مومِسًا على أنْ أكون قِدّيسة».

وقضى معها عامًا كامِلاً، كانتْ تُغدِق عليه كلّ ما تملك، جسدها، ومالَها، وقلبَها، وروحَها، حتّى أتخمتْه، وسألته أنْ يسكنَ في شُقتّها الفارهة بدلاً من غرفته القذرة، وبؤسِه، فردّ: «لن أترك ضفدعي». «مجنون؟». «وملعونٌ أيضًا. ولم أُجبِرْكِ على أنْ تدخلي من ذلك الباب المُهترِئ في ذلك اليوم». «نتزوّج ونخرج من هنا، ونبدأ حياةً جديدة». «لا مستقبلَ أنتظره لكي أبدأ معكِ حياةً جديدة، ولا ماضي يدفعني لكي آسفُ عليه، ولا أريدُ لامرأةٍ أنْ تُشاركني في شيءٍ. أريدُ أنْ أبقى وحدي». «لقد كنتَ طبيبًا بارِعًا، أسرتَني في ذلك اليوم الّذي جِئتُكَ فيه». «إنّ الطّيور على أشكالِها تقع».

وقالت: «يُمكن أنْ تعملَ معي في الفندق؟». وردّ: «لا أملك جسدًا كجسدك». تضايقتْ من تَغابيه: «إنّكَ طبيب، عقلُكَ بِضاعتك، ويُمكن أنْ تبيع ما تعرف». وردّ: «أوّل مرّة أرى بائعة هوى تتحوّل إلى فيلسوفة!». «لا تتذاكَ. يُمكن أنْ تعمل في الصّالة الرّياضيّة طبيبًا». ورتّبتْ له لقاءً مع مدير الفندق، وأذهلتْه شهاداتُه، وشعرَ أنّه وقع على كنز، وقال له وهو

يشدّ على يده: «أتمنّى أنْ تكونَ كفاءتك مع زبائننا مثل كفاءة ليندا».

واستلمَ عمله الجديد، كانت الصّالة تعجّ بالنّساء المُخمليّات، وفي غضون أسبوع كان قد تحوّل إلى موضع المُدلّك، وراحث أصابعه تعزفُ بمهارةٍ على أجسادهنّ اللّيّنة، فتثير فيها كوامن الرّغبة، وتهافتث إلى صالته البَجَعات، والبطّات، والغَزالات، وأصنافٌ أخرى ليس بينهنّ جامعٌ سوى أنّهنّ نساء يبحثْنَ عن جمالٍ شاردٍ، وعمرٍ يخشينَ أنْ يضيع بسرعة. وسُرّ منه المدير، وتحوّل مع الوقتِ إلى طبيبٍ نفسيّ للنّساء القادِمات من ذلك المجتمع، وكان لِسانه يدور في فمه بكلامٍ معسولٍ يمزجه مِمّا يعرفُ ويحفظ حتّى سحر كلّ مَنْ ألقَى صوتَه في قلوبهنّ، وشعرَ بأنّه ينضح بالقذراة، وكان يرى أنّ دنسهنّ هو مرضهنّ، وخطّط للطّريقة المُثلى لتخليصهنّ من ذلك المرض، وفكّر: «آكل قلوبهنّ كما كنتُ أفعل في ذلك المُستشفى... أحقنهنّ بالحقنة الّتي تزيدُ الرّغبة... أُدخلهنّ العالَم الّذي أدخلتْني فيه السّماء...». ولكنّ أفكاره هذه لم تجدْ سبيلَها إلى التّطبيق، ورصدتْه الكاميرات يصنع ما هو خارجٌ عن حدود عمله، فتغاضَى المدير عن ذلك في مقابل براعته في جذب الزّبائن. ولكنّ فرحة المدير

بتدفّق المال بدأث تتحوّل عندما حدثث أوّل حالةِ وفاةٍ في الصّالة. وانتهى تقرير الطّبّ الشّرعيّ إلى أنّها سكتة دماغيّة، ثُمّ حدثث حالة وفاةٍ ثانية، فثالثة، وراحت الشّكوك تحوم حولَه، ودبّ الذّعر بين النّساء القادمات من خلفِ الأسوار الحصينة، والبيوت الّتي تتدلّى من أسقفها العالية الثّريّات المُذهّبة، وانتهى به الأمر إلى الشّارع. وعادَ إلى عِظامِ أبيه. وسأله الفَوّال: «لم تعدْ تأكل من صَحني؟!». وطمأنه: «أكلتُ من صحونٍ كثيرةٍ، ولم أجدْ فيها أطيبَ مِمّا وجدتُه عندك». وراحَ يتسكّع من جديد، وانسابَ في الطّرقات يجمع أوساخَها ويسيل مثلَ ماءٍ فاسدٍ عَفِن.

وجلسَ في زاويته التي يعرفُها سمعة في قهوته، وجاءته ليندا: «ما الّذي فعلتَه؟». «لم آكُلْ قلبَ بشريّ منذ ذلك الزّمن البعيد». «ولماذا كُنّ يَمُتن؟!». «التّقرير الطّبّيّ قال إنّها السّكتة». وحدّقت فيه مُنكِرة: «قُل هذا لغيري!». «لا تنسَي أنّني طبيب». فكرّرتْ: «قُل هذا لغيري!». فضرب الطّاولة بقبضةِ يده، وشدّ على أسنانه وهو يُخرج الكلمات مخنوقةً من بين شفتَيه: «إنْ لم تكفّي عن رؤيتي فسيكون قلبُك هو القلب الّذي آكُلُه على الحقيقة». «لقد فعلتَ أيّها الطّبيب الوسيم». «لا أريدُ أنْ أراكِ». «لم أفعلْ لأحدٍ ما فعلتُه لك». «هل

سنبدأ بالبُكاء على الأطلال؟». «لقد أحببتُك». «أنتِ لا تعرفينني». «أنا أعرفُ منكَ ما يكفي لنعيشَ معًا». صرخَ هذه المرّة وقد وقفَ على قدمَيه: «لو رأيتُ وجهكِ مرّة أخرى، فسأقومُ بتشريح جُثّتكِ العفنة أمام زبائن هذا المقهى». ووقفتْ هي الأخرى، وسارعتْ بالخروج من المقهى، وفي روحها تنوحُ ألفُ باكية!

وأنفقَ كثيرًا مِمّا جمعَه من أجسادِ المحرومات على بِضاعة (عيد)، وعلى زُجاجات النّبيذ، وكان هارون يهشّ لمقدمه، ويقول: «الزّمن دَوّار يا دكتور. لازم تعيش كما تحبّ. أنا أحسدك».

وسمعَ ضفدعه تنقّ من مكانه في المقهى، وحدّث نفسه: «إنّها جائعة». ودخل إلى غرفته، ورأى أباه؛ مُقرفِصًا مثل قُنفذٍ تحت المِغسلة، وأشاح بوجهه عنه، وأرادَ أنْ يكتبَ في دفتر رقوقه الجِلديّ، وفكّر أنّه من الأجمل أنْ يكتب على الجدران، وكتبَ بيتَ عنترة:

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيرَكُمُ

ولا رضيتُ سِواكمْ في الهوى بَدَلا

وأوى إلى فِراشه، وخُيّل إليه صوتُ أبيه قادِمًا من فم البِئر الّتي سقطَ فيها. وهتفَ قبل أنْ يُتِمّ سقوطه اللّذيذ: «أملك المال، ولا بُدّ من الرّحيل».

(15)
أَعرُجُ مثلَ غُراب

إنّها الكأس العاشرة. إنّني أعمى. أسير في دروبٍ مُتعرّجة زَلِقة. المطر يسقط. السّماء تُزمجر. والرّيح الشّديدة تجعل قطرات المطر كأنّها زَخّات رَصاص، أنا أحاول أنْ أفتحَ فمي لأشرب بعضَ تلك القطرات، ولكنّ الرّيح تَذروها عن فمي. إنّني أصمّ، لا أسمعُ إلاّ ضجيجًا عميقًا في أُذنَيّ، لا أسمعُ صوتي، ولا أسمعُ صوتَ الآخرين، الفضاء مملوءٌ بالأصوات الغريبة، إنّها تُشبه صراصير طيّارة تئزّ في المدى، وتدخل في فمي وعينَيّ وأُذنَيّ. أكادُ أختنق، أبحثُ عن هواء نظيفٍ، المدينة كلّها مليئةٌ بهواءٍ فاسدٍ، وأنا فاسدٌ مثلها!

كانتْ ليلتَه الأخيرة قبل أنْ يجده المارّة في الشّارع بين الموت والحياة، وفمه يسيل بالزَّبَد من زاويتَيه، تجمّعوا حَوله، كان يرقدُ على رصيفٍ يبعد عن مطعم (هاشم) قليلاً، سدّ المُتجمهرون عليه الفَضاء فازدادَ اختِناقُه، كانَ يرى أشباحًا تتراكمُ من حوله، وأصواتًا لا يُميزّ ما تقول، ونادَى بعضُهم الشّرطة، وجاء أحدُهم فَنَضحَ الماءَ على وجهه، وأبعدَ النّاس، فتحرّك قليلاً وفتحَ جفنَيه، ولكنّه كان منفصلاً عمّن حولَه، كان مُمدّدًا على شِقّه الأيسر، ذراعه اليُسرى تحت ظهره، وكفّه

مبسوطة تحتَ رأسه، ثِيابه رَثّة، وعيناه منتفختان، قميصه مَشقوق، وتظهر من تحته فانيلة خضراء مُتّسخة، ترتفع عن أسفل ظهره، لتبدو فقراته، وجِلده الّذي حال لونه للسّواد كأنّه مسح به أرضَ السّوق كلّها، وكانتْ ساقاه مثنيّتَين بزاويةٍ قائمة، وبنطاله البُنّي يكاد يسحل عن وسطه النّحيل، عاريَ القدمَين، وكانت ذراعه اليُمنى تتهدّل فوق حرفِ ظهره، وتنزل عنه حتّى تكاد تلامس الأرض، وعَظمةُ رُسغه بارزةٌ بشكلٍ جليّ. ورَشَقَه شرطيٌّ آخَر بالماء، وهتف: «مَنْ هذا؟». وأزاح سمعة القهوجي بعضَ المُتجمهرين وقال لهم: «ابتعدوا... ابتعدوا.. أنا أعرفه، هذا الدّكتور نديم». وبدتْ علامات الاستِغراب على الشّرطة وبعض المارّة، وأمرهم أحدُهم: «ارفعوا هذه القذارة»، حَمَله سُمعة، وركنَ ذراعه اليمنى فوق عنقه، وعرجَ وهو يهتف به: «دكتور... اصحَ... اصحَ». ثُمّ نقلوه إلى المستشفى. أخذوا عِيْنةً من دمه، وأجرَوا له فحوصًا طبّيّة عديدة، وبعثَ طبيبُه إلى المركز الأمنيّ تقريره، ونصح: «يبقى في المستشفى لأسبوع من أجل فحص صحّته البدنيّة والنّفسيّة». قال للطّبيب الّذي يفحصه وهو يسأله: «بِمَ تشعر؟». فردّ: «أشعرُ أنّني فأرٌ صغيرٌ أركضُ مذعورًا في سراديب مُظلِمة وباردة، أَعرُجُ مثلَ غُرابٍ يحاول أنْ يُحلّق فلا يستطيع غير نبش القبور في ساحة

الكونكورد في باريس مع جورج أورويل في تشرّده، لكنّني بدلاً من ذلك آكلُ لُقمًا كبيرةً من الحجارة يعسرُ عليّ اِبتلاعُها على طاولة الإمبراطور كاليغولا إلى جانب حفنةٍ من الشّعير، وأسمع صوتَ الإسكندر يهتفُ في أذني على الدّوام كلّما رأيتُ خيول الكاوبوي في أفلام الغرب الأمريكيّ: إنّ أحسنَ طريقةٍ لترويض الخيل هي أنْ تجعل عيونَها في مواجهة الشّمس، غير أنّ الشّمس الّتي أنتظر ضُوءَها منذُ عشرينَ عامًا أبث أنْ تُشرِق، هل هناك أجمل من أنْ تُفكّر بإلقاء نفسِك في نهرٍ كما فعل روبرت شومان لكي يوحي لكَ خرير النّهر بألحانٍ جديدة؟». كان يتكلّم بسرعة كأنّ حروفَه ذئابٌ تجري في سهلٍ ثلجيّ تحت قمرٍ خَجول، ولهث وهو ينطق آخر تلك الحروف وعيناه تحفران الأرض، ثُمّ رفع رأسه إلى الطّبيب بحركةٍ سريعة وسأله بهدوء بعدَ لحظةِ صمتٍ وهو ينظر في عينَيه: «هل راقث لك؟». بعدَ انقضاء الأسبوع أرسل تقريرًا آخَر: «المريض يبدو انتحاريًّا، إنّه يتكلّم عن الحريق، ويصعدُ درج المستشفى في اللّيل، ويقفُ في أعلى جدران السّطح، ويهمّ بأنْ يُلقي نفسَه من هناك. ويُكرّر كلمات غريبة، مثل المقبرة الفوقا، والغربان، والعِظام،... إنّه ذكيّ، ولكنّه مخبول، وهو بحاجةٍ إلى مستشفى للأمراض العقليّة. الموضوع ليس من اختِصاصنا». ناست عينا

مدير المركز الأمنيّ وهو يقرأ التّقرير، وأطلقَ زفرةً خرجتْ كأنّها صفيرٌ حادّ، ثُمّ كتبَ في ذَيْله: «يُرسَل المريض إلى المصحّ النّفسيّ».

كان المُستشفى قد أقيم على نَشَزٍ من الأرض، بعيدًا عن النّاس كي يكون قريبًا من الله، أملاً في أنْ تسقط رحمتُه على القلوب المُنكسِرة هنا. وكان يضمّ طابِقَين، في كلّ طابقٍ أربعةُ مهاجع، صُنّفت حسب حالة المرضى، وفي كلّ مهجعٍ اثنا عشر سريرًا لم تكنْ كلّها مشغولة، وكانَ - لولا ملاءات الأطبّاء البيضاء، والممرّضات - يبدو سجنًا لا مصحًّا، ولكنْ ما الفرق؟ وكانتْ تمتدّ أمامه ساحةٌ فسيحةٌ مزروعة بالورود والأشجار، ويقوم عددٌ من العُمّال على سِقايتها والاعتِناء بها حتّى تظلّ بهيجةً لعلّ شيئًا من تلك البهجة تنتقل إلى تلك الأرواح الحزينة.

اعترضَ منذ اليوم الأوّل على الأدوية الّتي تُعطَى له، قال للطّبيب المُشرِف: «أعرفُ حالتي أكثرَ منك، أنا لا أحتاج حُقَن المورفين أيّها الغبيّ». لم يقل الطّبيب شيئًا، لكنّ اعتِراضَه هذا لم يقفْ عنده، فكان يعترض على وصفات المرضى الآخرين، حتّى صرخ به الطّبيب: «أنا المسؤول هنا، لا أنت». «أنتَ تقتلهم بغبائك، والآن هل عندك حُقن اللّيثيوم أمْ أنّكَ سرقتَها من هنا لكي

تبيعها في صيدليّتك كما فعلتَ مع حُقن الفولتَرين؟».
وجحظتْ عينا الطّبيب، ومضى لكي يتركه خلفه، ولكنّ (نديم) تبعه، وحاوره فوقَ رأسِ كلّ مريضٍ، وجاراه الطّبيب حتّى لا يفقد أعصابَه، واستمرّ يسمعه دون أنْ يتكلّم.

وقال للطبيب مرّة: «الاكتِئاب بوجهٍ من الوجوه جميل، إنّه يحفر في أعماقك فترى نفسكَ صافيةً كما لو كانتْ تنعكس على مرآةٍ بلّورية من الماء في ليلٍ وادع، إنّه حقيقيّ أكثر من هذه الأقنعة الكاذبة الّتي تلبسُها يا دكتورا».

وحصلتْ (ليندا) على زيارةٍ خاصّة له، سألها وهو يجلس إلى طرف الطّاولة المقابل لها: «ماذا دفعتِ لهم حتّى تحصلي على مثل هذه الزّيارة، جسدكِ أم مالكِ القذر؟». فردّتْ وهي تغوصُ في عينَيه اليتيمتين: «جئتُ لأراك، اشتقتُ إليك». وسأل ببراءة: «أنا؟». فردّتْ بحرارة: «نعم أنتَ!». «وما الكذبة الجديدة الّتي ستقولينها عن معرفتِك بي هذه المرّة؟ ها؟ هل ستقولين إنّ أُمّك الّتي كانتْ تُؤمن بالخزعبلات تأتي إلى قريتنا لتكتبَ أمّي لها الحُجُب؟ كنتِ زميلتي في كلّيّة الطّبّ، ولكنّك كنتَ تخافين من الجُثث؟ سرقتْ من شقّتك الفارهة اللّوحة الأصليّة لصرخة إدفارت

مونكَ؟». وصمتَ قليلاً قبل أنْ يُتابع: «تعرفين؟ لو كنتُ أستطيع سرقة تلك اللّوحة على الحقيقة لفعلتُ؛ إنّها أكثر لوحةٍ تُمثّلني!». وظلّت صامتةً تنظر في عينَيه، تكادُ تبكي، وهتفت بعدَ ذلك: «أستطيع أنْ أُخرجكَ من هنا؟». «لا أريدُ أنْ تفعلي». «هل يُعجبك المكان؟». «كلاّ، ولكنْ سأخرجُ بطريقتي». «سيُعيدونكَ إلى هنا». «لا تكوني حمقاء». «ألا تريدُ أنْ تعيشَ حُرًّا؟». «أنا حُرّ هنا...». وأشار إلى رأسِه. «إنّه سببُ متاعبك». «هل تحاولين ممارسة دور الأمّ؟!». «أنا أحبّك». «الحبّ كذبة. الشعراء هم الّذين كذبوا على النّاس به، وأفلاطون أخرج الشّعراء لكذبهم من مدينته الفاضلة. ليس في قلبي مكانٌ للحُبّ». «لماذا لا توقفُ هذه الحرب بينكَ وبين نفسك؟». «هل سأجدُ السلام عندكِ مثلاً؟!». «هُدنة على الأقلّ؛ أما تعبتَ؟». «أفضّل أنْ تبقى الحربُ قائمة». نهضتْ وهي تُلملمُ أشياءَها من فوق الطّاولة: «سأزوركَ مرّة أخرى عندما تكون صحّتُكَ أفضل». «أريدُ منكِ خدمة». «أنا لكَ!». «ادفعي للقذر هارون أجرة غرفتي ريثما أخرجُ من هنا. إنّ في غرفتي أشياء عزيزةً جِدًّا عليّ، أخافُ أنْ يُلقي بها إلى الحاوية، ويُؤجّر الغرفة لمجنونٍ آخَر؟ اللّعين لا يكفّ عن مجيئه في اللّيل إلى هنا وهو يصرخ: لم تدفعْ أجرة الغرفة منذ شهرَين يا دكتورا! إنّه وَقِح؛ يقف على

باب غرفتي عاقِدًا ذراعه حول خصره، ومشيرًا بأصابع يده الأخرى أمام نزلاء المهجع باحتِقار: ادفعْ ما عليك يا دكتورا! هل رأيتِ وقاحةً أكثر من ذلك؟! أسكِتي هذا البدين الجُراضم وادفعي له الأجرة». «حاضر». «شيءٌ آخرُ أخير؟». «عيوني». «أطعِمي مبروكة».

كانت جدران مهجعه بيضاء، خاليةً من أيّ شيء، باستثناء ساعةٍ سوداء كبيرة في منتصف أحد هذه الجدران، كانتْ تدقّ على رأسِ السّاعة، وكان لا يسمعها إلاّ إذا انتصفَ اللّيل حين تدقّ اثنتي عشرة دقّة، صبر علها ليلتَين، وفي منتصف اللّيلة الثالثة قام إليها وقلبُها لا يزال يدقّ، فأخرجَ أحشاءَها وأعادَها كما كانت، لكنْ بدون عقارب!

طلب من الطّبيب دفترًا، سأله: «هل ستكتب؟». ردّ: «نعم... وفُرشاة». «هل سترسم؟». نعم. وكتاب الطّاعون». «هل ستقرأ؟». «نعم» ورفعَ نظره إليه وسأله: «هل القراءة والكتابة والرّسم دليلُ صحّة أم مرض أيّها الطّبيبُ الذّكيّ؟». قال لمساعده منفردَين: «أعطِه ما يريد، وراقبْه».

أدار سريره ليصبح حرفُه الأطول متوازِيًا مع الحائط، ودفعه إليه حتّى ألصَقه به، وقفز بالفرشاة على

السّرير، وراحَ يرسم، جلسَ المرضى الآخرون يُراقِبونه مُبتهجين، كانتْ عيونهم مُعلّقة به طَوال الوقت، وهو يمرّر فرشاته على البياض، بعدَ ساعتَين نزل عن السّرير، ووضع فرشاته داخل الوعاء، ونظر بانتِشاء إلى لوحته، وسألهم: «ما رأيُكم؟». كانت اللّوحة قد رسمت جسدًا نحيلاً عارِيًا، مُباعِدًا بين ساقَيه اللّتَين كانتا أقربَ إلى عُكّازتين منهما إلى ساقَين، وجذعًا مائلاً يحاول أنْ يحمي نفسه بلفّ ذراعَيه حوله، ورأسًا يتطلّع إلى الخلف بعينٍ مرعوبةٍ، وفمًا مفتوحًا يظهر فيه صَفّان من الأسنان كلّها أنياب، وعنقًا رفيعة كأنّها حبلٌ مَجدول، وكانت هناك أكفّ متوحّشة كثيرة كأنّها قنابل مُتساقطة فوق هذا الرأس ذي العين المرعوبة تمدّ أصابعها الّتي تنتهي بأظافر طويلةٍ كأنّها سكاكين تهمّ بالانِغراز في ذلك الوجه أو تلك العين أو العنق أو الجذع.

اقتربَ أحدُ المرضى من اللّوحة، وتأمّلها طويلاً، قبل يُصفّق بكلتا يدَيه إعجابًا، ثُمّ ينفجر بالضّحك، وهو يقول: «إنّها لوحتي، إنّك تعرفُ ما يدور في عقلي، أنتَ بارعٌ يا صديقي». وضحك نديم بدوره، وأصابه شيءٌ من الفخر، ونظر إلى أولئك الّذين يتقاسمون معه المهجع، كانوا ستّة، وهتفَ بهم: «لماذا لا نلهو قليلاً،

لماذا لا نستمتع؟ هيّا يا رفاق... أريدكم أنْ تملؤوا كلّ هذه الجدران بالرّسومات».

لم يكنْ أحدٌ من العاملين في المستشفى يدري لماذا لم يردعهم الطّبيب المُشرِف على المهجع عن هذا العبث، وحينَ تدخّل مدير المستشفى، قال له: «هؤلاء مرضاي، وأنا المسؤول عنهم، وأنتَ تعرفُ أكثرَ منّي أنّ العلاج بالرّسم ممكن».

بعدَ أسبوع كانت هناك أكثر من عشر لوحاتٍ كبيرةٍ مرسومة على الجدران الأربعة، وتحوّل المهجع إلى معرضٍ فنّيّ سورياليّ. لقد رسموا أجسادًا تخرج من نفسِها لتشكّل سربًا من الأجساد الصّغيرة الّتي تُشبه الأغربة، وجماجم لها أفواه من الأعلى، وأيادي لأجسادٍ أخرى تمتدّ إلى أعناقها محاولةً خنق نفسِها، وبعضُ الأجساد تجلسُ على أعناقها وحوش... رسومات عديدة، لكنّ الّذي استوقفَ نديم، كما استوقفَ الطّبيب المسؤول لوحتان، واحدة عمدَ رسّامُها إلى جعل الموضع الّذي فيه القلبُ فارِغًا، ورسمةٌ أخرى شبيهة بالأولى، كان جسد الشّخص المرسوم فيها كلّه مُلطّخًا بالسّواد إلاّ موضع القلبَ فقد كانَ أخضر، يُشبه نبتةً قادمةً من اللّيل، شرايينُها جذور مورقة. وسأل الطّبيبُ المسؤولُ (نديم) وهما يقفان عند الأخيرة: «ومَنْ

صاحبُ هذه؟». فردّ: «أنا».

(16)
عقلُه كُتُب تتحرّك على الأرض!

وسأله الطّبيب بعد أنْ عرفَ قصّته: «كيفَ انتهى بك الأمر إلى هنا؟». فردّ وهو يبتسم بسخرية: «مثلما انتهى بك». تجاهل رَدّه، ولوى عنان الكلام إلى جهةٍ أخرى: «أعني كنتَ الأوّل في الثانويّة على مُستوى الدّولة، وتخرّجتَ بمعدّل عالٍ في الطّبّ، وكنتَ أمهر من أستاذك في التّشريح، وعملتَ أنجح العمليّات في مُستشفى القلب... ثُمّ تنام في غرفةٍ مع ضفدع؟! أنتَ لستَ مجنونًا أليسَ كذلك؟». «أنتَ كيفَ تراني؟». «تتصنّع الجنون!». «إذًا لماذا أنا هنا؟ لماذا لا تُخرجني من هذه المهزلة؟».

خرجَ من مهجعه، طافَ المهاجع الأخرى، إنّها سبعةٌ، كان اثنان منها في طابقه مُغلَقين، هما السّابع والثّامن، حاول أنْ يفتح الباب المُؤدّي إليهما ولكنّه أخفق. خطّط في اللّيلة التّالية لاقتحامهما، ففكّ أحد أذرع السّرير الّذي ينام عليه، ومشى في الرّواق المُعتِم، إلى أنْ صار في مواجهة البابَين اللّذَين يُؤدّيان إليهما، اختار المهجع الّذي عن يمينه، وهتف: «أصحاب اليمين». خلع الباب بالذّراع الحديدية الّتي معه بسهولة، ودخل، كان المهجع مُعتِمًا وبارِدًا، وتفوح منه

روائح غريبة، قدّر أنّها بسبب العفن أو الرّطوبة وقلّة تعرّض المكان للشّمس، لكنّه عندما خطا أوّل خطوتَين، شَمّ رائحةً يعرفها تمامًا، إنّها رائحة الجثث البشريّة، فكّر: «هل كانوا يُشرّحون الأجسادَ هنا؟! هل هذا مصحّ أم مُستشفى؟!». طردَ السّؤالَين، وأراد أنْ يخطو خُطوةً ثالثة قبل أنْ يتراجع ويُفكّر بإدارة زر الضّوء لكي يُشاهد المهجع تحت النّور، كان لا يزال بينه وبين قابس الكهرباء خطوة، لفّ جذعه قليلاً دون أنْ يبرح مكانه، ومدّ ذراعه إلى القابس، وما كاد يضع يده عليه حتّى أحسّ بأنّ يدًا باردة - هي يدُ جُثّة يعرف ذلك كما لو كان يرى – تقبض على كفّه وتعتصرها، ومع ذلك أتمّ الضّغط على القابس، ليغمر النّورُ المهجعَ بأكمله، وينكشف عن مناظر مُرعبة، كانت الأسرّة الاثنَي عشر الّتي في المهجع يتمدّد فوقَها الموتى، وقد سُجّيت أجسادُهم على طول الأسرّة، وأيديهم إلى جوانبهم مُسدلة، ورؤوسهم تستقرّ على المخدّات بهدوء كأنّهم نيامٌ يحلمون، وخفق قلبُه بشدّة، ثُمّ تراءى له من بين هذا الهدوء أنّ أحدهم تحرّك، ونهضَ بجذعه، وراح يتكلّم، وانخلع قلبُه، ثُمّ هتف: «أعرفُ أنّ هذا غير حقيقيّ، إنّها هلوساتٌ بسبب العقاقير الّتي يُعطونها لنا في هذا المصحّ اللّعين». نفضَ رأسه لكي يتخلّص من المشهد، لكنّه رأى أحدهم قفز في لحظةٍ فوق السّرير،

واستوى واقِفًا وراح يدور حول نفسِه، وهذه المرّة لم يحتمل، فتراجع إلى الوراء، وهتفَ في سِرّه: «أنا طبيب، لا أؤمن بالأوهام... لا وجود لهذه الكتلة من الوهم إلاّ في عقلي... ربّما يحتاج عقلي إلى جراحة لإزالة هذا الورم المُتضخّم منه». ونَقرَرأسَه باتّجاه الزّاوية اليُسرى البعيدة كما ينقر العصفور نُغبة الماء، رأى مشهدًا جعلَ تُرقوتَه تعلو وتهبط بسرعة، ولم يستطعْ أنْ يبلعَ رِيقَه من الهلع؛ كان هناك حوضُ ماءٍ زُجاجيٍّ كبير، وطفلٌ تدفعُه أيدٍ غيرُ مرئيّةٍ إلى أسفل الحوض تُحاول إغراقَه، وراح هو يُحرّك يدَيه ورجلَيه في الهواء كأنّه هو الّذي يغرق، وشعرَ أنّ هواء الغرفة قد تلاشَى فجأةً، وأنّه يختنق، وأنّه يبلع ماءً كثيرًا، وسمع صوتَ الماء في تلك البركة في ذلك الزّمن السّحيق؛ الصّوت ذاتَه، وجاهدَ أنْ يصرخ، وانحبستِ الصّرخة في صدره، وشدّ على رِئتَيه كثيرًا قبل أنْ يُخرجها كأنّها بركانٌ انفجرَ بعدَ طول احتِباس، وارتجّتْ جَنَباتُ المهجع لصرخته، وتراجعَ إلى الوراء على قدمَين راجِفتَين، حتّى إذا صار رأسُه إلى جانب القابس الكهربائيّ، ضغط بإصبعه المُرتعشة عليه فانطفأ النّور، وتلاشت الجثث، وأعتمَ المكان، ووجدَ في ذلك راحة، ثُمّ هتف في أعماقه: «لن تهزمني هذه الهلوسات». وصمت وهو لا يزال جامِدًا مكانه، ثُمّ أردف: «ولن

توقفني عن اكتشاف المكان». وخطا لتفقّد المهجع، ومشى وهو يُحدّث نفسَه: «إنّني أرى في الظّلام بشكلٍ أوضح». كانت الأسرّة فارغة تمامًا، مُغطاة بالملاءات البيضاء، ولها رائحة العطن الّذي شَمّه أوّل ما دخل إلى هنا، ليس هناك ما يبعثُ على الرّيبة، وراحَ الآن يتبختر، وهو ينفضُ ساقَيه في الفراغ، عاقِدًا ذراعَيه خلفَ ظهره، ويترنّم بأغنية قديمة، حتّى إذا وصل إلى نهاية المهجع الفسيح، خُيّل إليه أنّه سمع صوتًا قادِمًا من تحت السّرير الأخير، ضحك ضحكةً خفيفةً وهتف: «لا تلعبْ معي يا دكتور». ولكنّ الصّوت خمد للحظات، ثُمّ عاد، إنّه ليس صوتًا واحِدًا، إنّهما اثنان: «هل هما جُثّتان تُحاولان إخافتي؟!». ردّد بتحدٍّ: «لم تُخِفني الجُثث وأنا في أوّل العشرين من عمري أيّام الجامعة، أفتخيفني الآن؟!». وركل الهواء بقدمه، ولوّح في الفراغ بقبضتَيه، وهدأ الصّوت، حتّى إذا أراد أنْ يُدير ظهره ليعود، سمع الصّوتَ من جديد، فتوقّف هذه المرة بهدوء، ضابِطًا أعصابَه، ثُمّ مُحدّقًا في الظّلام إلى هذا السّرير الّذي يُصدِر هذه الأصوات، وعلى بعض النّور الشّحيح القّادم من النوافذ تبعثُه بعضُ الأعمدة المركوزة في حديقة المصحّ شاهدَ سطح السّرير خالِيًا تمامًا، ونظيفًا ومُرتّبًا، ومُعدًّا لمريضٍ مُحتملٍ في المُستقبل. وإذ ذاك سأل نفسه: «ماذا لو كان مريضًا من

الماضي؟». وفكّر أكثر: «ماذا لو مات هنا... ماذا لو ماتا هنا؟ ماذا لو كان هذا الصّوت هو لروحَيهما؟» وسأل بعدَ لحظةِ صمت: «هل هذا ممكن؟». وأجاب نفسَه على الفور: «ولِمَ لا؟». وحلّ ذراعَيه من خلفِ ظهره، واقتربَ خطوةً من السّرير، فتناهَى إلى أذنه الصّوتان من جديدٍ، وكانا صوتَين بهيجَين، يضحكان ويُغنّيان، وأرادَ أنْ يصرخ بأنّ أحدهما هو صوتُ أبيه، وأنّ الآخَر - لولا أنّه حَيٌّ ويُفكّر بهذا الأمر الآن - يعودُ له، لكنّه كتم أنفاسَه ليسمعهما يُغنّيان، وأحسّ أنّ أحدهما دَعاه إلى مشاركتهما، وتلفّتَ حولَه: «أنا؟ هل أنا المعنيّ بهذه الدّعوة اللّطيفة؟». وجاءه الرّدّ ناعِمًا: «نعم، يا أبا نواس، ألا تشربُ معي مثلما كُنّا نشربُ في الدُّنيا». «بلى. ولكن!». «من دونها يا بُنيّ. غَنّنا». وراحتْ شفتاه تُنشِدان دون إرادته:

رُدّا عليّ الكأسَ، إنّكما

لا تَدْريان الكأسَ ما تُجْدي

وتمايل طَروبًا، وشعرَ أنّ كأسًا بلّوريّة، قد وقعتْ في يده، يتساقطُ الحباب عن جانبَيها، وهو يعبّ منها مُلتذًّا، وراح صوتُ أبيه يُكمل:

لا تَعْذُلا في الرّاحِ، إنّكما

في غفلةٍ عن كُنْهِ ما تُسدي

وسمعَ صوتًا آخَر رفيعًا، يفوح بالنّشوة يختم الإيقاع:

إن كنتُما لا تشربـانِ معـي

خوْفَ العِقابِ شرِبْتُها وحْدي

ودارتْ به الأرض، وسقط سقوطًا حُرًّا هذه المرة.

قال له مدير المستشفى بحضور طبيبه المُشرِف عليه: «ما الّذي أدخلك إلى المهجع السّابع؟ كنتُ سأدعو الشّرطة لترفع البصمات عن الباب، لقد كسرتَه يا نديم. ولكنّني لن أدعوهم، سنحلّ الأمر هنا دون تدخّل، أنتَ زميل، أعني كنتَ زميلاً سابِقًا، ولا أريدُ للأمور أنْ تتفاقم على نحو سيّئ. والآن؛ لماذا كسرتَ باب المهجع، ودخلتَ إليه؟ عَمّ كنتَ تبحث؟». فأجاب: «عن فكرةٍ ضيّعتُها في البِئر». «لا تتغابَ يا دكتور، هل تريدُ أنْ تحلّ المسألة أم تُعقدّها؟!». «يا صديقي أنا لم أدخل أيّ مهجع غير مهجعي، ولم أكسِرْ أيّ بابٍ. عن أيّ شيءٍ تتحدّث؟». قال طبيبُه المُشرِف: «أنا أصدّقك». ونظر إلى المدير: «إنّه لم يفعلها». وجحظتْ عينا المدير، وأرادَ أنْ يصرخ، ولكنّ الطّبيب قام واقتربَ منه: «دَعِ الأمر لي». فردّ بهمسٍ غاضب: «هل أنتَ مجنون؟». «على نحوٍ ما، الحلّ ليسَ في اعترافه وهو في وعيه؛

بل في اعترافه في لا وعيه». «ماذا تعني؟». «اطلبْ من أحدهم أنْ يُعيده إلى مهجعه، وسأشرح لك». خرجَ نديم وهو يبتسم، قال لهما: «لن تهزماني؛ لم تهزمْني كلّيّة الطّبّ بكلّ أساتذتها ومختبراتها وسنواتها العِجاف، كي يهزمني مصحّ بائس يعيشُ على ما انقرض مِمّا يُدعى علمًا». بعدَ أنْ خرجَ، جلسَ الطّبيب المُشرِف إلى المدير قائلاً: «هل سنُعالج مرضانا بالاعتراف القسريّ؟ هل هذه وسيلةٌ ناجعة؟! أنا أعرفُ مثلما تعرف أنتَ مثلما يعرف هو، أنّه فعلها. نحن نريدُ تفسير الدّافع فقط من أجل أنْ نصف له العِلاج المُناسب. ولا يُمكن أنْ نعرفه من مريضٍ مثله بالإكراه». ردّ المدير مُتأفّفًا: «وما الحل برأيك؟». «الاعتراف على الورق، إنّه طلبَ دفترًا وأقلامًا، أستطيع أنْ أقول من مُعايشتي له: إنّ عقله يضمّ مكتبة الإسكندر المقدوني الكُبرى، ومكتبة بغداد، ومكتبات بطليموس كلّها، ومكتبة الكونغرس الأمريكيّ... عقلُه كُتُبٌ تتحرّك على الأرض، دَعه يكتب، ونحن نقرأ ما يكتب، وعلى ضوء هذه الاعترافات الّتي يُدوّنها عقله اللاواعي، سنفهم، ولربّما إذا أردْنا أنْ نحلم أكثر فيُمكن أنْ نبني عليها نظريّات في علم النّفس كما كان يفعل (فرويد) مع مرضاه، أو نُقدّم فيها براءات اختراع إذا كانت الدّولة تهتمّ بذلك».

قال له طبيبُه المُشرِف: «اكتبْ يا دكتور؛ أليستِ الكتابةُ شفاء؟!». ردّ عليه: «تريدُني أنْ أعترف؟». «هل يُريحُكَ هذا؟». «رُبّما لا؛ إلا إذا أخبرْتَني مَنْ فَعَلَها قبلي؟». «ما هي؟». «الاعتِرافات». «وما أدراني؟». «فَلِمَ تطلبُ منّي ما لا تعلم؟ على أيّة حالٍ لا ينفعُ مع الجهل عذرٌ، أنا أقول لك؛ فَعَلَها القِدّيس أوغستينوس، وفَعَلَها جان جاك رُوسّو».

كتب في الدّفتر: «اليوم هو التّاسع من أيّار، لا زلتُ أتخيّلُ أشياءَ لا وجودَ لها، وأسمع أصوات الموتى، وأنتمي لعالَمٍ ليس لي. أعرفُ أنّ عليّ أنْ أشتري دواءً، لكنّ الأدوية دائِمًا ما تزيدُ الأمر سوءًا، علاوةً على أنّني لا أملك المال».

«اليوم هو الرّابع عشر من أيّار... نقّتِ الضّفدع اليوم عشر مرّات، إنّها تقول: (لقد مللتُ منك، أنتَ لا تستمع إليّ، لقد نصحتُكَ مرارًا، أنتم أيّها البشر لا تُحبّون النّاصحين)، أفكّر في أنْ أرميها من النّافذة إلى الشّارع، ولكنّني أخاف أنْ تدوسَها أقدام المارّة. العابرون لا تعرفُ قلوبَهم طريقًا للرّحمة!!».

«اليوم هو السّابع عشر من أيّار، قال لي هارون، لا أدري إنْ كان هذا اسمه، أو اسم فندقه فحسب، إنّ

فتاةً جميلةً قد سألتْ عنك. ورمقني بعينَين ماكرتَين: هل هي مومس؟ لا أدري عمّ يتحدّث. أنا لم أعرفْ في حياتي غير هيام، ولم أحبّ سواها. إنّها بالتّأكيد تنعم بحياةٍ هادِئة في نيويورك مع زوجها الأحمق. لكنْ لا أدري إنْ كانت أنجبتْ أولادًا أم لا؟ هل تُحدث معرفتي بذلك فرقًا؟ كثيرٌ من الأمور الّتي نظنّها عظيمةً – لا يستقيمُ دَوَرانُ الأرض إلاّ بها – هي تافهةٌ يستوي العِلمُ فيها مع الجهل بها».

«اليوم هو العشرون من أيّار، رأيتُ في الشّارع أطفالاً يُشبهون أطفال القرية يوم البِركة، يُمسِكون قِطّة من ذيلها ويُلوّحون بها في الهواء، ثُمّ يُغرقونها في برميل ماء، هل الأطفال يتشابهون؟! هل تلدهم أمّهاتهم دائِمًا على هذا النّحو؟!».

«اليوم هو الأوّل من حزيران إنّها ذكرى لِقائنا الأوّل في بهو التّشريح، كانت حُلُمًا زائفًا، هكذا هو الحبّ إذا قام على النّظر إلى القلب دون العقل».

«اليوم هو الرّابع من حزيران، الموتُ رفيقٌ مُلاصِق، أراه في الطّعام، والشّراب، والهواء، وكلّ شيءٍ، أراه في وجوه الأطبّاء الشّمعيّة، وفي عيون المرضى، أراهم جثثًا مُمدّدة، على أقدامهم أرقامُ موتهم،

وأكفانهم إلى جانبهم، والحُفر العميقة تستعدّ لاستقبالهم، هل يكون الموتُ واضِحًا إلى هذا الحدّ؟!».

«اليوم هو السّادس من حزيران، لا زلتُ أعاني صُداعًا زارني من عشرةِ أيّام، يقولون إنّه بسبب قلّة النّوم، إنّني لم أنم من سنواتٍ سحيقة، ولم يكنْ يُصيبني صُداعٌ بهذه الحِدّة، ربّما لا أحدَ يعرفُ أنّ السّبب وراء ذلك هو حوارات الفلاسفة والشّعراء في عقلي، لقد سمعتُ الغزالي وابن رشد يتهارَشان، كانا يقضِيان في ذلك شهورًا طويلة، وأنا رأسي لا تحتمل كلّ هذا الكمّ من السّخونة، ولقد رأيتُ ابن عبّاس يُضيّق الطّريق على أبي نواس، وهو يقول له: هلكت، فيردّ عليه أبو نواس: ما هلك إلاّ مَن قال، ويتجادلان، وينضمّ إليهما النّظّام فيُصدّع عقولهما وعقلي معهما بحواراته. المعرفة بُؤس».

«اليوم هو السّابع من حزيران، مستشفيات الأمراض العقليّة مكانٌ ملائمٌ للانتِحار، إنّها أشدّ الأماكن هدوءًا وصفاءً للتّوصّل إلى فكرةٍ عميقةٍ ورائعة مثلها. إلى أينَ يذهبُ المُنتحِرون؟ إلى اللّه؟ إنّ اللّه يفرحُ بِمَنْ سارَع إلى لِقائه».

«اليوم هو... لا أدري على وجه الدّقّة، إنّه يومٌ

آخَر... الأيّام تتشابَه، لا فرقَ بينها إلاّ بمقدار ما نُحدِث نحن من فرقٍ فيها بسلوكنا، بأفكارنا، بحركتنا، بزاوية النّظر إلى الأمور الصّغيرة الّتي تبدو تافهةً فيها».

قال الطّبيبُ للمدير وهو يمدّ إليه الأوراق: «حصلتُ عليها منه لأقرأها». بعدَ يومَين، قال المدير: «أظنّ أنّنا يجب أنْ نجرّب معه على مدار أسبوعَين عقار L. S. D». جحظث عينا نديم عندما رأى الحبّة الزّهريّة لهذا العُقار تمتدّ من يد المُمرّضة إليه: «أنا لا أعاني هلوسات أيّها البائِسون؟ مَن الطّبيب المجنون الّذي وصفَ لي هذا الدّواء؟ أنا أعاني من وطأة المعرفة أيّها الجَهَلة، هل لديكم دواءٌ لهذا؟!».

في مساء ذلك اليوم كان سريرُه فارِغًا. حتّى ظِلالُه رحلتْ معه!!

(17)

مَنْ أكثرَ السُّؤالَ حُرِم!

كان الوقتُ ليلاً، الشّوارع خاليةٌ، والأضواء خجلى، والبيوت القليلةُ هامدة، والرّيح ساكنة، وكلّ شيءٍ مُغرٍ على نحوٍ ما. مشى حتّى كلّتْ قدماه، أعياه أنْ يجد حافلةً يستقلّها إلى عَمّان. الجغرافيا قاتلٌ آخَر. لولا مبروكة وعِظام أبيه والرّقوق لما خاطرَ بكلّ هذا. نحن نموتُ في سبيل ما نُحبّ. السّبيل بعيدة. الغاية أبعد. والدّروب مُقفِرة. والقَفْر أعشب في الخيال. وأنا؟ ماضٍ إلى أنْ يهدأ هذا، وهَزّ رأسَه هَزّتَين، وتابعَ السّير.

كان مصباح الفجر محمولاً بيد اللّيل المُرتعشة حين دخل الفندق، رأى رأس هارون الضّخمة تستقرّ على سطح مكتبه وهو يغطّ في نومٍ عميق، نبّهتْه خُطُواتُه. استفاق، نظر بعينَين ناعسِتَين إليه، وهبّ واقِفًا: «دكتور نديم.. أهلاً بعودتك!». «هل تريدُ أجرة الغرفة، إنّكَ لا تستيقظُ إلاّ إذا قرصكَ المال؟». «لقد دفعتْ صاحبتُكَ الجميلة أجرة الغرفة لسنةٍ. أنا فقط أرحّب بك. غرفتك بانتظارك، نظيفة، وهادِئة، ومشتاقةٌ مثلك».

رَنّ هاتفها قبل أنْ تُشرق الشّمس: «لقد عاد».

في اللّيل، التقتْه على القهوة، قالتْ له، وهي تدفعُ له بتذكرتَين على الطّاولة: «سنسافرُ معًا». رمقها بعينَين شاكّتَين: «إلى أين؟». «إلى تركيا». «لن أسافرَ مع أحدٍ». «الخيار لك، لن ينتظروا الصّباح قبل أنْ يُلقُوا عليكَ القبض؛ فرارُ مجنونٍ من المستشفى». استسلم. نظرَ إليها مُغمِضًا إحدى عينَيه على رأسِه المائل: «متى السّفر؟». «اللّيلة».

كانتْ مآذن إسطنبول أوّل ما رآه من الجوّ. طَوال الرّحلة كان يضع الحقيبة ذات الحراشف الأفعوانيّة في حضنه، ويعقدُ عليها ذراعَيه، كانت الحقيبة تضمّ كذلك الدّفتر الجلديّ، وسأل ليندا أكثر من ثلاثين مرّة في الرّحلة: «هل تركتِ طعامًا كافِيًا لمبروكة؟».

استأجرا شُقّةً في منطقة (الفاتح)، نامَ فيها ليلةً واحدةً، وفي الصّباح، لم تجدْه!

قال لسليم الّذي رتّب له الأمور: «إنّني لن أغامر برحلةٍ ما لم تكنْ مضمونة. أريدُ أنْ أبدأ حياةً جديدةً. لقد تركتُ تاريخي ورائي. وأحرقتُ كلّ مراكبي. وليس لي من أملٍ في العودة إلاّ محمولاً على الأكتاف، أو مجرورًا في السّلاسل». ردّ عليه: «ستصل إلى اليونان،

عبر أفخر السّفن، وستحصل على اللّجوء خلال ساعاتٍ، ويُمكنك الحصول على الإقامة بسهولة». صمت، قبل أنْ يضع يده على كتفه ويغمزه غمزةً ذات معنى: «ويُمكنك أنْ تتزوّج حسناء شقراء».

استقلاّ سيّارةً عبرتْ بهم شوارع لا يعرفها، وخرجتْ بعدَ ساعةٍ من العُمران، وراحتْ تشقّ طريقَها في الخَلاء. فتحَ الحقيبة الّتي لا يزال يحتضنها، ونظر فيها، تأكّد أنّ الدّفتر سليمٌ، وأنّ العِظام في مكانها، ومرّر بأصابع عازف البيانو على جبهة جمجمة أبيه: «سوفَ نرحل من هنا يا أبي. نستحقّ عالَمًا أفضل». توقّفتِ الحافلة فجأةً، قال له سليم: «هيّا». نظر حولَه: «نحن في الشّارع!!». أشار إلى غابةٍ من الأشجار العالية عن يمين الشّارع: «سنعبر هذه الغابة، ينتظرنا (قدير) على الجهة الأخرى من هذه الغابة، لديه سفينةٌ ضخمة، ستأخذكم من هناك إلى اليونان، الأمور كلّها مُرتّبة». «لقد دفعتُ لك خمسة آلاف دولار. هل أنتَ تخدعني؟!». «أنتَ رجلٌ كثيرُ الشّكّ. هل تريدُ أنْ تتصرّف كالأطفال. هيّا، لا وقتَ لدينا». مَشَيا عبر الغابة، كانت الأشجار قد أخفتْ عنهما العالَم، لا شوارع، لا بشر، لا حياة، ولا حركة، وحدها أصواتُ الطّيور الّتي كانتْ تخفق بأجنحتها في الأعالي هي الّتي كانتْ تُسمَع

في هذا الخَلاء المُتشابك. وخشخشة أقدامهما التي كانتْ تدوس العُشب أو الأغصان الصّغيرة المُتيبّسة على الأرض. مَشَيا أكثر من ساعة، قال له: «هل سنبقى نمشي النّهار بِطُوله؟». «لا تكنْ مُدلّلاً. نحتاج إلى ثلاث ساعاتٍ أخرى، وسنصل إلى غايتنا».

«هناك... ها نحن قد وصلْنا...». استقبلَهم (قدير) وهو يتلفّتُ خلفَهما خوفًا من أنْ يكونَ قد تبعهما أحدٌ. «دكتور نديم، أحدُ الّذين ستسعدُ بصُحبتهم» قال سليم لقدير. وقرّب فمه من أُذنه، وهمس: «كُنْ حَذِرًا». ودسّ في جيبه عددًا من الأوراق النّقديّة. قال له قدير: «اتبعْني». تبعه وحيدًا، كان سليم من خلفِهما يختفي بين أوراق الأشجار وسِيقانها.

مشى مُتوجّسًا خلفَ قدير، لم يتكلّم بكلمةٍ واحدة، ظَلاّ يعبران دروبًا ضيّقة متعرّجة بين الأشجار، حتّى وَصلا إلى مجموعةٍ من البشر ينتظرون في أكواخٍ خشبيّة قديمة، كانتْ سقوفُها من القشّ، وبعضُها بلا سقوف. «يُمكنك أنْ تنضمّ إلى هؤلاء المُهاجرين، إنّهم حالِمون مثلك، ولن يطول الزّمن حتّى تُحقّق معهم أحلامَك». سأله مستفسِرًا وهو يشير إلى عددٍ منهم: «هل كلّ هؤلاء مُهاجِرون مثلي؟». «بالطّبع! هل تظنّ نفسكَ وحدك؟». «لم يقلْ لي سليم ذلك!». لا يهمّ ما

قالَه سليم، الآن لن ترى وجه سليم، أنا المسؤول هنا، وعليكَ أنْ تنتظر معهم حتى تأتي السّفينة، ونغادر كلّنا». تأفّف، أرادَ أنْ يقول شيئًا، لكنّه لم يدرِ ماذا يُمكن أنْ يقول، سأله: «كم سنبقى هنا؟». «الصّبر جميل يا دكتور».

كانوا ما يقرب من ستّين مُهاجِرًا من أكثر من عشر جنسيّات عربيّة وأفريقيّة. ينامون في الأكواخ، وتأتيهم وجبة واحدة. بعدَ أسبوع بدؤوا بالتّذمّر: «لقد دفعْنا كلّ ما استطعْنا تجميعه من أجل أنْ نجدَ هذه الفرصة؟ هل سيطول الأمر؟». قال أحدهم. ردّ قدير: «ربّما يوم آخر، أو أسبوع، أو شهر. عليكم أنْ تصبروا». «لن نصبر» قال ثانٍ. ردّ: «ليس لديكم خِيار». «خدعتمونا إذًا؟!». «مَنْ نطقَ بالخديعة؟ نحن ننتظر، هل تظنّون أنّ تدبّر أمر الهجرة سهلٌ؟».

بدأتْ أجسادُهم تشحب، لم يكونوا يشبعون، كان الطّعام يأتي به أحدهم محمولاً في كيسٍ على ظهره، أرزّ أحيانًا، وبعض الخبز أحيانًا أخرى، وقليل من الدّجاج. في اليوم العاشر، كان ثلاثةٌ من الأفارقة السّود قد قبضَ أحدهم على عنق الشّخص الّذي يأتي بالطّعام، وأحاطَ به من الخلف اثنان، وصرخ: «لن ننتظر أكثر، إمّا أنْ تقولوا لنا ما يحدث، أو ...». وصمت. ردّ عليه

قدير: «أو ماذا؟ تأخذونه رهينة، خذوه. ماذا تستفيدون؟ ليس بيدي ولا بأيديكم أيّ أمر، كلّ ما علينا أنْ نفعله معًا هو الانتِظار». وأدار ظهره لهم، ومشى بهدوء إلى كوخِه كأنّ الأمر لا يعنيه. علا صياحٌ وهِياجٌ بين المُهاجِرين، عادَ قدير وهو يحمل بُندقيّة، أطلقَ رصاصةً في الهواء، فانكتم صياح المُهاجرين، شدّ نديم بذراعَيه على الحقيبة، خاف أنْ تُصيب رصاصةٌ طائشةٌ جمجمةَ أبيه، فيموت من جديد. بعدَ فترةِ صمتٍ هاجَ الشّخص الّذي يلفّ ذراعه الكبيرة على عنق صاحب الطّعام، شدّ عليها حتّى كادَ يكسرها، صرخَ قدير، وهو يُصوّب بندقيّته نحوه: «اترُكه، وإلاّ قنصتُك». هاجَ أكثر، كان وجه التّركيّ الّذي يجلب الطّعام قد بدأ يتحوّل من اللّون الأحمر إلى الأزرق، كان يختنق، لم ينتظر قدير هذه المرّة أكثر، صوّب فوهة البندقيّة إلى رأس الإفريقيّ الأسود، وهتف بصوتٍ هادِئ وهو ينظر من خلال الشُّعيرة: «أنا مُحارِب في الجيش التّركيّ، سأعدّ إلى الثّلاثة، إنّه التّحذير الأخير، إنْ لم تتركه، سأبعثُ بكَ إلى جهنّم، يجب أنْ تفهم هذا. أنا مَنْ يضع قواعد اللّعبة هنا». ظلّتِ الذّراع الغليظة شادّةً على تلك العنق. هتفَ قدير: «واحد... اثنان... ثلاثة». دوّى صوتُ الرّصاصة عند العدّ الثالث، سقطا معًا، أمّا الإفريقيّ ففي بركة دمائه، وأمّا التّركيّ فكان

يشهق بصوتٍ عالٍ وهو يُحاول أنْ يستعيد الهواء الّذي حُبِسَ عنه. صرخَ قدير: «أنتم مجانين. أنتم لا تفهمون كم أنا جادّ. إذا قتلتُم مَنْ يأتي لنا بالطّعام، فسنموت من الجوع...» التقطَ أنفاسَه، وتابع: «والآن، إلى أكواخكم، وانتظِروا السّاعة المناسبة لنرحل من هنا، عندما تحين، ستكونون بالطّبع أوّل مَنْ يعرف». ثُمّ أشار لصاحبَي القتيل: «ادفناه على دينكم. في المساء سنصلّي جميعًا من أجل روحه».

كان موتُه كافِيًا، لكي ينتظر الجميع دون أنْ يتذمّروا. وكان قدير لا يسير بينهم إلاّ والبندقيّة مركوزةً على كتفه، وكان يُعطيهم دروسًا في الصّبر، ويقصّ عليهم حكايا الصّابرين من الأنبياء والأخيار، وقال: «هل عجزتم أنْ تصبروا مثلهم؟! إنّ النّهاية الجميلة بانتِظاركم، فلماذا تتصرّفون كالأطفال؟!». ثُمّ يُلقي على أسماعهم موعظته الأخيرة ناسِبًا إيّاها إلى جلال الدّين الرّومي: «مَنْ أكثرَ السُّؤالَ حُرِمٍ».

كانت حياتُهم تتشابه، وكذلك قصصهم؛ باحِثون عن حياةٍ فُضلى في جغرافيا تحترمُ كرامتهم المهدورة، وحدها قِصّة نديم تختلف، سلّى نفسَه طَوال أيّام الانتِظار بقراءة الكتب من عقله، كان في لَحَظات الصّفاء في اللّيل، يستخرجها بهدوء من رفوفٍ رتّبها

في دِماغه، يستلُّها من تلك الرّفوف، ويبدأ بالقراءة، كان يرى حروفَها في اللّيل، وعندما كان يُغمِض عينَيه كان يرى بوضوحٍ أكثر، وجدَ في كتب الفلسفة عَزاءً، وعندما كان يتعبُ من الكتب كان يُنشِدُ بصوتٍ شجيّ يطربُ له قدير، ويُنصِت له باهتِمام:

غَنِّنا؛ فالدُّجى شديدُ السّوادِ

وقطيعُ الرّقيقِ من غيرِ حادِ

وكان قدير يستزيدُه، والتفّ حولَه كلّ المهاجرين، يُوقدِون النّار، ويدورون حولَها كما كانوا يفعلون في بِلادهم، يستجلبون السّحر والحظّ، ويحاولون أنْ يضحكوا للقدر لعلّ القدر يضحك لهم، وكان نديم يُغنّي أبيات ابن زيدون على إيقاع رقصاتهم:

بِنْتُمْ وَبِنّا فما ابْتلّتْ جَوانحُنا

شوقًا إليكم، ولا جَفَّتْ مَآقِينا

ولم يكنْ أحدٌ ليُدركَ تمامًا ما تعني هذه الكلمات العربيّة، ولكنّه كان يسمع بعضَ الشّهقات، وكان يرى بعضَهم يمسح دموعه وهي تسيلُ على خَدّيه!

كان كلّ يومٍ ينظر في الحقيبة، ويتأكّد من عِظام

أبيه، ويطمئنّ عليها، ويعدّها، ويتنهّد بعدَ أنْ يتأكّد من أنّها لم تنقصْ شيئًا، ويردّد: «لماذا حملْتَني معك كلّ هذا العُمر يا أبي؟!».

(18)
قِصصٌ تَمشي

قال لقدير: «الأحلام مصائد». ردّ: «وهؤلاء البشر، الّذين جاؤوا إلى هنا، والأفواج الّتي ستأتي كلّهم لا يكفّون عن الأحلام». «إنّهم يقعون فيها». «هذا هو الفوج الحادي عشر الّذي ينتظر معي، كلّ فوجٍ كُنتُ أبعثُ به إلى البحر من طرفٍ مختلفٍ من الغابةِ، لقد اختلفتِ الأفواج والغابات وتشابهت الغايات». «هل كانوا يقصّون عليكَ حكاياهم؟». «نعم. كلّ شخصٍ منهم كان جرّة حكايا». «هل كانت حكاياهم مُتشابهة؟!». «بعضُها. أكثرها كان طريفًا. إنّهم مُسلّون. لولا الغرابة الّتي في حكاياهم لما استطعْنا أنْ ننتظر كلّ هذه الفترة، أليس كذلك؟». «بلى». أحدهم، زعَمَ أنّه قتَل ـ أُمّه، وأخذَ حُليّها، وباعَه، وجاءَ بثمنها إلى هنا. ربّما أرادَ أنْ يقول إنّه قاتلٌ لكي يُخيف الآخرين أو يحميَ نفسَه، أنا قنّاص. لقد عملتُ في الجيش أكثر من ثلاثين عامًا، أتقنتُ إصابة الأهداف المُتحرّكة قبل أنْ يُولَد بعضُ هؤلاء الحالمين المُتبجّحين، وقبلَ أنْ يروا النّور في هذه الحياة الّتي قذفتْ بهم في النهاية إلى هنا. لم يكنْ بإمكانهم اختيار بدايتهم لكي يختاروا نهايتهم. لا أدري إنْ كانوا حمقى أو مجانين أو

يتظاهرون بذلك. لكنْ يُمكنك بنفسَك أنْ تستمع لهم. حكاياهم تشبُه غيمة مُسافرة تهطل بالماء على كلّ أرضٍ، حتّى إذا وصلتْ إلى ما تريد كانتْ قد أفرغتْ كلّ ما في جوفها من ماء، ثُمّ ماتت من العطش! هل تريدُني أنْ أقصّ عليكَ أنا ما سمعتُه منهم، لقد سمعتُ ألفَ حكاية، ألفَين، لا أدري، إذا حذفتَ المُتشابِه منها، فإنّك ستحصل على خمسمئة أوستّمئة حكاية فريدة على الأقلّ. ماذا قلت؟ اللّيل في أوّله. هل أقصّ عليكَ شيئًا. ماذا؟ لماذا أنتَ صامتٌ هكذا؟ الحكايا زادٌ. الحكايا تُبعد الملل. ألا تشعر بالملل مثلي. لماذا أنتَ نحيلٌ إلى هذا الحدّ؟ ثُمّ لماذا دائمًا ما تحمل هذه الحقيبة الجلديّة ذات الحراشف الأفعوانيّة؟ هل تؤمن أنتَ بالسّحر أيضًا مثل هؤلاء؟ أم أنّكَ تحمل في داخلها كنزًا؟ لا تخفْ؛ لقد فتّشتُها في نومِك. إنّكَ لا تحمل فيها أيّة كنوز من أيّ نوعٍ، لا دولارات أمريكيّة، لا عملات نقديّة، ولا ذهب، ولا فضّة، ولا حتّى خزف تراثيّ، ولا أيّ شيء ذا قيمة، مجرّد كومة من العِظام، وجمجمة مشدوخة الأنف، فارغة العينَين، منزوعة الفكّ السّفليّ. دعْني أصارحك أنني خفتُ، ارتعبتُ عندما رأيتُ تلك الجمجمة، ألقيتُ الحقيبة أوّل ما نظرتُ فيها، وتراجعتُ زاحِفًا على باطن كفّيّ ورجليّ، حتّى خرجتُ من كوخك اللّعين. ألم تُلاحِظ في الصّباح أنّ حقيبتَك

هذه قد فُتِحتْ، وأنّ أحدًا ما قد عبثَ بمحتوياتها؟ ولكن اطمئنّ، لم أسرقْ منها شيئًا. فمن المجنون الّذي سيسرق كومةً من العِظام أو دفترًا جلديًّا فيه أوراق صفراء قديمة كأنّها منزوعةٌ من جلدِ غزال، فيه بعضُ الكتابات والرّسومات الغريبة. لقد رجعتُ في ليلةٍ أخرى بعدَ أنْ هدأ روعي، وفتحتُ الحقيبةَ إيّاها، كنتُ أريدُ أنْ أقرأ ما في الدّفتر. ومع أنّ عربيّتي جيّدة جِدًّا إلاّ أنّني لم أفهم كلّ ما قرأتُه هناك. كنتَ تقول: اليوم هو الثّامن من أيلول، إنّه اليوم العاشر على وقوعنا في هذه المصيدة. إنّنا ننتظر. نُشبه تلك الفِئران الّتي تجري في صندوقٍ صغيرٍ تظنّه كلّ عالَمِها. اليوم هو اليوم العاشر. لا زال قدير يضع البندقيّة على كتفه بعدَ مقتل الرّجل الأسود. إنّه حَذِر. يسير بالطّريقة الّتي كنتُ أسير فيها في مختبر التّشريح، هل كان يعتبرنا جُثثًا متحرّكة؟! اليوم هو اليوم الحادي عشر إنّه يومُ النّسيان. الرّفيقان نَسِيا بسرعة رفيقهما الّذي مات. لا أدري إنْ ترافقَا هنا أو من قبلُ، لكنْ يبدو أنّ النّسيان أنجع الأدوية للشّفاء من الحزن، وإلاّ فكيفَ نُفسّر اندماجهما بعدَ ليلتَين من مقتل صاحبهما في حفلة السّمر ورقصهما حول النّار حتّى داخا، وسقطا من الإعياء؟! اليوم هو... وهكذا قرأتُ كلّ يوميّاتك. لم أجدْ فيها شيئًا ذا بال. أنتَ تبدو لي رجلاً يُسجّل هَذَياناته. هل أنتَ تعاني من مرضٍ ما؟

سليم قال لي إنّك طبيب. إذا كنتَ كذلك فلماذا لم تُعالِجْ نفسَك؟! ولماذا تركتَ أحدَ المُهاجرين هنا يموتُ من لدغةٍ سامّة لأفعى لدغْته أمسِ دون أنْ تحرّك ساكِنًا؟! بل إنّني لمحتُ على وجهك علامات الرّضا، وعلى شفتَيك ابتِسامة التّشفّي وهو يستغيثُ بأيّ أحدٍ من أجل أنْ يُنقذه، أو حتّى يسقيه. هل أنتَ من النّوع الّذي يستمتع برؤية الموت وهو يحلّ في أجساد المُحتَضرين؟ أنتَ مثلي ترى الموت راحةً لكلّ حيّ من هذا اللّهات الأعمى؟ أجبْني يا دكتور. لنعدْ إلى يوميّاتك. لقد قرأتُها كلّها بالمناسبة. كانت إلى حدٍّ ما مثيرة للانتِباه، لكنّ الوصف الأمثل لها أنّها سخيفة أو مُبتذلة، أو هذيان. اعذرني إنْ كنتُ أزعجتُكَ برأيي هذا! يمكنك أنْ تردّ عليّ الرّأي بالرأي إنْ أردتَ. لك أنْ تحتفظ بحقّ الرّدّ في كلّ الأحوال. لكنْ دعْني أُكمل الآن. يوميّاتك الّتي زادتْ عن ستٍّ وثلاثين يوميّة، ولا أدري لماذا لم تكتبْ أمسِ واحدة، أقول لا شيءَ فيها يدعو إلى التّوقّف عنده باستثناء اليوميّة التّاسعة عشرة، هاتِ الدّفتر؛ سأقرؤها لك منه مُباشرة: اليوم هو التّاسع عشر، لقد قادونا إلى شاحنة من تلك الشّاحنات الّتي تُحَمل فيها لحوم الأبقار، إنّها عبارة عن ثلاّجة ضَخمة، تحتفظ بدرجة حرارة عشرين سيليزيّة تحت الصّفر حتّى لا يفسد اللّحم الّذي يُنقَل فيها عبر الحدود

بين الدّول. تردّدْنا في البداية، ولكنّ المُهرّب قال: إنّها فرصتكم الوحيدة، وإنّكم لا تملكون أيّ خِيار. بالطّبع ستُطفِئ الثّلاّجة. وستكونون في داخِلها بأمان، وحينَ نقتربُ من الحدود، لن يشكّ بِنا أحدٌ، السّائق معروفٌ عند شرطة الحدود، وبقليلٍ من المال يُمكن أنْ يسرّعوا في ترحيل الشّاحنة حتّى من دون فتحها، وهكذا تكونون قد عبرتُم الحدود إلى اليونان بسهولة. كنتُ أكثرَ المُتردّدين، قلتُ للمُهرّب: هل ستصعد معنا إلى هذه الشّاحنة؟ أجابني: كلاّ، ستصعدون وحدكم، أنا سأبقى هنا من أجل الفوج القادم الّذي سيأتي، لن يكون هنا أحدٌ ينتظره سِواي. هتفتُ: وأنا سأنتظر معك. لكنّه وجّه بندقيّته الّتي يحملها دائمًا على ظهره إلى وجهي، بالتّحديد إلى جبهتي في المكان الفارغ بين عينَيّ، لقد شعرتُ ببرودة الفوّهة في ذلك المكان بالفعل، وصرخ: اصعدْ معهم وإلاّ فرّغتُ الرّصاصات في رأسِك العفن. فامتثلتُ وأنا أرتجف. سارت بنا الشّاحنة، كنّا تسعةَ عشر مُهاجِرًا، لا أدري إنْ كان هذا هو عدد المُهاجرين جميعًا في ذلك الفوج، أم أنّه لم يصعد معنا بعضُهم. المهمّ سارتْ بنا الشّاحنة في اتّجاه قدّرنا أنّه إلى الشّمال، كانتْ مُعتِمة بالكامل من الدّاخل وباردةً جدًّا. لم نكنْ نرى شيئًا، فقط كنّا نسمع أنفاسَنا، وصوتَ مَضْغِنا للطّعام الّذي كُنّا نحمله زادًا يُعيننا على إبعاد

شبح الجوع القاتل حتّى نصل إلى مرفأ الأمان. ظلّتْ الشّاحنة تسير بهدوء في اتّجاهها الذي قَدّرْناه، حتّى انعطفتْ فجأةً وراحتْ تتقافز، ونتقافز نحن معها في الدّاخل، قدّرْنا أنّها انعطفتْ في طريقٍ ترابيّة، سمعتُ أحدهم يشتم. آخر شتمَ أيضًا بلغةٍ غير عربيّة لكنّني فهمتُها من طريقةِ تلفّظه بها. ظلّت الشّاحنة تتأرجح، وتتمايل وهي تسير بسرعةٍ جنونيّة على طريقٍ ترابيّةٍ ضيّقةٍ فيما يبدو، ولم تُبطِّئ من سرعتها أبدًا، وكانتْ على ما قدّرْنا تهربُ من دوريّة أمنيّة تقومُ بملاحقتها. كان صوتُ تكسّر أغصان الأشجار يصل إلينا نحن القابعين في قعر هذه الثّلاّجة فيزيدُ من هلعنا، بدأ بعضُنا يطلبُ الماء. سمعتُ أحدهم يقول لآخر: «أنا جائع هل أجدُ لديكَ شيئًا يُؤكَل». ردّ عليه الصّوت: «ليس معي ما يكفيني. تدبّرْ أمرك». وتخيّلتُ أنّه يقبضُ على كيسٍ شبه فارغٍ ويحتضنه بين ذراعَيه، ويُدير به جِذعه بعيدًا عن الجالس بجانبه. ظلّت الشّاحنة تتقافز ونحن نتقافز في الدّاخل كذلك، ارتطمتْ رأسي بصفيحة معدنيّة تُعلّق عليها لحم الأبقار فشجّتْ رأسي. وسال بعضُ الدّم فصحوت. فجأةً توقّفتِ الشّاحنة بعدَ أنْ سارتْ في هذه الغابة أكثر من ثلاث ساعات بسرعةٍ جنونيّة وكادتْ تنقلب أكثر من عشر مرّات. انطفأ المُحرّك، وسمعتُ صوتَ باب السّائق

يُفتَح، وأحدهم ينزل دون أنْ أسمع صوتَ إغلاقه ثانية. وتخيلتُ أنّ أحدهم يركضُ في اتّجاه ما بعيدًا عن الشّاحنة، وراح صوتُ خطواته يختفي تدريجيًا. سادَ الصّمتُ بعدَها. هتفَ أحدهم: «أينَ نحن؟». لم يجدْ منْ يجيب. «اللّعنة لقد خدعونا». صياح. هياج. شتائم مُتطايرة. خطوات إلى باب الثّلاجة. خبّطتُ على الباب. محاولة بائسة لِكَسْره. الفولاذ لا تكسره الأيدي النّحيلة ذات العِظام البارزة، والأجساد الجائعة الشّاحبة. أنا جائع. طاخ. آآآآه.... عيني... بطني.. صوتُ ارتطام. صوتُ أنفاسٍ تشهق. مات. لعنة اللّه عليه. لن أموتَ هنا، كان عليّ أنْ أموت في بلدي. سكونٌ تامّ. خفتتْ أصواتُ المهاجرين واحِدًا تلو الآخر. كان هذا بعدَ عشرة أيّام أو أكثر، لا أدري على وجه الدِّقّة، صوتُ رصاصةٍ يتيمة، انفتح الباب، أبعدْتُهم بيدَيّ مثل وحشٍ، خرجتُ منه، وركضتُ مرعوبًا، لحق بي عددٌ منهم. سمعتُهم يقولون: اتركوه.. اتركوه إنّه ذئبٌ، ألا ترون أنّه يركضُ على أربع... اتركوه إنّه ليسَ بشريًا، ولكنْ ما هذا؟ يا إلهيّ، إنّها ثماني عشرة جُثّة مُتجمّدة من البرد...

وتوقّف قدير عن القراءةِ، ودفعَ بالدّفتر إلى نديم، كانتْ عيناه تَغرورِقان، وهتفَ بعدَ أنْ ملأ رِئتَيه بالهواء: والآن أسألك؛ هل ماتوا يا نديم؟ بالطّبع ماتوا؟ أقصد هل أكلَ بعضُهم بعضًا؟ أنتَ لم تذكر هذه التّفاصيل في هذه

اليوميّة... هل أنتَ من الّذين يكبتون القصص؟ بالطّبع، هذا هو التّفسير الوحيد لهذه التراجيديا المذكورة هنا، ففي الحقيقة لم يحدثْ هنا أيّ شيءٍ مِمّا ذكرتَه، هل كنتَ تهذي، هل هذا مِمّا رأيتَه في الحلم؟ أم أنّها إحدى قصص هؤلاء المُهاجرين الّتي قد سمعْتَها منه؟ على أيّة حال، أريدُ أنْ أسمعَ منكَ الجواب؟ ربّما أستطيع أنْ أرى الحقيقة حينَ تقول! هيّا تكلّمْ. لماذا أنتَ صامتٌ هكذا كأنّك تمثال، وتنظر إليّ بعينَين جامدتَين بلهَاوَين كأنّهما من زُجاج. إذا كنتَ لا تريدُ الإجابة، فهذا شأنُك. أنتَ حرّ. لكنْ لا أدري كم سنمكثُ هنا، كلّ ما أتمنّاه أنْ تمنحني فرصة التّسلّل إلى كوخك، وقراءة يوميّاتك، أريدُ واحدةً مثل تلك الّتي في اليوميّة التّاسعة عشرة، إنّها مُدهِشة، وخلاّقة، وذات خيالٍ خصب! والآنَ هؤلاء المُهاجرون كلّهم أمامك. إنّهم قصصٌ تمشي على أقدامها. يُمكن أنْ نجعل الجلوسَ إلى النّار في هذه اللّيلة سبيلاً إلى فَتْحِ باب الحكايا، إنّ باب الحكايا هذا إذا انفتَح، فإنّ السّيلَ المنداح من خلفه لن يتوقف أبدًا... أبدًا!!».

في اليوم الثّامن والثّلاثين، أيقظهم المُهرّب بِعَقِب بندقيّته: «هيّا استفيقوا أيّها الكُسالى، هل تريدون أنْ تناموا حتّى الظّهر. هيّا. أتى الفرج. السّفينة

جاءتْ. ألم أقلْ لكمْ اصبروا، الصّبر طيّب، واللّه رحيمٌ بعباده. هيّا... أفيقوا».

قفز المُهاجرون من نومهم، أعدّوا أنفسهم على عَجَل، تأكّدَ نديم أنّ محتويات حقيبته الجلديّة سليمة، وأنّ كلّ شيءٍ في مكانه. أرادَ أنْ يكتبَ يوميّته السّابقة، لكنّ فرحَه بوصول السّفينة أجّلتْ قرارَه هذا. قال له قدير: «هيّا يا دكتور. أريدُكَ أنْ تكتبَ لي في البحر يوميّاتك أيضًا، يُمكنك أنْ ترسِلها لي على هذا العنوان إذا شِئت، أنتَ عبقريّ».

تقاطَر المُهاجرون الّذين يقربُ عددُهم من سِتّين مُهاجِرًا. صُدِموا أوّل ما رأوا ما قيل لهم إنّه سفينة، صرخَ أحدهم: «خمسة آلاف دولار من أجل أنْ نصعدَ على قاربٍ مُهترِئ مثل هذا؟». هتفَ آخر: «لن أصعدَ أبدًا على عوّامة كهذه، إنّها لن تحتمل ثِقلنا، سوفَ نغرقُ جميعًا». أطلقَ قدير رصاصةً من بندقيّته في الهواء قبل أنْ يتفوّه مُهاجِرٌ ثالثٌ بكلمة. كانت كافيةً لكي يصعدَ المُهاجرون السّتون واحِدًا خلف الآخَر إلى القارب بهدوء وانتظام!!

(19)
أنا أُحبّك!

سار القارب ببطء. إنّه يتّجه نحو الشّمال أيضًا لعنة اللّه على الشّمال. لماذا يكون دائمًا الجهة الّتي نقصدها. أينَ تقع اليونان؟ أليستْ في هذا الاتّجاه؟! بعدَ ساعة كان القارب وحيدًا في عُرضِ البحر. المُهاجرون يتطلّعون إلى ما حولَهم بعيونٍ شَغوفة. راودتهم الأحلام من جديد. قال أحدهم: «وداعًا للشّقاء». قال آخر: «لقد صدق قدير: الصّبر طيّب». «الأحلام مصيدة» قال نديم، ضحك عددٌ منهم. وهتف أحدُهم: «نحن نصيدها». مال القارب، قال المُهرّب: «القارب يفقد وزنه». سادَ وجومٌ. صرخَ من جديد: «القارب يفقد وزنه، سوفَ نغرقُ جميعًا. إنّه يخسر المازوت الّذي في خَزّان الوقود. علينا أنْ نصنع توازنًا من أجل ألاّ ينقلب. الخَزّان في الجهة الخلفيّة، على ضِخام الجُثّة أنْ يتمركزوا في تلك الجهة الخلفيّة ولا يغادروها أبدًا. هل فهمتم؟ أنتم العشرة» وأشار إلى عشرةٍ من المُهاجرين، وتابع: «عليكم أنْ تقبعوا هنا دون أنْ تتحرّكوا خُطوةً واحدة. ردّ أحدهم: «أينَ سيتحرّكون يا معلّم، إنّ القارب ليس فيه شبرٌ واحدٌ فارغٌ، نحن نتكدّس فوقَ بعضِنا». صرخ في وجهه:

«اخرسْ أيّها اللّعين. أنا صاحبُ القارب وأعرفُ أكثر منك. هل تريدُنا أنْ نموت؟!». وسار القارب. انتصفَ النّهار. لا يوجَد ما يدلّ على أنّ هذا الماء سينتهي. لم يكنْ في البحر سِوى هذا القارب اليتيم، لم تكنْ هناكَ يابسة في أيّ جهة. في الجوّ كانتْ هناك بعضُ النّوارس تنعق. هوى أحدُها على يدِ مهاجرٍ وخطفَ منه بعضَ الطّعام وطار إلى الأعلى. مرّتْ لحظاتٌ قصيرة قبل أنْ يتجمّع عددٌ كبيرٌ من النّوارس، ويبدأ هجومه على القارب بحثًا عن الطّعام. سادَ الهرج. اهتزّ القارب. «لا تتحرّكوا كالأطفال المذعورين. سوفَ نغرق أيّها السّفَلة. ارموا لهم الخُبز في الماء». صرخَ المُهرّب قبل أنْ يُطلق من بوقٍ بلاستيكيّ بعضَ الأدخنة والأصوات. مرّتْ لحظات طويلة صعبة قبل أنْ تُغادر الغيمة البيضاء الّتي شَكّلها هجوم النّوارس، ويعود الهدوء إلى القارب.

غَبَشٌ في الفضاء. اللّيل يستأذن بالحلول. ما زال القارب يمخر عُباب الماء. بعض الأضواء بدث من بعيد. رقصت القلوب؛ إنّها اليابسة. الأحلام تتحقّق. كانتْ هناك منارةٌ عالية يدور في أعلاها ضوءُ كشّاف، يبعثُ أضواءَه في الاتّجاهات كُلّها. قال المُهرّب: «إنّنا نقتربُ من الحدود». علتْ صيحاتُ ابتِهاج. ليسَ للقلوب

الظّمأى من حاجةٍ لشيءٍ حاجتها إلى الماء. والماء يابسة. واليابسة عند تلك المنارة. كانت المنارة حلمًا مُشتَهى. لقد صار قريبًا. هل يمكن أنْ يأتي بهذه السّرعة؟! أنْ يتحقّق بهذه السّهولة؟! المنارة تقترب!! هل هي الّتي تقتربُ إلينا، أم نحن الّذين نقتربُ إليها؟! لن يكون هناك موتٌ بعد الآن، ولا جوعٌ ولا خوف، ستكون هناك حياة، حياة جديدة؛ إنّها تستحقّ كلّ هذا الانتظار الطّويل من أجلها؟ إنّها شارة الحُرّيّة. لقد غامرنا بكلّ شيءٍ من أجل الحصول عليها. الحرّيّة. لن تكون في شكلٍ أبهى من هذا الشّكل الّذي يتحقّق في مدى الرّؤية رويدًا رويدًا. القارب يقترب. القلوب تخفق. والمهرّب صامت. وهم يتحدّثون عن الأحلام العريضة. والأمنيات الهاربة. والأيّام القادمة. لقد تركوا كلّ الأسى والحزن والألم خلفَهم من أجل هذه اللّحظة؛ إنها لحظة الجائزة. إنّها لحظة الفوز. طعم الفوز الحلو يُنسي أشدّ المرارات. لا ظُلمَ بعدَ اليوم.

هل اللّيل طويلٌ إلى هذا الحدّ؟ لِيَطُلْ كما يحلو له ما دام سيأتي من بعده الفجر. وها هم، اليابسة صارتْ على مرأى البصر. «سنرسو على الشّاطئ» هكذا قال المهرّب. وقف، وأعطاهم التّعليمات: سوفَ تنزلون من القارب بهدوء، وتتّجهون نحو المنارة. إنّها ليستْ

بعيدةً من هنا كما ترون، وتُسلّمون أنفسكم لرجال الشّرطة اليونانيّة، ستجدون عندهم معاملةً لم تحلموا بها في حياتكم. بالتّأكيد سيُلاحظون جوعكم وبردكم وخوفَكم، ستجدون عندهم الأمان، والطّعام الشّهيّ، والشّراب السّاخن، ستنامون في ثكناتهم ليلةً أو ليلتَين على فِراشٍ مُريح، ليسَ مثل الحشيات الخشبيّة الّتي كنتم تنامون فوقَها في أكواخ قدير الملعون، أنا أعرف هذا السّافل، إنّه شَرِه، كلّ ما يهمّه هو المال... هذا ما يحدثُ في العادة ليلة أو ليلتَين، ثُمّ سيُوزّعونكم على مدن اليونان الفارهة، وقبل ذلك سيأخذون منكم المعلومات اللاّزمة، ويُعطونكم ورقة رسميّة، تُخوّلكم انتقاء المُدُن الّتي تناسبكم، سوفَ يُخيّرونكم بينَها بعدَ أنْ يشرحوا لكم ميزات كلّ مدينة... هل هذا مفهوم؟!»
هَزّ الجميع رؤوسهم باستثناء نديم، وبينما كانت أعماقهم تضّج بالفرحة والتّرقّب كان نديم يشدّ بذراعَيه على الحقيبة كأنّه يخاف أنْ ينبتَ لها جناحان وتطير بعيدًا عنه. نزلوا على اليابسة يتقافزون كالأرانب، وأبحر القاربُ عائدًا من حيثُ أتى. كان يتهادَى فوقَ الماء، ويبتعدُ شيئًا فشيئًا حتّى اختفى في ظلمة اللّيل والماء.

وجدَ المهاجرون السّتون أنفسهم صامتين

تائهين. هتف أحدهم: «ماذا تنتظرون؟ هيّا لِنَسِرْ إلى المنارة». ركضوا باتّجاهها، مرّتْ دقائق كأنّها سنواتٌ قبلَ أنْ تُلقي الشّرطة القبضَ عليهم. أحاطَتْ بهم عناصر كثيرةٌ، وراحوا يُقيّدون أيديهم من الخلف تحتَ تهديد السّلاح. دوّت صرخةٌ شقّت سُدفة الظّلام: «إنّهم عناصر من الشّرطة التّركيّة. لقد وقعنا في الفخّ». هربَ بعضُهم. دوّتْ طلقات في الهواء. ركَضَ نديم بعيدًا عن المنارة، ركضَ معه بعضُ المهاجرين. سقطَ أحدهم مُضرّجًا بدمه. استطاع نديم الإفلات من زَخّات الرّصاص. ركضَت الشّرطة خلفه. إنّه أسرعُ منهم، لولا هذه الحقيبة الّتي يحضنها لكان قد وسّع المسافةَ بينه وبين أقرب العناصر إليه، لو كانت ذراعاه حُرَّتَين لما استطاع أحدٌ من الشّرطة أنْ يلحقَ به، ولكنْ، اللّعنة إنّ هذه الحقيبةَ تُبطِّئ سُرعته. تعثّرتْ قدمه في هروبه بحجر، فسقط، سقطتْ منه الحقيبة، تدحرجتْ خلفه كأنّها كرة، لا بُدّ أنّها جمجمة أبيه الّتي تتدحرج. رجعَ إليها، كانَ سَحّابُها قد انفتح، نظر إلى داخلها نظرةً خاطفة، تلمّس ما فيها بأصابع عازف البيانو المرتعشة؛ نعم، إنّها جمجمة أبيه الّتي غادرت الحقيبة، أرادَ أنْ يبحثَ عنها، لكنْ أنّى له أنْ يجدها في هذا الظّلام، كانتْ أصواتُ الشّرطة تثقبُ أذنيه وهي تُطالبه بتسليم نفسه، أغلقَ الحقيبة، وأطلقَ ساقَيه للرّيح. لا يدري كم

ظلّ يركضُ من بعدُ. لكنّه خُيّل إليه أنّ لسرعة عدوه قد نبتَ على جانبَيه جناحان، وها هو يُحلّق في الفضاء، كان الهواء يبعثُ بنسائمه على وجهه فيُحسّ بالانتِعاش، إنّه يطير بالفعل إلى الأعالي، ها هي النّجوم تقترب، وها هو يزداد ارتفاعًا، وفجأة ابتلعتْه نجمةٌ غادرة، وسقطَ في جوفِها. ثُمّ سكنَ كلّ شيءٍ.

في الصّباح، قال له المُحقّق: «سوفَ ينتهي بك الأمر إلى السّجن». سأله: «أينَ نحن؟». «في تركيّا». «ألسنا في اليونان؟». «كلاّ». «هل خدَعنا المُهرّب؟!». ضحك المُحقّق: «لستُم أوّل المخدوعين، نحن دائمًا ما نُلقي القبض على مهاجرين غير شرعيّين في هذه الجهة. لقد قامَ المُهربون بالتّخلّص منكم». دخل ضابطٌ صغير، أدّى التّحيّة للمحقّق، قبل أنْ يقتربَ منه، ويهمس في أذنه: «لم نجدْ فيها شيئًا ذا قِيمة؛ بعض العِظام البالية، ودفتر». ردّ عليه: «ألقوا العِظام في البحر، وأعيدوا له الدّفتر». خفضَ طرفَه، وانحدرتْ دمعاتٌ حارّةٌ في أعماقه!!

بعدَ أُسبوع رُحّل في طائرة تجاريّة إلى الأردنّ. مشى من المطار إلى الشّارع على قدَميه، لم يكنْ في حوزته غير دفتره الجلديّ. كان يبتسم: «إنّها الأحلام. وهل الحياة سِوى شريطٍ ممتدّ من هذه الأحلام

البائسة». سمع كركرة الشّريط واضِحًا في أُذنَيه، وهَمّ أنْ يبكي، لقد قتلوا والده من جديد. وهتفَ في أعماقه هاتفٌ آخَر: «إنّني أسعى إلى السكون؛ السّكون التّامّ، ذلك الّذي جئتُ به أو مِن أجله إلى هذه الحياة».

أقلّته سيّارةٌ عابرة، وعادَ إلى غرفته في الفندق الرّخيص. رمقه هارون وهو يهمّ بالدّخول: «وين هالغيبة يا دكتور؟». تحاشى النّظر في وجهه خوفًا من أنْ يسأله عن الأجرة، وصعدَ الدّرجات وهو ينظر في الأرض عائذًا بنظراته الزّائغة. كان مُتعبًا حدّ الانهيار. ألقى جسده على السرير، لم يكدْ يُمدّد رجلَيه، ويُطلق زفيرًا طويلاً، حتّى سمعَ طرقًا على الباب، دخل عليه ضابطٌ وعنصران من الشّرطة، قال له الضّابط: «يا دكتور. سنغفر لك هذه المرّة، لن يجري عليكَ القانون، ولكنْ ألا يُمكن أنْ تسلك في حياتك طريقًا آخر؟». ظلّ صامِتًا. أردف الضّابط: «يُمكنكَ أنْ تعمل في مهنتك، أينَ ذهبَ ذلك الطّبيب البارع؟». ازدادَ صمتُه. وهتفَ الضّابط، وهو يهمّ بالمُغادرة: «نحن نعرفُ كلّ شيء. ونراقبك. أرجو ألاّ تضطرّنا إلى طريقةٍ قاسيةٍ للتّعامل معك». وخرج.

عادَ إلى سريره، نقّت الضّفدع، قفزتْ إلى ذاكرته؛ إنّها هنا، لم تمتْ. اقتربَ من النّافذة، أرادَ أنْ يُحادثها،

كانت القهوة تعجّ بالزّبائن في الأسفل، مسحَ بأصابع عازف البيانو على ظَهرها، ونزل إلى المقهى. إلى طاولته المعهودة، رحّب به شمعة القهوجيّ: «ستجدنا دائمًا في انتظاركَ يا دكتور».

نظر في فنجان القهوة الّتي وضعها أحدُ الصّبيان على طاولته، تصاعدَ بُخارُها الشّهيّ، هتفَ في أعماقه: «نحنُ بخار. نُسافر بلا إرادة إلى الأعالي، ونتبدّد في لحظات». قرّب الفُنجان من شفتَيه، وارتشفَ رشفةً شعرَ بأنّه استعادَ بها ذاته الخبيئة، وقبل أنْ يُعيده إلى موضعه ثانيةً، رآها قد صارتْ فوقَ رأسه، جلستْ قُبالته صامتة. لم يرفع إليها بصره، ظلاّ صامِتَين كأنّهما ينتظران طرفًا ثالِثًا من أجل أنْ يكسر حاجز الصّمت القائم بينهما.

«مَنْ أنتِ؟» سألها. ردّت: «كيفَ تركْتَني في ذلك الصّباح، وغادرتَ وحدك؟». «مَنْ أنتِ بحقّ الآلهة الّتي تؤمنين بها؟!». «أنا أحبّك». «أريدُ أنْ أعرفَ لماذا تصنعين كلّ ذلك لي؟ لماذا تُخاطرين بنفسِك من أجلي؟». «إنّه الحبّ، ألا يكفي أنْ يكون تفسيرًا لكلّ هذا؟!». «الحُبّ لا يملك تفسيرًا لنفسه عوضًا عن أنْ يُفسّر كلّ هذا الجنون الّذي تقترفينه». «إنّه الجنون إذًا، أليس هذا عامِلاً مُشتركًا؟!». «لنا حياتان مُختلفتان.

كيفَ يُمكن أنْ نلتقي؟!». «تتوهّم، لقد قلتُ لكَ ذلك من قبلُ: لقد خُلقنا من طينةٍ واحدة». «كيفَ تستوي طينةٌ من الدّنس مع طينةٍ من الطُّهر». «نحتاج هنا إلى تعريف كلّ طينة يا دكتور». «إنّ في عقلي غاباتٍ مُتشابكةً من الرُّؤى لم تطأها قدمُ بشريّ، ومجرّات من السّديم لم ترها عينُ حَيّ... ماذا تعرفين عنّي أيّتها المتعالية المُتعجرفة؟». «أعرفُ عنكَ ما يكفي لأفهمَ كيفَ أتعامل معك». «مُخطِئة؛ أنا لا أعرفُ عنّي هذا المِقدار الّذي يُخوّلني فَهْمَ ذاتي، فكيفَ بغريبةٍ ظهرتْ فجأةً ذاتَ صُدفةٍ في فُندقٍ رخيص». «لم أظهرْ فجأةً لو تذكّرتَ، أنا معك دائمًا». نفثَ نفثةً حارّة شعرَ أنّ روحَه خرجتْ معها: «أحتاجُ بعضَ المال». «كُلّي لك».

وعادَ في آخر اللّيل إلى غرفته، أرادَ أنْ يكتبَ في دفتره يوميّاتِه في البحر، بحثَ عن عنوان قدير، أرادَ أنْ يشكره على الخيال الّذي أهداه له، وعلى الحياة الجديدة الّتي وُهِبتْ له. لكنّه عدل عن ذلك. ربّما في فرصةٍ أخرى!!

(20)
أنا مَنْ أَهْوى ومَنْ أَهْوى أنا

جلس على المِقعدة الحجريّة، يتلذّذ بصحن الفول. قال له الفَوّال: «تغيبُ فجأة وتظهر فجأة». ردّ ضاحِكًا وهو يُرجِع شَعره الطّويل عن وجهه: «أنا نجمةٌ مُسافِرة». «نحن نحبّك يا دكتور». «أنا أحبّ هذا القاع من المدينة، إنّه يُشبهني على نحوٍ ما». «أنا عشتُ فيه كلّ حياتي». «صحنُ الفول يُشبهنا هو الآخَر، وحينَ يكون بيد الحياة فإنّها تأكلنا، وتستمتع بأكلنا، انظرْ إلى كلّ هؤلاء الزّبائن، إنّهم مأكولون بقدْر ما هم آكِلون». وضحك. «أما تزالُ ترغبُ بدفع عربتي في طلوع جبل التّاج مقابل هذا الصّحن الّذي تأكله؟». «لم أعدْ أرغبُ في شيء يا (أبو ياسين)، لو كنتُ أعرفُ كيف تكونُ الرّغبةُ لفعلت». «الحياة حُلوة يا دكتور، لا تُعقّدْها». «أنا أفقد إيماني يا صديقي».

عادَ إلى المشي. الشّارع الطّويل إيّاه، إنّها سنواتٌ بعيدةٌ، تلك الّتي قرّر في يومٍ من أيّامها الاستثنائيّة أنْ يحرقَ كلّ ماضيه، ويبدأ من جديد، لكنّه سقطَ في فراغ البدايات، البدايات الّتي دائمًا ما تكون قاتلة. إنّه يوم الجمعة، اليوم الّذي تُقامُ فيه سوق البِضاعة القديمة، الثّياب؛ يُسمّونها سوق الجمعة أو سوق

(الحراميّة)، كان يضع يدَيه في جيبَي بِنطاله وهو يذرع الشّارع، وعلى جانِبَيه تتناثر الثّياب العتيقة مُلقاةً على الأرض بلا انتِظام، إلى أنْ وصل إلى ساحة المسجد الحُسينيّ، رأى كَشّيشةَ الحَمام يعرضون حَمامَهم للبيع، ورأى آخَرين يبيعون الأرانب، وآخرين يعرضون أنواعًا غريبةً من الكِلاب والقِطط. ركنَ جِذعه على أسطوانةٍ حجريّةٍ بالقُرب من السّاحة ورح يتأمّل الباعة والنّاس بصمت، لم يُغيّر هيئتَه طَوال أربع ساعاتٍ حتّى بدأ النّاسُ يتوافَدون إلى المسجد للصّلاة، كان أحدُ صِبية الحَمام قد باع كُلّ حَمامِه باستِثناء حمامةٍ بيضاء، فتحَ لها القفصَ فجأةً، وتناولها من داخله، ثُمّ رفع ذراعَيه وفتحَ يدَيه القابِضتَين عليها وترَكَها تطيرُ حُرّةً إلى السّماء؛ همسَ في قلبه: «هل كانت يدا الصّبيّ هما يدَي الحياة، والحمامةُ روحَه؟». خفقتِ الحمامة البيضاء جناحَيها بقوّة، شعر أنّها فَرِحةٌ بهذه الحُرّيّة المُباغِتة وهذا الطّيران في المدى الفسيح، تابَعَها بنظره، كانت رأسُه ترتفع معها، شاهدَها تُحلّق باتّجاهٍ شِبه عموديّ، ظلّتْ تُحلّق في الأعالي حتّى اختفتْ عن ناظرَيه، كانت عنقُه قد رجعتْ بالكامل إلى الخلف حتّى كادتْ تُلامِسُ ظَهره، وكان توافدُ النّاسِ إلى المسجد قد ازداد؛ يَهوُون إلى ساحته من الأزقّة الفرعيّة كُلّها، وكان لا يراهم ولا يسمع أصواتَ أقدامِهم،

ظلّتْ عيناه مُعلّقتَين بالسّماء في النُّقطة الّتي اختفتْ فيها الحَمامةُ داخلَ سَحابةٍ بيضاء، مَرّ زمنٌ لا يعرفُ كيفَ يقيسُ طُولَه بمقياس الذّهول قبل أنْ تبدأ قطرة من الماء بالهُطول من سَحابةٍ عابرةٍ غطّتِ المكانَ إيّاه الّذي أخفى الحَمامة، كانتْ قطرةً وحيدة، تعجّبَ أن تكون السّحابةُ بخيلةً إلى هذا الحدّ، ولكنّ القطرة ما أنْ قلّصتِ المسافةَ بينَ عينَيه والسّحابة حتّى اكتشفَ أنّها تكبر، ورويدًا رُويدًا اكتشفَ أنّها الحَمامة الّتي صعدتْ من ذلك القفص لذلك الصّبيّ الصّغير، ظلّ يُراقبُها مُتعجّبًا وهي تُواصل هُبوطَها، رآها تقتربُ منه، ازدادَ قلبُه خَفَقانًا مثل خَفَقان أجنحتها، واصلتْ هذا الهُبوط حتّى تأكّد أنّها تقصده من بين النّاس كلّهم، ابتسم، ازدادتْ ابتِسامتُه اتّساعًا، رأى عينَيها صافِيتَين ودودتَين، إنّها تنظر إليه، إنّها تريدُ أنْ تحطّ على كَتِفَيه، تذكّر حَمامةَ المسيح، ووجدَ نفسَه يتلو: «وإذا السّماواتُ قَدِ انفتحتْ له، فرأى رُوحَ اللّه نازِلاً مِثْلَ حَمامةٍ وآتِيًا عليه، وصوتٌ من السّماواتِ قائِلاً: هَذَا هُوَ ابْنِي الحَبِيبُ الّذي بِهِ سُرِرْتُ». صَحَا مِن خيالاته عندما دَفَعَه أحدُ المُصلّين صارِخًا في وجهه: «نريدُ أنْ نُصلّي؛ تَحّركْ من هُنا أيّها الأبله!».

وها هو، في الشّارع من جديد. يهذي بكلّ ما

لصقَ بجمجمته من حكايات وقصائد وحروف، كان يجدُ في الحروف ملاذه، إنّها ثمانيةٌ وعشرون مخرجًا من الجحيم، الخروج من الجحيم يقتضي دخولاً إليه ابتِداء، وها هو يرى الحروف تسيل على جدران البنايات العتيقة في الشّارع، وتتدلّى من تحتِ جذوع الأشجار، وتتساقط من بين أصابع الأطفال الحالِمين. الشّارع يمتدّ بلا نهاية، وهو لا يزال يمشي حتّى تتشقّق قدماه، لم يعدْ يُطيق طبيبُ التّشريح جُثّتَه الّتي تمشي باردةً في هذا الظّلام المُتطاول، إنّها عبءٌ ثقيلٌ عليه، يحتاجُ إلى شيءٍ ما يُعيده إلى هناك، إلى البدايات، يحتاج إلى شيءٍ يوقن به ولا يجده، يبحثُ عنه ولا يعرفُ متى يلتقيه، كلّ سنواته مرّتْ عبثًا، وعبثًا حاول أنْ يعثر على ما يريد، والطّريق؟ ما تزال بعيدة، لا نهايات لها، مُوحِشة لا أُنسَ فيها، باردة لا دفء يغمرها، جافّة لا حنان يُورِقها، وقاتلةً لا حياةَ تلوحُ في مُنعرجاتها، يا لَلمسكين الّذي يخفق بين ضلوعه! كم عليه أنْ ينظر حتّى يرى، وكم عليه أنْ يسمع حتّى يدرك، وكم عليه أنْ يتوقّف من أجل أنْ يلتقطَ غايته! لكنّ غايته أعدى أعدائه؛ إنّها تُلاحقه كأنّها شبحٌ سيسقطُ في فيه. شبحٌ لا يموت ولا يحيا!!

عادَ إلى غرفته، قال له هارون: «الشّرطة سألتْ

عنك؟ هل من جريمةٍ جديدةٍ ارتكبْتَها؟!». شتَمَه، وصعدَ الدّرجات. دخل غرفته، مُظلِمة على عادتها، هل عليه أنْ يتفاجأ؟ متى غيّر الظّلامُ عادَته؟ أرادَ أنْ ينام؟ أنْ يجد في النّوم بعضَ السّلوى، ولكنّ النّوم قاتِلٌ آخر يصطفّ في طابورٍ طويلٍ من القَتَلة المُحترفين الّذين تناوبوا عليه. لم تغفُ عينُه، ولا قلبُه، ولا روحه، وحدّق في الخِزانة الخضراء، وهَمّ أنْ يقومَ ليتفقّد عِظام أبيه، ولكنّه تذكّر أنّه تقاسَمتْه حيتانُ البحر وأفاعيه؛ فبكى. ولكنّه أرادَ أنْ يطير إلى ذلك الشّرطيّ التّركيّ ويشكره على أنّه أبقى له على دفتره، فَتَحه ليكتبَ فيه، لكنّه خافَ أنْ يُسرَق، فقام ليكتب على الجدران، وحدّث نفسَه: «لا أحدَ يسرقُ جِدارًا». لكنّه استدرك مُستغرِبًا: «فمن سرقَ جِدار روحي؟». وهوى عليه يكتب، ظلّ يكتبَ حتّى تسلّل الضّوء، وسقطَ من الإعياء، غفا قليلاً، ثُمّ عادَ ليكتب، ظلّ يكتبُ شهرًا كامِلاً حتّى أفرغ من عقله كلّ ما كان يُؤلِمه. هل هذا هو التّطهير؟! سقطَ على الأرضِ منهارًا هامِدًا ينزفُ، لكنّه شعرَ ببعضِ الرّاحة، وطمأنَ نفسَه: «لا بُدّ من نهاية لكلّ شيءٍ».

غمسَ نفسَه في القراءة، لكنّ الكتب قاتلٌ يُضاف إلى سلسة القَتَلة، اشترى من كشك الطّليعة كتبًا رخيصة الثّمن، تذكّر مكتبة أبيه الّتي أحرقها، كان يُمكن أنْ

تكون عزاءه في وحدته لو أنّه أبقى عليها، ولكنّه جرّب أنْ يهبها الحريقُ بدايةً صالحة، لكنّ الحريق لم يشفِه من أيّ مرضٍ من أمراضه. عادَ إلى المشي. السّيقان الّتي تسير إلى حتفها، الأنفاس الّتي يتصاعدُ بُخارها من رئِات الكائنات البشريّة تُعلن موتَها. الجيف، الرّسوم، الهلاميّات، الطّين، الوخم، الضّحكات، وصرخات الاستِغاثة، والنّواح، والقهقهات الجوفاء كلّها خُبز الموت، الموت يحصُدُ كلّ شيءٍ، إنّه يُشبه الحريق، لكنّه لا يشبع، وهو يدركُ تمامًا مثلما يُدركُ الموتُ معه، أنّ كلّ هذا سينتهي، ولكنْ متى يُمكن أنْ تأتي تلك السّاعة المُرتَقبة!!

طلبَ من صاحب المخبز أنْ يُوظّفه عنده مرّة أخرى مقابل رغيف، رفض، قال له: «عندي ما يكفيني من المشاكل». صار يجمع العُلَب المعدنيّة من الأرض، يتلقّفها من أفواه النّاس، يحملها على ظهره في كيسٍ كبيرٍ، يتحسّسها، ويتخيّل أنّ عِظام أبيه بينَها، ينثرها في الشّارع، ويبحث عن العِظام، يستيقظُ في وسطِ بحثه المحموم، لو باعَها، فسيقي نفسَه من شبح الجوع الّذي يعرفه جيّدًا.

تعرّف على أحد الدّراويش في القهوة، قال له الدّرويش: «شِفاؤك عندنا، الحقْ بِنا نُواسِك». سارَ ليلة

الخميس إلى مسجد الصّوفيّة، انفرط عِقدُ المُصلّين عقب العِشاء، وبقي الدّراويش، سرعان ما شكّلوا دائرةً، ترأسها شيخٌ بعمامةٍ خضراء، بينما كانت عمائم المُتبقيّن بيضاء، تمامًا مثل جلابيبهم، بدؤوا تراتيلهم السّماويّة، كانوا يتمايلون وهم يُنشِدون:

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا

نحنُ روحانِ حللْنا بَدَنا

حينَ نبتَ أحدُهم من الفراغ وتوسّط الحلقة وراح يدور على كعب قدمه اليُمنى، ويداه ممدودتان إلى السّماء، لم يُغيّر نُقطة ارتِكازه وهو يدور في دائرةٍ مُنتظمة، ويرتفع من فوق ساقَيه جلبابُه الحليبيّ، وبمثل هذه الدّورة المُتّسقة كان رأسُه الّذي يعلوه طربوشٌ طويل مائلاً إلى جهة الكتف قليلاً يدور حول المركز ذاته، كان القلبُ مركزهم، والذّوبان في عالم اللّه مُحيطهم الّذي يطوفون فيه أو حوله، ظلّ يدور، والنَّغمات تعلو من أفواه الدّروايش، وهم يردّدون بإيقاع جماعيّ مُذهل:

فإذا أبصرْتَه أبصرْتَني

وإذا أبصرْتَني أبصرْتَنا

وكان ينظرُ إليهم من بعيدٍ، وقلبُه في أعماقه يدور في أضلعه دَوَرانَهم، حتّى إذا علا النّشيد، وعلا معه صوتُهم:

نحنُ مُذْ كُنّا على عهدِ الهوى

تُضربَ الأمثالُ للنّاسِ بِنا

انسلّ أحدهم من الدّائرة المُحكَمة، ومضى إليه، فلمّا صار فوقَ رأسَه، همسَ في أُذنيه: «هيّا يا بُنيّ، إنّ الله يقبلُ كلّ عاصٍ». ودخل الحلقة، وسكتَ صوتُهم، ولا زال الدّرويش الّذي في قلبِ الدّائرة يدور حول مركزه كأنّه فقدَ ذاتَه أو وجدها، لكنّ الدّرويش ذا العمامة الخضراء، راح يتمايل يمينًا ويسارًا، والآخرون يُلقون رؤوسهم ولِحاهم البيضاء على صدورهم، وهو يهتفُ بصوتٍ شجيّ لم يسمعْ في حياته أجملَ منه:

والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ

إلاّ وذِكرُكَ مقرونٌ بأنفاسي

ودارتْ به الدُّنيا. ووجدَ بعضَ السّلوى، وأقامَ بينهم أسبوعَين، ثُمّ في الخميس الثّالث تركهم وهو يقول لنفسِه: «مجانين من نوعٍ مختلف، لماذا عليّ أنْ أجرّب جنونهم؟! يكفيني ما أنا فيه». وعزَم على ألاّ يعودَ

لحفلتهم أبدًا!

دخل الكنيسةَ في أحدِ الآحاد، أليستْ بيتَ الرّبّ هي الأخرى؟! ظلّ واقِفًا في آخرِ صُفوفٍ مُتعاقبةٍ من الكراسيّ الخشبيّة الّتي امتلأ نِصفُها بالمُصلّين، كان يسمعُ عِظةَ القِسّيس دون أنْ يفقهَ شيئًا، بدأ ضيوفُ الله بالخروج، وكانوا يرمقونه بغرابةٍ، ولم يكنْ يدري لِمَ ينظرون إليه هكذا! اقتربَ منه القِسّيس الّذي لَحَظَه بعد أنْ أصبحتِ المقاعد الخشبيّة خالية، مسحَ بيدِه على رأسِه، وابتسمَ ابتِسامةً خفيفةً في وجهه، وهتف: «إنّ بيتَ الرّبّ يأوي خِرافَه الضّالّة». وشعرَ ببعضِ الطُّمأنينة، وسأل القِسّيس: «أينَ أجدُ الله؟». فردّ وهو يُشير إلى صُورتِه فوقَ المذبح: «إنّه يراك». أعطى القِسّيس والرّبّ ظَهرَه وهو يُردّد دون وعي: «وَمَنْ لا يَقبَلُكُمْ ولا يَسْمَعُ كَلامَكُمْ فَاخْرُجوا خارِجًا مِنْ ذلكَ البيتِ أو مِنْ تِلكَ المَدِينةِ، وَانْفُضُوا غُبارَ أَرْجُلِكُمْ». وشعرَ أنّه ينفضُ غُبارَ رِجلَيه على الحقيقة، وكانَ أحدًا يتيمًا لم يَعُدْ إلى مِثلِه!

(21)

أنا أنتَ!

رآها في إحدى أُمسيات الخريف الحزينة، كان الهواء بارِدًا، وكان يرتجفُ في زاويته في المقهى، جسدُه يرتعش مثل ورقةٍ يابسة. أشفق عليه شُمعة، ليست المرّة الأولى، قال له: «فنجانك اليوم مدفوع». جلسَتْ قُبالته صامتة، هذه المرأة اللّعينة لا تزوره إلاّ إذا كان في قَعر سقوطه العميق، هذه المرّة كان وجهها مُنتفخًا، وعيناها حزينتَين، وفمها زنبقة، قالت له وهي تُشير إلى بطنِها: «ابننا يكبر في أحشائي». صُعِق. قفز من مقعده، وقفَ على قدمَيه، تمايل، شعرَ أنّ قدمَيه لا تحمِلانه، تساءل بصوتٍ مهزوز: «ابننا؟ كيف؟ ماذا؟ ابننا...» هوى على كرسيّه: «أنا ليس لي ابنٌ». ابتسمتْ: «لا بُدّ أنّكَ تحتَ تأثير السّمّ الهاري الّذي تأخذه من عيد، هذا القذر سوفَ يقتلك». كرّر: «أنا ليس لي ابن... ماذا تقولين؟!». «لقد كبر وأنتَ لا تدري، كنتُ أريدُ أنْ أقول لكَ في سفرنا إلى تركيّا، لكنّكَ دائِمًا ما تهرب؛ هل تعتقد أنّ الهروبَ حلّ؟! انظر إنّه يتحرّك... ربّما عليّ...»، قاطَعَها: «هذا ابن حرام». «إنّه ابنك». «ابن عاهرٍ نمتِ معه». «لم أنمْ إلاّ معك». «أنا لم أنمْ مع امرأةٍ في حياتي». «لقد نمنا على فِراشٍ واحدٍ عامًا

كامِلاً يا حبيبي». «لا تقولي حبيبي». «في شُقّتي، ألا تذكر؟!». «اخرسي يا عاهرة... اخرجي من هنا، هل تريدين أنْ أقول لك كما قلتُ لكِ ذات مرّةٍ إنّني أشتهي أنْ أُشرّح جُثّتَكِ على هذه الطّاولة أمام زبائن سمعة... هيّا، اخرجي من هنا قبل أنْ أنفّذ هذه المرّة هذا التّهديد.. إنّه تهديدٌ حقيقيّ، لم أشعر بأنّه حقيقيّ إلى هذه الدّرجة أكثر من هذه المرّة». «اهدأ. لا تكنْ أحمق». صرخ: «اخرجي». ردّث بحزمٍ: «اجلسْ، لقد بدأتُ بالفعل أضجر من تصرّفاتك الطّفوليّة، عليكَ أنّ تفكّر معي كيفَ سيعيشُ ابننا، سأترك مهنتي وأتفرّغ لكما». «تفرّغي لنفسك أيّتها البغيّ.. أنا ليس لي أولاد... لماذا تُصرّين على هذا الكلام الفارغ؟! تريدين تعذيبي؟!». وبكى كطفل. كان هناك طفلٌ في أحشائها يبكي هو الآخَر!

فكّر أنْ يشتري مُسدَّسا، من ذلك النّوع الّذي كان يراه في أفلام الغرب الأمريكي، ويحشو طاحونته بالرّصاصات السّتّ، إنّه لا يريدُ أنْ يلعبَ مع الموت، لا يُريدُ للقدر أنْ يكون مُشارِكًا في موته، إنّه يريدُ موتًا أكيدًا ليس فيه مجال للاحتِمالات، الاحتِمالات تجعل النّهاية باردة، وعقيمة، وساذجة، إنّه يريدُ موتًا واضِحًا صافِيًا خالِيًا من شائبة الاحتِمال الّتي تُلطّخ هذا

البَياض، أليسَ الموتُ بياضًا مُطلقًا في عالَمٍ مُدنّس؟!
لكنّه لا يملك ثمن المُسدّس، من أينَ له أنْ يأتي به وهو
لا يملك حتّى ثمن صحن الفول الّذي يأكله؟ حتّى
الموتُ المُشتَهى يُصبح أمنية، يصير طريدةً تعزّ على
الإمساك. لكنْ مهلاً، ألا يُمكن أنْ تُعطيه ليندا ثمنه؟ هل
يُمكن أنْ تقبلَ أنْ يَعبُرَ حبيبُها إلى الضّفّة الأخرى تاركًا
إيّاها مع وحشتها؟ أليس النّهر يسعنا جميعًا بضفّتَيه،
فلماذا ستُمانع؟ ما الفرقُ فيمن وقفَ على هذه الضّفّة
أو تلك؟ وفي النّهاية هذا العبور حتميّ، وهذا التّباين
في الوقوف على الضّفاف المُختلفة أمرٌ لا مفرّ منه،
وهو في النّهاية مسألة وقت!!

التقته هذه المرّة في الشّارع المُتخَم بذاكرة
قدمَيه، كانت قد انضمّت إليه بعدَ أنْ تجاوز المُدرّج
الرّوماني، أمسكت بيده، وشدّت عليها بحنوّ، فسرى
دِفْؤها إليه، همست في أذنه: «لا تسرْ وحيدًا». ردّ
عليها: «لا تتركيني في العتمة». «أنا روحك فكيفَ
أتركك؟!». «أريدُ أنْ أنتحر». «أنتَ سمحتَ لعقلك أنْ
يُفكّر في ذلك». «أنا مريضٌ في عقلي. الانتِحار حلّ،
ماذا سينقصُ البشر لو تخلصوا من مخبولٍ مثلي».
ضحكت: «لو فكّر كلّ المرضى العقليّين بالانتِحار،
لتخلّص الكوكب من ثلاثة أرباع قاطِنيه، تخيّلْ حينَها

كيفَ سيُصبح هذا الكوكب بارِدًا وبليدًا ومُمِلاًّ في الوقتِ نفسِه!». «أنتِ ماذا بالنّسبة إليّ؟». «أنا أنتَ».

غرفتُه صارتْ تضيقُ عليه، جدرانها المُتخمة بالكتابات والرّسوم صارتْ كأنّها قبرُه، نقّت الضّفدع لتُذكّره بإطعامها، كان نَفَسُه يتردّد في صدره ببطء، قامَ إليها، قال لها: «لم أعدْ قادرًا على أنْ أحميك أكثرَ من هذا، ربّما على أحدنا أنْ يتخلّى عن الآخَر، لم يكنْ لديّ ما أفقده بعد أبي، إلاّ دفتري وأنتِ، أحتمل أنْ أعودَ بالدّفتر أو أموتَ معه، عليكِ أنْ ترحلي». ثُمّ هَمّ بأنْ يُلقيها من النّافذة لكي تتدبّر أمرها في الشّارع، حينَ سمع صوتًا من خلف أذنَيه يهمسُ بحنان: «ما زال في الأمر مُتّسع». لم يُعِرْه انتباهه، لكنّ الصّوت الّذي تجاهله عادَ يهمس: «اليأسُ كفر». أزعجه أنْ يعظه الصّوت في هذه اللّحظة، فالتفتَ ليرى الواعظ الأبله، فرأى وجهًا يعرفه، الطّربوش الّذي يعتمره فوقَ رأسه أعادَه إلى الذّاكرة، هتفَ به: «أنتَ الشّيخ...» ردّ عليه: «نعم يا بُنيّ، أنا الشّيخ الّذي عَلّمكَ القُرآن في مسجد الصّفا. يا بُنيّ إنّ الله أرحم بنا مِنّا، فلا تذهبْ في طُرق اللاّعودة». وسَخِر من كلامه حين قال: «أرى وجهك قد تجعّدتْ غُضُونه، وعنقك صار مثل عنق السّلحفاة، ولحيتُك قد غزاها الشّيبُ فلم يتركْ فيها شعرةً سوداء،

هل شابَ عقلُكَ أيضًا هو الآخَر؟!». وتجاهل الصّوتُ سُخريته، وسمعه يقول جملةً خُيّل إليه أنّه سمعها منه ذات مرّة: «يا ابن عبّاس إنّني في مسجدي لا أبرحه، فإنْ أردتَ أنْ تعود، فإنّ باب الله لا يُوصَد في وجه مَنْ قَصَدَه». وغاب الصّوت.

أيقظَه نقيق الضّفدع مِمّا هو فيه، نظر إليها، واعتذر: «إنّها النّهاية يا عزيزتي. سامحيني». أمسكَها بيده، فأحسّ برجفةِ قلبِها، رجفَ قلبُه هو الآخَر، نظرتْ إليه بعينَين جاحظَتَين، رآهما تدوران غير مُصدِّقتَين، إنّها خجلى مِمّا يفعل بها، أدار رأسه بعيدًا عن نظراتها، وأردف: «أنا لا أجيد عبارات الفراق، ولا العزاء» ثُمّ ألقاها من النّافذة: «تابعي سيرك في الحياة، إذا كان حظُّكِ جيّدًا فستجدين مَنْ يعتني بكِ أفضلَ منّي؛ الرحمة لم تنقطع بين النّاس!» كانت الضّفدع تهوي، وكان هو يهوي، كانث تبحثُ عن نجاة، وكان هو الآخر يبحثُ عن نجاة. هل تتشابه المصائر؟!

قال له هارون: «لقد طلبث منّي الشّرطة أنْ أُخبرهم متى تكون في الغرفة، وهدّدوني بالاعتقال إذا لم أُبلّغْ عنك». «ما شأنُ الشّرطة بي، ماذا يريدون من رجلٍ مُسالِمٍ مثلي؟!». «إنّهم يقولون إنّ عليهم إعادتكَ إلى المصحّ العقليّ». أراد أنْ يصفعه، لكنّه فكّر أنّ ذلك

هل شابَ عقلُكَ أيضًا هو الآخَر؟!». وتجاهل الصّوتُ سُخريته، وسمعه يقول جملةً خُيّل إليه أنّه سمعها منه ذات مرّة: «يا ابن عبّاس إنّني في مسجدي لا أبرحه، فإنْ أردتَ أنْ تعود، فإنّ باب الله لا يُوصَد في وجه مَنْ قَصَدَه». وغاب الصّوت.

أيقظَه نقيق الضّفدع مِمّا هو فيه، نظر إليها، واعتذر: «إنّها النّهاية يا عزيزتي. سامحيني». أمسكَها بيده، فأحسّ برجفةِ قلبِها، رجفَ قلبُه هو الآخَر، نظرت إليه بعينَين جاحظَتَين، رآهما تدوران غير مُصدِّقتَين، إنّها خجلى مِمّا يفعل بها، أدار رأسه بعيدًا عن نظراتها، وأردف: «أنا لا أجيد عبارات الفراق، ولا العزاء» ثُمّ ألقاها من النّافذة: «تابعي سيرك في الحياة، إذا كان حظُّكِ جيّدًا فستجدين مَنْ يعتني بكِ أفضلَ منّي؛ الرحمة لم تنقطع بين النّاس!» كانت الضّفدع تهوي، وكان هو يهوي، كانت تبحثُ عن نجاة، وكان هو الآخر يبحثُ عن نجاة. هل تتشابه المصائر؟!

قال له هارون: «لقد طلبت منّي الشّرطة أنْ أُخبرهم متى تكون في الغرفة، وهدّدوني بالاعتقال إذا لم أُبلّغ عنك». «ما شأنُ الشّرطة بي، ماذا يريدون من رجلٍ مُسالِمٍ مثلي؟!». «إنّهم يقولون إنّ عليهم إعادتكَ إلى المصحّ العقليّ». أراد أنْ يصفعه، لكنّه فكّر أنّ ذلك

لن يكون كافِيًا، ليته يملك أدوات عمليّات القلب الّتي كان يملكها في المستشفى، لكنّه لا يملك غير خيبته، إذًا لاستلّ قلبَه، وشفى نفسَه مِمّا يجد.

في غرفته، حَلُمَ بأمّه، رآها تقومُ من قبرها في المقبرة الفوقا، وتسيرُ إليه بهدوء، ثُمّ تفتحُ ذراعَيها له، وتهمس: «أنا لن أتخلّى عنك». أرادَ أنْ يصرخ في وجهها: «كاذبة، لم تكوني معي في حياتك حتّى تكوني معي بعدَ الموت». «يا بُنيّ، لو كان لي قلبٌ لأهبَه لك لفعلتُ، بذرة الخير فيك كامنة، لن تموت، إذا سمحتَ للنّور أنْ يتسلّل إليها فستنمو، فقط اتركْ كلّ هذا الظّلام، وارحل من هنا». وشعر بدفءٍ حقيقيّ، شعر بحقيقة الكلمات، فاستعبرتْ عيناه، ثُمّ... ثُمّ بكى حتّى استيقظ. كان الظّلام دامِسًا في غرفته، من خلال ضوءٍ شحيح، رأى الدّراويش كأنّهم يصطفّون في طابورٍ طويل، وقد أتَوا لتحيّته، أخذَ أحدُهم بيده، وهو يقول: «هيّا، امضِ بنا يا بُنيّ». أرادَ أنْ ينفضَ يدَه من يده، ولكنّه وجدَ نفسه يستسلمُ لها. عبرتْ به اليدُ الباب، وتَبِعه الدّراويش بجلابيبهم البيضاء كأنّهم ملائكة السّماء، جاءتْ لتهبَ روحه الرّحمة والأمان. مضَوا به وهم يُنشِدون في تراتبيّة مَهيبة:

وَدعاهُمُ داعي الحَقائقِ دَعوةً

فَغَدوا بِها مُستَأنسين وَراحُوا

وسارَ معهم كالمأخوذ، وهتفَ وهم يسيرون به: «إلى أين رواحُكم أيّها الملائكة؟». لكنّهم لم يُجيبوه، وظلّ يمشي أحدُهم أمامه، وهو خلفَه، ومن وراءهم قافلتُهم وهي تتهادَى على إيقاع النّشيد الطّريّ:

وَاللّهِ ما طَلَبوا الوُقوفَ بِبابِهِ

حَتّى دعوا فَأَتاهُمُ المِفْتاحُ

وظلّوا يسيرون به، في اللّيل، وهو لا يملك أنْ يخرج من قافلتهم، وروحُه تصفو شيئًا فشيئًا، حتّى عبروا به الوِهاد، والسّهول، والجِبال، ووقفوا على كلّ مكان، وناجَو الله في كلّ موضع، وبَكَوا متضرّعين تحت كلّ شجرةٍ، وهم لا يفتَؤون يردّدون بيتَهم الأخير، وتراءتْ له قريتُه من بعيد، ورآها تنامُ وادعةً في سفح الجبل، وسأل بحُزنٍ: «أإلى هُناك؟». فلمْ يُجِبْه أحدٌ، لكنّ نورهم في العتمة كان قد آنسَ الطّريق، ولمّا وصلوا إلى السّفح، عرفَ أنّهم عادوا به إلى حيثُ نشأ. وعوى ذئبٌ في البعيد، فصحا قليلاً، ثُمّ نبحَ كلب، ونعقتْ بومٌ، وصاح ديك، فانتبه فإذا هو الفجر، وإذا هو بيتُه يلوحُ من بعيد وقد أصبح خرابًا، واستيقظ قلبُه هذه المرّة، وهتف: «إنّه بيتي، هل في البيت إلاّ أشباح؟!».

ولمّا نفضَ اللّيلُ سِرباله، ونشر النّهار ضياءَه، سمع أصواتَ الباعة وقد بدؤوا يفتحون أبواب متاجرهم، وأبواق السّيّارات وهي تنقلُ المُوظّفين إلى دوائرهم، وشمّ رائحة الخبز الشّهيّ من المخبز، وتناهَى إلى سمعه قرقعة قِدْر الفَوّال، وشخير هارون يغطّ في نومه على سطح مكتبه من سَهَرِ أمس. وقفزَ من سريره، وقد عَزَمَ على العودة إلى البداية.

وهُرِعَ إلى الأسفل، فأيقظَ هارون، وهَزّه من كتفَيه، وصاحَ به: «استيقظْ أيّها السّمين». وفتحَ هارون عينَين نِصفَ مُغمَضَتَين، وسأله: «هل ستدفع الأجرة؟». وشدّ على شفتَيه من الغيظ، وقال له: «أنا سأرحل». «آنسْتَنا يا دكتور». «أريدُ أنْ أرى ليندا، عليّ أنْ أُخبرها ببعضَ الأشياء قبل أنْ أُغادر. قل لي هل رأيتَها؟». وحدّق هارون فيه هذه المرّة مُستفهِمًا: «مَنْ ليندا هذه يا دكتور؟». «الجميلة، الفتاة الجميلة الّتي كانتْ تسأل عنّي». «هل شربْتَ أمسِ شيئًا؟!». «ليس لديّ وقتٌ لمزاحك الثّقيل، لقد نويتُ على أنْ أعود، ولا بُدّ لي أنْ أراها». وقفَ هارون وقد صحا تمامًا، وقال ببلادة: «مَنْ ليندا هذه؟ أنا لم أسمعْ بامرأةٍ بهذا الاسم!!». «يا رجل المرأة الّتي كنتَ تراها بِصُحبتي أحيانًا!». «لم أرَ معك امرأةً طوال السّنوات الخمس

الّتي عشتها هنا!». واستبدّ الغضبُ بنديمٍ هذه المرّة، وصرخ به: «المرأة الّتي كانت تدفعُ إيجار غرفتي عندما أتأخّر، وكنتَ أنتَ تنهقُ مثلَ الحِمار وأنتَ تُطالبني به!». واحمرّ وجه هارون وانتفخ خَدّاه كحبّتَي برقوق ناضِجتَين، هتف: «أمّا أنني كنتُ أُطالِبُكَ بالإيجار فصحيح، وأمّا أنّني كنتُ أنهقُ مثل الحِمار فصحيحٌ أيضًا؛ لأنّني لو لم أكنْ حِمارًا لما صبرتُ عليكَ كلّ تلك الفترة، ولرميتُكَ بعدَ شهرٍ أنتَ وأغراضُكَ الغريبة في الشّارع، ليسَ إشفاقًا عليك، فأنتَ لا تستحقّ، بل إشفاقًا على ماضيك». ونفثَ نفثةً طويلةً حارّة من صدره كأنّه ارتاح، ولكنّ (نديم) صرخ غاضِبًا: «ماذا تعرفُ عن ماضِيّ أيّها النّكرة حتّى تُشفِقَ عليّ؟ أنتَ أولى بالإشفاق على نفسك أيّها المُتكرّش». وهدأ هارون، لم يكنْ يريدُ أنْ يفتعل شِجارًا، ورفع يديه مُهدِّئًا من رَوع نديم: «لا بأسَ يا دكتور، يبدو أنّ السّبب هو الشّراب، أو هذا الهباب الّذي تتناوله، الأمور سهلة». وظلّ يكرّر العبارة الأخيرة وهو يلهثُ كما لو كان قد ركض طويلاً، ورأسه تتحرّك على كتفَيه مثل بندول. وأرجعَ نديم جذعه إلى الوراء، وسحبَ خُطوةً مُتباعدًا عن هارون، وحدجه بنظرةٍ مُستنكِرة ما زال فيها بعض الغضب: «بل يبدو أنّكَ أنتَ الّذي أسرفتَ في الشّراب». وهدأ هارون تمامًا، وضحك وهو يقول: «يا دكتور، لم

أرَ بصُحبتك طَوال فترتك هنا رجلاً عِوَضًا عن أنْ أرى معك امرأة». «لقد أُصِبْتَ في عقلكَ يا هارون!». وضحك هارون هذه المرّة بصوتٍ أعلى، واهتزّ كرشُه وهتف: «كُلّنا مُصابون في هذا العقل يا دكتور، ولكنْ أنتَ تتفوّق في ذلك علينا جميعًا». وظلّ كرشُه يهتزّ على إيقاع ضحكته، وتركه وخرج مذهولاً إلى الشّارع، وأسرعَ إلى الفَوّال: «يا أبو ياسين، يا أبو ياسين!!». وانتبه إليه الفَوّال وقد أخذه الدَّهَش: «ما بك يا دكتور؟ هل حدثَ لك شيءٌ؟!». «هل رأيتَ ليندا؟». وردّ عليه الفَوّال: «ليندا؟ مَنْ هذه؟!». «المرأة الّتي تكون بصُحبتي أحيانًا، ألم ترنا ولو لمرّة واحدة معًا؟!». «لا يا دكتور، لم أرَ معك هذه الّتي تقول عنها، ولا حتّى غيرَها!». «أنتَ مجنون». وتركه ينظر إليه مُستغرِبًا، وهُرِع إلى القهوة، كانتْ خالية من الزّبائن ومن الصِّبْية، ليس فيها إلاّ سُمعة، وقطعَ الفراغ الّذي يفصله عنه، وكان سُمعةُ يجلسُ مُتراخِيًا إلى إحدى الطّاولات، ولمّا صارَ فوقَ رأسِه، سأله: «لا تقلْ لي إنّكَ لم ترَ ليندا أنت الآخَر؟ متى آخر مرةٍ رأيتَها، أريدُ أنْ أقولَ لها شيئًا؟». «يا دكتور الدّنيا صباح، والنّاس تقول يا فتّاح يا عليم، مَنْ ليندا هذه؟». «يا أخرق، لقد جلسْنا إلى تلك الطّاولة في الزّاوية البعيدة أكثر من عشرين مرّة، ألم ترها معي في طاولتي؟! هناك... هناك». وأشار بعصبيّة إلى

المكان الّذي اعتاد أنْ يجلسَ فيه. «لم أرَ أحدًا يتشاركُ معك طاولتك أبدًا». «هل أنتم مجانين؟». وصفع جبهَته بباطن كفّه اليُمنى، وصرخ: «هل ليندا من صُنعِ خيالي؟! كلاّ» ونفضَ رأسه مُنكِرًا سؤاله الذّابح، وهتف: «لقد قالتْ إنّها حاملٌ بسببي، هل يُمكن أنْ أتخيّل أمرًا حقيقيًّا كهذا؟ لقد طردتُها يومَ أخبرتْني بذلك، ثُمّ عادتْ لتظهر لي في الشّارع وتقول لي: أنا أنتَ، فكيفَ لا تكون موجودةً؟» وتراجع إلى الخلف وهو ما يزال ينظر إلى سمعة، وسُمعة يُبادِله نظرات الاستِغراب، وهو يقول في أعماقه: «إنّ مستوى الخَبَل الّذي وصل إليه الدّكتور خطير، هل كان طبيبًا حَقًّا، أم أنّه أحد المعاتيه الّذين قذفتْ بهم الأقدار إلى قهوتي؟!». وظلّ صامِتًا، فيما راح نديم يتراجع إلى الوراء، ثُمّ يلفّ جذعه، ويُطلِقُ ساقَيه للرّيح، وهو يصرخ: «كلّكم مجانين... كلّكم مجانين».

هُرِعَ إلى غرفته، صعد الدّرجات قفزًا، وعينا هارون تتبعانه وهو يضربُ كَفًّا بكفّ، ويقول: «لقد انقطعَتْ آخرُ شَعرة». وفتح الباب، ثُمّ عمدَ إلى الشُّبّاك، ونظر إلى الصّحن الّذي كانتْ تنامُ فيه مبروكة فوجده خالِيًا، قذف بالوسادة خلفه، وأخذ الدّفتر بينَ يدَيه، وضمّه كما تضمّ الأمّ الثّكلى ابنًا ودّع الحياة، ووقفَ

قليلاً ينظر إلى الخِزانة الخضراء وقد ثَقَبَه الحزن، وتمنّى أنّها لا تزال تحمل حقيبته الجلديّة ذات الحراشف الأفعوانيّة. ولكنْ هيهات! ونزل الدّرجات، وهتفَ بهارون حينما صار في مُحاذاته: «الغرفة خاليةٌ منذ هذه اللّحظة، يُمكنك أنْ تُؤجّرها لزبونٍ جديد». وأجابه: «ادفع الأجرة المُتراكِمة عليك». «ستجدُ فيها ما يُغنيكَ عن الأجرة». «ادفع يا دكتور». وأجابه وهو يُعطيه ظَهره خارجًا من باب الفندق: «سأبعثُ لك بها حينما أستطيع».

وخرجَ إلى الشّارع، ولكنْ هذه المرّة ليسَ إلى الشّارع الّذي نما في عقله طَوال سنوات إقامته في أوّله في غرفةٍ قذرة في فندقٍ رخيصٍ، بل إلى القرية، وأخذَ على ضوء النّهار الطّريق الّتي دَلّه عليها الدّراويش!

(22)

في القلبِ مُتّسع!

الدّروايش يعرفون الله، قَدّسَنا اللّهُ بأسرارهم، إنّهم أهلُه، لقد رأوه بقلوبهم، وعليه هو أنْ يراه وإنْ لم يقفْ موقفهم حتّى ولو مرّة واحدة؛ فالله في قلبِ كلّ أحد. وصلَ إلى الوادي، من هناك بدأ يصعد إلى السّفح، السّفح الّذي يحتضنُ القرية كأنّها طفلة، وهي ما زالت طفلةً كما تركها، هي هي لم يتغيّرْ عليها شيءٌ، كأنّما تعيش خارج الزّمن، أو كأنّه لا يمرّ بها إلاّ شبابًا. وها هو يعودُ إلى طفلته، وها هي تتراءى له من بعيد كأنّها تضحكُ له، ضحكات الأطفال شِفاء القلوب المهمومة، مَن يهبُ رُوحَه اليتيمة بعضَ العَزاء؟!

وكان قد أتمّ صعودَ السّفح، ثُمّ تراءى له بيتُه من بعيدٍ، بكى أوّل ما رآه، بكاءً ربّما كان يفتقده لسنواتٍ؛ هل كان يبكي شوقًا إلى أيّامه فيه، أم حنينًا إلى مرتع الصّبا، أم توقًا إلى أبيه الّذي كان له كلّ شيءٍ، أم حُزنًا على ما آلت إليه الدّيار البلاقع؟ والمعاهد الخراب؟ أم رثاءً لنفسه الّتي عاشَ معها غريبًا؟ وشعرَ أنّ عددًا من السّكاكين تطير في الفضاء وتنغرز في صدره دفعةً واحدةً، وأحسّ أنّ دمًا صبيبًا راح يتدفّق من قلبِه، وأنّه ينزفُ بشدّة، ولم يتمالك نفسه، فهوى على قدَميه،

وراح ينحبُ بحرقة، وعفّر وجهه بالتّراب، وأخذَ ينثره على رأسه، واختلط التّراب بدموعه، وازداد نحيبُه، ولم يدرِ هذه المرّة إنْ كان بُكاؤه بسبب عودته، وأنّه سيبدأ المحاولة الثّانية في البداية من جديد؟ أم سبب ذلك أنّه تخلّص من بعضِ الماضي؟ فهل فَعَلَ حَقًّا؟ ولكنْ إذا كانتْ هذه بداية، فمن يبدأ مع الخراب؟ مَنْ يبدأ مع كلّ هذا الموت الماثل في حديقة البيت، والبيت، والمكان كلّه؟ مَنْ يبدأ من الهلاك؟ أيكون الموتُ الماثل باعِثًا على الحياة المُشتهاة؟ أيكون واسطة العِقد؟ أمْ خيطَها النّاظم الّذي يسلكه فيها حتّى ينتهي كلّ هذا الخُواء؟ مَنْ يَعبُر الآخَر ليوصل الأحياء عبر جسره إلى الضّفّة؟ الموت يعبر الحياة. فَلِلموت سطوتُه وللحياة وداعتُها؟!

ووقف على قدمَيه، ومسح دموعه، وواصل سَيْره إلى البيت، كانتْ قد بقيتْ له خطوات حتّى يقف على أوّل السّاحة المُمتدّة أمامه، مِن هناك شاهد كلّ شيءٍ عن قُرب، رأى البيتَ المُحترق، والنوافذ المُحطّمة، والجُدران السّوداء، والغربان الّتي تحلّق فوقَه ولها غطيط. وتقدّمَ أكثر، وأرسل طرفَه إلى شجرةِ الزّيتون، فإذا هي قد تبدّدَتْ ولم يبقَ منها إلاّ شيءٌ من ساقِها الغليظة المملوءة بالشّقوق والثّقوب، كانتْ تشهدُ موتَها وجريمتَه، لكنّها اهتزّتْ قليلاً، ما تبقّى من جذعها

الثّابت في الأرض اهتزّ قليلاً، وخُيّل له أنّها تُحيّيه، وتُرحّب بعودتِه، لقد كان يُحبّها، فهل يصلُ حُبّها إلى الحدّ الّذي تغفر له خطيئته الكُبرى، هل يتحرّك العاشقُ الميّت لأجل العاشق الّذي ظلّ حَيًّا؟ ما الّذي في قلبِها له حتّى تُسامِحه؟! هل يجدُ فيها تعريفًا صادقًا للحبّ الّذي ظلّ يهربُ منه؟! وأحدّ النّظر فرأى أنّ أعلى ساقِها المُحترِق قد اخضرّ، ونفضَ رأسَه ليتأكّد من أنّه لا يتخيّل، لكنّه كادَ أنْ يبكي، وعضّ على شفتَيه، وهو يرى جذعًا ليّنًا يخرج من تلك السّاق، وينمو، هل تعودُ من الموت؟ كيفَ يُمكن له أنْ يُحييَ موتَها ولم يكنِ المسيح؟ واقتربَ منها أكثرَ حتّى صار لصيقًا بها، ثُمّ هوى على رُكبتَيه، واحتضَنَها طويلاً، وألقى برأسه على ما تبقّى منها، وراحَتْ دموعه تسّاقطُ فوقَها، وشعرَ مرّة أخرى أنّها تتحرّك، وأنّها تنفضُ عنها غُبار الموت، وسرتْ فيه قشعريرة، وهتف: «ما زلتُ أحبّك؟ هل تكفي هذه الكلمة من أجل أنْ تعودي لي؟». ثُمّ فكّ ذراعَيه، وجمَع ساقَها بين كفَّيه، وأحنى رأسَهُ عليها كأمٍّ حيلَ بينَها وبينَ وحيدِها، وهوى بشفتَيه يلثُمها، وهي تنسحبُ من داخلها لتخرج من رمادها، وهتف: «ليستْ قُبلةَ يهوذا يا زيتونتي العزيزة ولن تكون، إنّها قُبلة الحياة!».

ومضى يجول في ساحة البيت، فرأى سيّارة

اللادا تجثمُ في موقعها، ولم يبقَ منها إلاّ هيكلٌ صَدِئ، واقتربَ منها أكثر، ونظر إلى موضع الكرسيّ الخلفيّ فتخيّل الجُثث الّتي كان يسرقها من مختبر التّشريح ويُلقيها في ذلك الموضع، وشعرَ أنّ الأرضَ تدور به وهو يتذكّر ذلك العهد، وتماسكَ، ثُمّ نظر في صندوقها الخلفيّ، فإذا هو صندوق الحكايا يروي كلّ مَنْ حمَلهم فيه!

وقادَته خُطُواته إلى قبر أبيه، فرأى أنّه قد ذَرَته الرّيّاح، وأنّ ما حفَره منه قد رُدِم بفِعل السّافِيات، ولم يعدْ موضعه ظاهرًا إلاّ ما خفي، وعَنّ بباله أنْ يحفره من جديدٍ، لعلّه يعثر فيه على بقايا من بقاياه. وبدأ يحفرُ بيدَيه وأظافره بشكلٍ سريع، وراحَ يلهثُ، وتوقّف في منتصف الحفر، وتساءل: «ماذا يُمكن أنْ يجدَ مِنْ عِظامه الّتي ابتلعها البحر، أو من جمجمته الّتي تدحرجت بين الأشجار العالية؟! ونظرَ حولَه بأسًى، واستمرّ صمتُه لَحَظات، قبل أنْ يعودَ إلى الحفر بشكلٍ جنونيّ، ولا يتوقّف حتّى يعثر على شيءٍ، شيءٍ صغيرٍ، ورَفَعه أمام ناظِرَيه، وبخبرته في التّشريح عرفَ أنّها العظمة الّتي تعود إلى إصبع السّبّابة، وقدّر أنّها السّبابّة الّتي كانَ يعزفُ بها على العُود، واجتاحتْه الفرحة فاهتاج، ووقفَ على قدَميه وهو لا يزال يُحدّق فيها،

وراحَ يضحك بشكلٍ هسيتيريّ، وقرّر أنْ يُنظّفها، ويحتفظَ بها: «لئنْ فاتني الكلّ إنّ في الجزء عَزاء».

وسرقَ خُطواته باتّجاه الدّرجات الّتي كانت زهور الخشخاش تتسلّقها، فوجدها شبحًا هامِدًا، وأثرًا بعدَ عينَ، وصعد تلك الدّرجات حتّى إذا صارَ أمام عتبة البيت أصابَته رَهبة، إنّها رهبة المكان الّذي كان لكَ كلّ شيءٍ، بيتُكَ الّذي آواكَ وحنا عليك، ثُمّ قتلْتَه، وألقمْتَه للنّيران، ثُمّ ها أنتَ تدخل إليه بهذه البساطة، كأنّما ليس له حُرمة، ولا إحساس، ولا قلب... وكأنّ خطاياك كلّها بحقّه مغفورةٌ أو مَنسيّة، ورجفتْ ساقاه، وارتبكَ، ولكنّه شَجّع نفسَه: «فِي القَلْبِ مُتسعٌ لكلّ خَطِيئةٍ غَمَسَتْكَ في أَدْرانِها... فِي القَلْبِ مُنعرجٌ إلى غُفرانِها... فاعْبُرْ، فإنَّ اللّهَ يَدعُو كُلَّ جارِحَةٍ إلى نِسْيانِها». ومضى.

عَبَرَ حجرات البيت حجرةً حجرة. دخل إلى المطبخ، فرأى ظِلال أُمّه فيه، هنا كانت تُقطّع الخَضْروات، وعلى هذه كانت تسلق العدس، وهنا كانت تحمل سَلّة الأغراض، وهنا كانت تقفُ لكي تنظّف ما تساقطَ من قذاراته، وهنا كانت تلفّ على وسطها ملاءَتها وهي تجهد في أنْ تُشبع الأفواه الجائعة... ورأى خَشَبه القديم قد احترقَ كُلّه، وأنّ السّناج والغُبار وعَصْف الأوراق اليابسة، قد غطّاه، وملأ زواياه،

وحشراتٍ كثيرةٍ تلهو في أنحائه، وأرسل نظرةً إلى الثّلاّجة، فرآها قد تآكلتْ وهمدتْ كأنّها عجوز قد ماتت ولم ينتبهْ لموتها أحدا! وكان كلّ شيءٍ على هيئته لكنّ يدَ الحريق قد مرّتْ عليه، وبدا أنّه لم يدخل إلى هذا البيت بعد حريقه قبل ما يقربُ من خمس سنوات إلاّ الجنّ أو الكلاب الضّالّة أو الهَوامّ. ومضى إلى غرفته، فرأى بقايا من الخشب المُحترق، ولم يعدْ من سريره شيءٌ إلاّ قوائمه الحديديّة، وعبر تيّارٌ من الهواء النّوافذ فحمل إليه رائحة الماضي فخفق قلبُه، ثُمّ مضى إلى غرفة أبوَيه، وتناهتْ إليه أصواتُ أبيه قادمةً من الماضي وهو يصرخ في وجه أُمّه، وأمّه صامتةً ترسل نظرها في الأرض، وشعر أنّها مسكينة بقدر ما شعَرَ بقسوة أبيه، وخطر بباله أنْ يسأل نفسَه: «مَنْ منهما لم يفهمْ صاحبه؟!». لكنّه ترك السّؤال يقع على الأرض مثلما وقعَ تاريخُه كلّه، وتركَ غرفته ليذهب إلى المكتبة، وهناك أصابَه قنوطٌ، ونزفَتْ روحُه، لقد قتل أكثر من ثلاثة آلاف كتابٍ، وعرفَ معنى سؤال أبيه الّذي نهضَ من القبر يوم ترك البيت: «ما الفرق بينك وبينَ كلّ من أعدموا الكتب في التّاريخ أيّها الولدُ العاقّ؟». وشعر بحزنٍ عميقٍ، وتمنّى لو أنّ أباه ما زال حَيًّا ليعتذر له عمّا فعل، وودّ لو يجدُ مخلوقًا أيًّا كان ليطلبَ منه الغُفران على فِعلته الشّنعاء، ونظر إلى

الموضع الّذي كان أبوه يُعلّق فوقَه العُود، فلم يرَ فيه إلاّ ذلك المسمار، ظلّ صامِدًا شاهِدًا على خيانته، ونزفَ أكثر، وهو يتخيّل الأريكة الّتي كان يجلسُ فيها إلى أبيه، ويتناشَدَان الأشعار، وأدركَ فداحةَ ما صنعتْ يداه، وتخيّل أنّ أذرع الكُتّاب طويلةً ومُرعِبة تخرجُ من بطون الكتب وتتّجه نحوه تريدُ أنْ تلتفّ على عنقه وتخنقه، وهي تصرخ: «قتلْتَنا قَتَلَكَ اللّه». وتراجَعَ إلى الوراء وهو يبكي ويختلطُ بُكاؤه باعتذاره: «لم أكنْ أقصدُ كلّ هذا... سامحوني». وخرجت الكلمة الأخيرة ممغوطةً مع دموعه المُنهمرة، وأرادَ أنْ يهربَ من المكان، وهتفَ وهو يقفُ على العَتَبة: «أنا لا أستحقّ أنْ أعيش في البيت الّذي عاشَ فيه والداي، إنّني أقلّ من أطأ الأرض الّتي وطِآها». وخرجَ يركضُ، لكنّه توقّفَ في وسط السّاحة، ولكنْ: «إلى أينَ يهرب؟». وأجابتْه نفسُه: «إلى الكهف، فهو لِياذ الآيبين».

(23)

مَنْ يَحرقُ بيتَه؟!

إنّها السّماء، وإنّه اللّه، وإنّه يدعوه إليه، كانتْ جوارحُه كلُّها هذه المرّة تُصغي، الجوارح الّتي كانتْ صَمّاء طَوال ثلاثة عقود عن مثل هذا النّداء عادتْ لتسمع. كان عليه أنْ يفتح قلبَه، ويسمح لروحه بأنْ تُحلّق، ما أهونَ الأمر لو فَكّر بهذه الطّريقة من قبل!

النّجوم تضحك، لماذا يراها تضحك؟ هل اختلفتِ النّجوم هذه المرّة عن تلك النّجوم الّتي كان يراها من الكهفِ ذاته مع أبيه؟ هل كان أبوه سببًا في عُبُوسِها في ذلك الزّمن أم هو؟ ونظر من كهفه إلى الأرض أمامه فلمعتْ نبتةٌ في الظّلام؛ هل هي نبتة الخشخاش؟ وحنّتْ نفسُه إلى شَرابِها، فقامَ من كهفه وسارَ إليها، فلم يكدْ يعبرُ خطوةً واحدةً خارجَ الكهفِ حتّى انطفأتْ. ومضى إلى موضعها، فوجده خالِيًا، ليسَ فيه إلاّ التّراب، فعادَ إلى الكهفَ ونظر إلى حيثُ هي، فرآها تلمع من جديد، وابتسم؛ هل تراودني هذه النّبتة اللّعينة؟ إنّها فاتنةٌ لَعوب؟ والأمر لا يتطلّب كثيرًا من التّفكير، إنّها ليست موجودة؛ عقلُه هو الّذي يُصوّرها له، وتلا آياتٍ من القرآن، وهدأتْ نفسُه، ثُمّ عَزَم على أنْ يستظهر القرآن كُلّه على طريقته الّتي علّمها له شيخُه

في مسجد الصّفا، وراحتْ شَفَتاه تقرآن، وعَزَم على أنْ يُمضي ليلته الأولى وهو يقرؤه، فلمّا تسلّل الفجر إليه من خلل الجذوع غَفا، فرأى في غفوته أباه والشّيخ، كان أبوه يقول: «يا بُنيّ هَلُمّ إلينا». والشّيخ يقول العبارة نفسَها: «يا بُنيّ هلمّ إلينا». ثُمّ يتجادلان: «قتلتَه». فيردّ: «بل أنتَ الّذي قتلتَه!». «إنّه من طينتني، وأنا أبوه، نسلَ من ظهري». «إنّه من طينتنا، وأنا شيخُه، نسلَ مِن كُتّابنا». «إنّه ماركس». «بل هو ابنُ عبّاس، فما أغنى ماركس عنه شيئًا». «وهل يُغني عنه ابنُ عبّاسٍ هذا؟». وعلا صوتُهما، ثّم سقطتْ ثمرةُ جوزٍ من شجرةٍ غريبةٍ فنبَّهَتْه، وصحا. فلمّا صحا راح يقرأ بيتًا من الشّعر ويُتبِعها بآية، ثُمّ بيتًا وآيةً أُخريَين، وهكذا حتّى تلعثمتْ شفَتاه وتداخلتْ فيهما الحروف، فلمْ يدرِ من يسبق الآخَر، حروف الشّعر والفلسفة أم حروف القرآن. وقضتْ شفتاه نهاره ذلك وهما تتذبذبان، فلمّا شعرَ بالعطش، نزل من الكهف إلى البِئر، فألقَى دلوه، ثُمّ سحبه، ورفعه إلى فِيه وراح يعبّ من الماء، وهو يقول في نفسه: «ما أبردَ هذا الماء وما ألذّه!». ثُمّ راحَ يسكبُ منه على وجهه وشَعره وجسدِه، وملأ دلوًا ثانيةً ففعل الفِعل ذاته، ثُمّ ملأ دِلاءً كثيرةً وسكبَها على نفسِه حتّى ظنّ أنّه لم يعدْ في البِئر ماء!

وعادَ إلى الكهفِ، وقَضَى ليلتَه الثّانية يستظهر ما تبقّى له من القرآن، فما عتم حتّى أنهاه، ثُمّ نام مُستريحًا، ورأى في النّوم أباه والشّيخ من جديدٍ، وهما يتجادَلان: «لقد حفظ القرآن، فهو ابنُ عبّاس». لقد حفظ البيان الشّيوعيّ؛ فهو ماركس». «لقد كان ماركس مُلحِدًا». «لقد كان ابنُ عَبّاس ينام خلفَ أذناب الإبل». «هذا لا يعيبُه». «الإلحادُ دينُ العصر». «إنّه لا دين يا فهيم». «إنّ دينكم لم يعدْ له من وجودٍ إلاّ في المتاحف والأحافير، إنّه رجعية». «أنتم التّقدّميّون ماذا صنعتُم؟». «صنعنا الحضارة. ولولا ما صنعناه ما عاش النّاس». «لقد صنعتُم الضّياع والخواء، والنّاس بكم أو بدونكم تعيش». «إنّه لا يعيشُ مَنْ لم يكنْ ماركس في قلبه». «إنّه لا يعيشُ مَنْ لم يكن اللّه في قلبِه». وعَلا صراخهما أكثر من المرّة السّابقة، وضجر من جِدالهما العقيم، ورأى نفسَه يصحو من حلمه، ويقفُ على قدمَيه، ويصرخُ فيهما: «كفى». وتوقّفا، وهما ينظران إليه مشدوهَين، وخطا نحوه الشّيخ فضمّه إليه: «أنتَ لنا». وانتزعه أبوه من بين يدَيه واحتضنَه: «أنتَ لي». وتخلّص من بين يدَيه، ورجعَ إلى الوراء، وصرخَ بهما: «أنا لستُ لأحدٍ، أنا لي». ورآهما يخرجان من باب الكهف مُنكّسي الرّؤوس، مَحنيّي الظّهور، كأنّهما عَجوزان نَحتَ مِعولُ الدّهر أَثْلَتَهُما. وقذف بعبارته

الأخيرة طعنةً في ظهورهما: «لقد ماتَ ماركس وابنُ عبّاسٍ فِيّ، لا أريدُ أنْ أراكما في كهفي بعدَ اليوم!». واستلقى في الحلم على ظهره، واستسلم للنّوم.

أيقظتْه أصواتُ الطّيور، وحفيف أوراق الشّجر، وصوتُ ماء... ماء يجري في أعماقه، ليسَ ماء النّهر ولا البركة ولا البِئر، ماءٌ جديد، ورآه يكنسُ وخمًا في رُوحه، وقامَ عَطِشًا، مشى إلى البِئر، واختلفَ الماء، فشربه بيقينٍ، ثُمّ عَنّ له أنْ ينزل إلى القرية فيسأل عن الشّيخ، وعزم على أنْ يُنفِذَ طِيّته، فنزل، ومرّ في طريقه بالبيت، فعنّ له أنْ يدخله، فلمّا صار على عَتَبتِه، سمعَ صوتًا ناعِمًا من خلفه يُناديه: «يا دكتور... يا دكتور». فانتبه، فإذا هي، ذات المنديل القرمزيّ، وعيناها هما هما، كَحلاوان واسِعتان لا يُمكن أنْ يُخطِئهما. وحدّق فيها، ومرّتْ لحظات قبل أنْ تقول: «لماذا تنظرُ إليّ هكذا؟». وهمّ أنْ يسألها: أأنتِ أنتِ؟». ولكنّها تابعتْ قبل أنْ يسألها: «نعم، أنا هي، الّتي كنتَ تسألها قليلاً من الخُبز في تلك الأيّام». «ما الّذي أتى بكِ إلى هنا؟». «بل أنتَ ما الّذي جاء بك؟ غبتَ عن هذا البيت أكثر من خمس سنين، والآنَ تسألني؟ أنا أمرّ من هنا كثيرًا فأنا أرعى شِياهي في هذه الأنحاء». واقتربَ منها، وابتسم: «ألديكِ قليلٌ من الخبز؟». «بالطّبع أيّها

الطبّيب...». وتوقّفَتْ قبل أنْ تُتمّ بدلال: «العبقريّ». واتّسعت ابتِسامته، ومدّتْ يدَها إلى جِرابها، فأخذتْ رغيفًا منه، وناوَلَته إيّاه: «إنّه طازج، وساخنٌ، لقد خبزتُه هذا الصّباح... خُذْ، لا بُدّ أنّكَ جائع». وتناول الرّغيفَ، وقضَمَ منه قَضْمةً، فشعرَ أنّه خُبز الحياة، وقال: «لم آكُلْ من قبلُ خبزًا شَهِيًّا مثلَه». «هل أخبز لك وأُطعِمك؟ إنْ شِئتَ جئتُكَ بِقُفّةٍ منه كلّ صباح». «وهل أحدٌ يردّ معروفًا جميلاً مثل هذا من جميلةٍ مثلك؟». وتجاهلتْ غَزَله، وسألته: «مِن أيّ طينةٍ أنتَ؟». وفاجأه السُّؤال، ورأه سؤالاً فلسفيًّا لا يخرج من راعية، وعبرتْ في ذهنه كلّ طيناته، وهَمّ أنْ يقول لها: «مِنْ طينتكِ أيّتها الجميلة». ولكنّها أتبعت سُؤالَها قائلة: «لماذا أحرقتَ البيت؟ ألم تكنْ تعيشُ فيه بسلام؟ مَنْ يحرقُ بيتَه؟!». وردّ بحُزن: «تلك قِصّة طويلة». «يُمكنكَ أنْ ترويها لي». «لا وقتَ لديّ». «يُمكن أنْ ترعى معي الشّياه وتُحدّثني في الأثناء، ماذا لديكَ حتّى لا تقبل بهذا، الأنبياء كلّهم رعوا الشّياه، ألا تريدُ أنْ تكونَ مثلهم؟». وردّ: «فِعلٌ مُقدّسٌ مثلَ هذا لا يحتمله إلاّ الأولياء، وأنا لستُ وليًّا بما يكفي لأتبعَ شياهك أيّتها الجميلة». «إنّه سَهْل وممتع». «إنّه مُقدّس». «إذًا ليسَ بوسعك الرّفض». وأطرقَ برأسِه، وتابعَ أكل الرّغيف بصمتٍ. وأرادَتْ أنْ تسير مع شياهها

إلى مرعاها، فاستوقفَها: «هل لي أنْ أسأل سؤالاً؟». وردّتْ وهي مُولّيةً ظهرَها له: «اسألْ». «ما أخبار الشّيخ؟». ولفّتْ جِذعها هذه المرّة، وأقبلتْ عليه، فرأى وجهها رغيفًا من الخبز أسمرَ ناضِجًا شَهِيًّا، وقالتْ: «الشّيخ؟». «إمام مسجد الصّفا». وخفضتْ طرفَها قبل أنْ تقول: «مات منذ عام». وشهقَ شهقةً أجفلتْها، فسألتْه: «تعرفه؟». «إنّه شيخي؟». «لقد مات. البقية في حياتك». «وأينَ دفنوه؟». «في المقبرة الفوقا». وشهقَ مرّة أخرى، والتفتَتْ إليه مُستفهمةً من شهَقَاته المتتابعة: «إنّها المقبرة الّتي دُفِنتْ فيها أمّي... ولكنْ ألم يقولوا إنّها أُغلِقتْ، فلم يعدْ فيها موضعٌ للدّفن؟». «الشّيخ يا دكتور هو مَنْ كان يتولّى أمرها منذُ أوّل قبرٍ حُفِر فيها، وإلى آخر قبر، ولكنّه كان يحتفظُ لنفسِه بقبرٍ فارغٍ، عندَ بابها، يزوره كلّ عيدٍ وهو حَيّ، وينامُ فيه ليلةً كلّ شهر». «هل كان مجنونًا؟». «كلّنا مجانين بصورةٍ أو بأخرى». ولم يتمالك نفسَه من الضّحك، فأطلقَ قهقهةً عاليةً، فاستدركتْ: «سمعتُ أنّه كان يفعل ذلك ليُذكّر نفسَه بفناء الدُّنيا، وقدوم الموت، والاعتياد عليه». «يا للشّيخ!». وشهقَ شهقةً جديدة. ومضتْ في طريقها، وقالتْ وهي تمضي: «هل لديكَ سؤال آخَر؟». «هل تمرّين من هنا دائمًا؟». «منذ أكثر من عشر سنواتٍ». «فلماذا لم أكنْ أراكِ قبل أنْ أغادر هذا

البيت؟». «لأنّكَ لم تكنْ ترى». وصعقتْه العبارة الأخيرة، ولكنّها أتمّتْ: «فإذا أردتَ أنْ تراني، فإنّ الصّباحَ موعدُنا». وثغت الشّياه فمضتْ بها إلى غايتها. وغابتْ عن نظره وسطَ ذهوله.

وهبطَ إلى القرية مُسرِعًا، حتّى إذا وافاها عرج إلى مسجد الصّفا، فدخله، فلم يجدْ فيه أحدًا، وهبطَ الدّرجات إلى الموضع الّذي كان يحفظُ فيه القرآن على يد الشّيخ، فإذا هو مُعتِم، وإذا المحراب الصّغير مهجور، وأضاء النّور، ثُمّ تقدّم إلى مجلسه من الشّيخ، فوجد مُصحفه الّذي كان يحفظُ منه قد علاه الغُبار. وخرجَ من المسجد مُهروِلاً، وقصدَ إلى المقبرة، فرأى بابَها مُغلَقًا، وإذا الشّارع الّذي أمامها تعبره السّيارات، ويتصايح فيه النّاس وهم في بضائعهم كأنّ الموت الّذي يرقبهم خلفَ هذا الباب ليسَ في حُسبانهم، وتسوّر الباب، وقفز فإذا هو بقبر الشّيخ، فجلسَ إليه، وقرأ على روحه الفاتحة، ثُمّ نامَ إلى جواره، فلمّا جَنّ اللّيل قام فسأله: «تعرفُ أنّني لستُ ابنَ عبّاس، فلماذا حمّلَتني وِزر الاسم؟!». ولم يسمعْ سِوى حفيف أوراق شجر الحور الّذي يحفّ بالمقبرة، ثُمّ جثا على رُكبتَيه، وسأله: «ما الدّنيا؟». وعصفتْ أوارق الحور من جديد، وتابَع أسئلته: «ما الموت؟ إلى أينَ نمضي؟ وهذا الّذي

أنتَ فيه هل تمكثُ فيه طويلاً، أم يأتيكَ مَنْ يأخذُ بك إلى إحدى الطّريقَين؟». وظلّ يسأله، وحفيف أوراق الحور يُجيبه حتّى نزفَ أسئلتَه كلّها، وقام من عنده، وهو يقول: «كنتَ على خطأ، وكان أبي على خطأ! لم أكنْ لأحمل آثامكما عِوَضًا عن أنْ أحملَ آثامَ ماركس وابن عبّاس». وتركَ القبر، وهَمّ أنْ يذهبَ إلى قبر أُمّه وخالاته السّتّ، ولكنّ رِجلَيه لم تُطاوعاه، وفكّر: ربّما في مرّة أخرى، عندما يكون في القلبُ مُتّسع لهذا الحُزن القاتل. وترك المقبرة فعادَ إلى الشّارع، وسمع تهارش النّاس كتهارشِ الكِلاب، وعَبَرَهم كأنّه لا يراهم، مع أنّ بعضَهم كان يتهامس على مسمعٍ منه: «أليس هذا الدّكتور نديم، أليس ابنَ الشّيوعيّ الملحد؟ أليسَ هو ابن عبّاس؟ ألم يكونوا يُنادونه في المدرسة حافظ؟» وكان يسمع أسماءَه كلّها يهمسُ بها النّاس على حسب ما يرونه، من تلك الزّاوية الّتي عرفوه من خلالها، أو نظروا من مِرقابهم إليه!

وعَبَرَ القريةَ حتّى شَمالها، وظلّ يصعدُ حتّى مرّ ببيته في السّفح، فرأى شجرة الزّيتون كأنّها تُعيدُ خلق نفسِها، واستغفر الله من خاطره الأثيم، وأعادَه: كأنّما يُنشِئها الله خلقًا آخَر. ورأى عينَي سيّارة اللادا فارغتَين مُطفأتَين، وقد أكل الصّدأ قوائمها، وأبلتِ الرّيح

والأمطار فرشَها، وكسر العصفُ زُجاجَها، وذرّ طحينَه في كلّ جهة، ولم يبقَ من دواليبها إلاّ الحديد، وكانت الرّيح تصفر من خلالها كأنّها تهمّ بمُراقصتها. وشعر بالطّعنات تنغرز في صدره من جديدٍ، فتركَ البيت، وهرول باتّجاه الكهفِ في القمّة، كأنّه يهربُ من بيتِه ليجدَ فيه ملاذًا آمنًا، وملجأً يحميه من الضّياع.

واستقرّ في الكهفِ وهو يلهث، وجنّ عليه اللّيل، وقلّبَ وجهه في النّجوم، وهمسَ همسًا يرشح بالرّجاء: «أيّها العالي دُلّني».

(24)

أكلّما مشيتُ إلى النّور سقطتُ في الوَحشة؟!

يُمكنني أنّ أتحرّر منّي، يُمكن لهذه الكتلة الصّغيرة المُتعفّنة في دماغي أنْ تُعيدَ تأهيل نفسِها، أنا لستُ آلةً صَمّاء، ولستُ حديدًا مُتآكِلاً، أنا طوفان من المشاعر المُتناقِضة، وعليّ أنْ أستصفي الجَمال، وأنبذ الخَبَث». هكذا حدّثَ نفسَه، واللّيل يُوغِلُ في ظُلُماته، ورآها في موضع زهرة الخشخاش تُضيءُ في تلك العَتَمات كأنّها البدر، وضيّق عينَيه، «هل عادَ إلى تهيُّؤاته؟». كلاّ، إنّها هي، وسألها هل إليكِ من سبيل؟ وضحكتْ، فقال لها، إنّه البيت:

يُبِنّ لِيَ البدرَ الّذي لا أريدُهُ

ويُخفينَ بدرًا ما إليه سبيلُ

كانتْ تجلسُ وابتسامتها تُشعّ في الظّلام، وهي تعقدُ يديها فوقَ رأسها، وتُغنّي أغاني الرُّعاة الشّجيّة. وقامَ، وشعرَ بقلبِه يخفقُ بين ضلوعه: «هل تكونُ قدَرَه الّذي ظلّ يهربُ منه؟». ومشى تلك الخطوات القلائل، حتّى إذا ما اقتربَ منها، ذابتْ في الظّلام، واختفى البدر الّذي كانَها، وغرقَ هو في العتمة، وحَزِن: «أكلّما مشيتُ إلى النّور سقطتُ في الوحشة؟». وعادَ أدراجَه إلى

الكهفِ خائِبًا: «ما زال فِيّ بعضُ الخبث؟». وظهر له نديمٌ في زاويةٍ من زوايا الكهف، وقال له: «ما أقدمكَ عليّ، ولا كأسَ عندي، ولا مال؟». فقال: «الكأسُ قلبُك، والشّرابُ ذِكرُكَ إيّاه». «ولكنّ قلبي مليءٌ بالنّدوب». «فاشربْ، فإنّنا تالِفون». «لقد تركتُ كلّ ذلك وراء ظهري». «لكنّه لم يتركْك». «ليسَ بيننا عهد حتّى لا يتركني». «بل ليسَ بيننا مسافةٌ حتّى تكون سِواي، إنّما أنتَ أنا، وأنا أنت». «كلاّ...». وصرخ: «كلاّ، إنّنا مُختلِفان، لقد وُلِدنا مُختلِفَين، وليسَ لك الحقّ في أنْ تكونني، لن أكونَ بعدَ اليومِ سِواي». «مسكين! أنتَ مسكين! انظر إلى حالك أيّها البائس، إنّني أُشفق عليك». «لستُ بائِسًا ولا ضعيفًا حتّى تُشفق عليّ، وبإمكاني أنْ أنتصر هذه المرّة رغم هزائمي المتلاحقة، وانكِساراتي الّتي لم تنتهِ... بإمكاني أنْ أنتصر... هل تسمعني؟ بإمكاني أنْ أتغلّب على شخوصي كلّهم، إنّهم ليسوا إلاّ أسماءً، لم يكنْ لهم منّي إلاّ تلك الأسماء الّتي أُلصِقتْ بي، أمّا روحي فلي، وأمّا جسدي فسيعود لي... هل سمعت؟». وقهقه نديم، قهقةً تردّد لها صَدى في الكهف، وراحتْ تصكّ أُذنَيه، وسمعه يقول: «لن تتخلّص منّي، ولا من أشباحِك». وتعالت الضّحكات حتّى خرجتْ من الكهف، وردّ صارِخًا: «لن أنهزمَ أمامك، فلتذهب أنتَ وكؤوسكَ إلى الجحيم». «كؤوسي

ستتحوّل إلى رؤوس شياطين تنطبع على جدار هذا الكهف الّذي لم تجدْ ملاذًا سِواه، وعلى جدار روحك».
وشعرَ أنّ روحه تنزف، وأنّها شوكةٌ تُنزَع بشدّةٍ من كُبّة صوفٍ، وأنّها تمزّقتْ إلى ألفِ قطعة، وانشطرتْ إلى ألفِ كِسفة، وغالبَ انهيارَه، كان ينسحبُ من ماضيه، وشدّ على قدَمَيه يُثبّت نفسَه حتّى لا يسقط، وبانتْ عروق رقبته النّافرة وهو يمطّها إلى الأعلى، واحمرَّ وجهه، صرخ: «أنا له ولستُ لسِواه... أيّها العالي حرّرني... أنا كُلّي لك». وخرجت العبارة الأخيرة من الكهف مثلَ سحابةٍ مُثقلَةٍ بالمطر، وظلّت تتهادَى حتّى وصلت إلى بيتِه، فلمّا أظلّتْه بالكامل، هطلت على المكان مطرًا صيّبًا، أصابَ كلّ شيءٍ في البيت، فانتبهَ فيه كلّ شيءٍ، كأنّما كانت الأشياء أمواتًا مَسّها مطر الحياة فاستيقظتْ، وسال الماء على التّراب فأحياه، وانتدى فاخضلّ، وعلى روحه وظِلاله الّتي كانَها في ذلك المكان فانتعشتْ، وأحسّ وهو في الكهف أنّه تخلّص من جزءٍ كبيرٍ من ماضيه، وأنّ شيئًا ما قد حرّره، وأنّ بللاً أصاب روحه العطشى فأرواها، وشعر براحةٍ كبيرة، ونظر إلى الزّاوية حيث كان نديم، فرآه يذوب مثلما يذوب الملح في الماء، ويسيح من قوائمه، وينسرب في الأرض، ولا يعودُ يظهر منه شيء، وشعرَ براحةٍ أكبر هذه المرّة، وهتف: «سأقاتل كلّ أشباحي، ولو كلّفني

ذلك حياتي كلّها». وشعرَ بخفّة في جسده، وبصفاءٍ في روحه، وجلسَ على الهيئة الّتي كان يجلسُ فيها أيّام مسجد الصّفا، وراح جسده يهتزّ على إيقاع الآيات الّتي راحَ يردّدها حتّى انسجمَ في دائرةٍ تطوف به حول مركز ذاته، وذاته تصفو شيئًا فشيئًا، وألقى نظرةً عبر باب الكهف، فرأى النّجوم والكواكب والأشجار تطوف حول المركز إيّاه، إنّه مركزٌ واحدٌ للطّواف، تنسجم فيه كلّ الخلائق، وفكّر: «كلّ خروج عن هذا المركز إنّما يعني أنْ تُلقي بنفسِك في الفراغ حيثُ اللاّمعنى واللاّعودة». وظلّ يطوف حتّى ذُهِلَ عن نفسه وغلبَه النُّعاس، فنام قرير العين.

في النّوم جاءه كهلٌ وَقورٌ قد وخَطَ الشّيبُ لحيتَه، كانت عيناه تلمعان كأنّهما قطعتا فيروزٍ، ووجنتاه تحمرّان كأنّهما قِطعتا جمر، ولحيته يقطر منها العَرَق، وهو يمسح ذلك العَرق بيده ويشربه، ويزمّ شفتَيه لِمُلوحته وفسادِ طَعْمه، لم يكنْ قد رأى هذا الشّيخ من قبلُ، فلمّا اقتربَ منه سأله: «مَنْ أنت؟». «ألم تعرفْني؟!». «كلاّ، إنّني أراكَ أوّل مرّة». «ولكنّني عشتُ فيكَ زمنًا طويلاً». وحدّق فيه، وهو يُحدّثه ولا يزال يمسح قطرات العَرَق عن لحيته ويشربُها، فسأله: «ما هذه القطرات الّتي تجمعها من لحيتك وتشربها؟».

«إنّها الخمر الّذي كنتُ أشربه في الدُّنيا، فأجدُ لذّته، وأنا اليوم أجدُ مرارتَه، وقد قضى اللّه عليّ أنّ أشربها حتّى يقوم النّاس لربّ العالَمين». وصرخَ: «أنتَ أبا نُواسٍ إذًا؟». «أنا هو». «فما فعل اللّه بك بعد تلك القرون المُتطاولة». «لقد كادَ يُقذَف بي إلى النّار، فلا تسرْ في الطّريق الّتي سِرْتُها فإنّني لك ناصح». «لقد قلتَ كادَ يُقذَف بك، فما الّذي أنجاكَ من النّار». «ما رويتُه من الحديث في مطلع شبابي، وما قلتُه في أَخرةٍ من حياتي». «فما قلتَ؟». «فأنتَ أدرى». «تقصدُ قولك:

إنْ كان لا يرجوكَ إلاّ مُحسِنٌ

فَبِمَنْ يَلُوذُ ويَسْتَجِيْرُ المُجْرِمُ؟!».

«بلى، وأيّ شيءٍ سِوى ذلك، لكنّني كما ترى أتدهدَه في حَرّ عينيّ وجمرة خَدّي ومُرّ شرابي إلى يومِ الحِساب، وإنّه قد جرى عليّ القَلَم، ولم يعدْ لي من أوبةٍ وتوبة، وأمّا أنتَ فما زلتَ في بحبوحةٍ، فاقذفْ عنك اسمي، فإنّه لم يَجُرّ عليّ إلاّ الوَبال، ودَعْكَ مِمّا تفرح له النّاس وهي تتفكّه بذِكر أخباري وتطربُ لسماع أشعاري، فإنّما الشّقيّ مَنْ ذكره أهل الدُّنيا ونسيه أهل الآخرة، والسّعيد من أَخملَ ذِكرَه أهلُ الدّنيا وذَكَرَه اللّه، فاسلك إلى اللّه مُنعرجَك، يعرجْ بك إلى مراقيك».

فوقعَ كلامه من قلبه موقع الغيث من الأرض المُمحِلة، فلمّا استيقظَ كان أبو نُواسٍ قد مضى لسبيلٍ لا يُرجَى منها إيابٌ.

وهبطَ إلى القرية في الصّباح، وقال وهو في الطّريق: «يا لَها من ليلةٍ!». ثُمّ نظر الشّمس فإذا هي تبعثُ في أوصاله الحياة والدّفء، وتابع: «ويا له من صباحٍ لو أنّني لقيتُ الرّاعية الجميلة». وشدّ على خُطُواته، وهو يقفز بين الصّخور والدّروب كأنّه غزالٌ استيقظَ فيه نِداء الحياة والمرح أوّل مرّة، وبانَ بيتُه المُحترق من بعيدٍ، وهرول، وهو يُمنّي نفسَه أنْ يجدها عنده، فلّما اقتربَ رأى سِربَ الشّياه قد أراحَ قليلاً في ساحة البيت، وبدأتْ تنهضُ من مجاثمها، فقفز قلبُه بين ضُلُوعه، فلمّا رآها، هتفَ بها: «أيّتها الجميلة؟». فردّتْ: «وماذا يريدُ المجنون؟». «أنا مجنونٌ بكِ». وكانت شِياهُها عندها في تلك اللّحظةِ أصدقَ وأوفَى منه، فردّتْ: «وأينَ تنام؟». «في الكهف». «الآن تأكّد لي أنّكَ مجنون، تنامُ في الكهفِ وتترُكُ بيتَك». «إنّه للنّيران». «إنّه لك». «إنّه ذاكرتي القاتلة». «إنّه ذكرياتك الحيّة». «إنّه موحش». «إنّه عامرٌ بك». «إنّه سيكونُ عامِرًا لو قبلتِ بي!». «أنتَ؟». «وماذا ينقصني؟ ألم تكوني قد قلتِ إنّني عبقريّ». «ينقصك قلبٌ». «أأنا بلا قلب؟!».

«قلبُكَ لا يزال مُضطربًا». «لو حللتِ به لَهَدأ». «بيتُنا في الطّرف الآخَر من القرية، أمامه شجرات الجوز السّتّ». «إنّه بعيد». «إنّه لَبعيدٌ على مَنْ لم يكنْ صادِقًا». «مَنْ علّمكِ أنّ تتفلسفي؟!». وضحك. وضحكتْ هي الأخرى، وتابعتْ: «أنتَ». «أنا؟!». «نعم، أنتَ، منذ ذلك اليوم وأنا في الابتدائيّة لم يحلّ في قلبي سِواك، وكنتُ أدعوه ألاّ يُحِلّ في قلبِكَ سِواي». «وها أنا قد عُدت». «وها أنا قد عُدت كذلك». «ما اسمُكِ أيّتها الجميلة؟». وردّت: «جميلة».

وأتمّ نزول السّفح إلى القرية، وأتمّتْ هي صُعودَها إلى شعف الجبل تتبعُ خِرافَها، وظلّتْ تدخل إلى قلبه وهو يهوي حُجرةً حجرةً حتّى ملأتْ عليه الحُجُرات كلّها، ومرّ بالسّوق، ورأى النّاس يتبايَعون ويتصايَحون على عادتهم، وسار في الشّارع المُوصِل إلى المقبرة الفوقا، وهتف في أعماقه: «لقد وعدتُها أنْ أزورَها». وأوقفَه صوتٌ من خلفِ ظهره وهو يُسرِع الخُطا إلى المقبرة: «حافظ... يا حافِظ»، وانتبه فإذا هو رجلٌ من جيله في وسط الثّلاثينيّات كما قَدّر، واقتربَ منه يعرفُه، وقال له الرّجل: «أهلاً يا حافظ؟ هل عُدتَ إلينا؟». «هل أعرفُك؟». «ربّما عقلُكَ الكبير لا يتّسع لأمثالنا نحن الجَهَلة». «مَنْ أنت؟». «أنا أحدُ الأولاد

الّذين أغرقوكَ في البِركة، أنا جميل، هل تُسامحني؟».
ومَدّ يدَه إليه ليُصافح، فكَفّ حافظٌ يده، وهتف به: «لن أُسامِحكَ ما حَيِيت؟». «لقد كُنّا صِغارًا». «لقد كدتُ أنْ أموت، بل لقد عُدتُ من الموت لولا ذلك الرّاعي الّذي سحبني ونقلني إلى المُستشفى». «أتعرفُ مَن الرّاعي الّذي أنقذك؟». «كلاّ». «إنّه أبي». «أبٌ حنونٌ لا يُمكن أنْ ينجبَ قذرًا مثلك». «لقد مضى على ذلك ثلاثون عامًا يا صديقي، وانظر أينَ صرنا، كلّ ما أطلبه منكَ أنْ تُسامحني». «لا أستطيع». «ربّما في وقتٍ لاحقٍ عندما تزورنا في البيت». ومضى تارِكًا إيّاه إلى المقبرة، وسمعه يقول وهو مُولٍّ: «عندَ شجرات الجوز السّتّ».

على بابِها شعرَ أنّ قلبَه انقبض، كانتْ كلماتُ جميل هذا قد هَزّته، تذكّره الآن، إنّه أكثر الأولاد نكالاً به، لقد سبّب له في صِغَره جروحًا لا يُمكن أنْ تندمل بسهولةٍ مهما مرّ عليها من زمنٍ، لقد كان يستهزِئ به هو ومجموعة من الأولاد كِبار الحجم، وهم يضحكون: «حافظ مش فاهم... حافظ مش فاهم». حتّى ألصقوا به هذا الاسم الّذي لا يُحبّه. واليوم ناداه به، إنّه هو، ذلك اللّعين الّذي كرّهه بالمدرسة، وجعله يدفن نفسه في الكتب حتّى ينسَى أمره هو وبقيّة الأولاد، لكنّه يعودُ إليه اليوم، هل يريدُ أنْ يُذكّره بماضيه التّعيس أمْ

يريدُه أنْ يتخلّص منه؟ وهل هو قادرٌ بالفعل أنْ يُساعده على التّخلّص من هذا الجُزء الأسود من الماضي؟! والآن؛ ها هو أمام المقبرة، وهو لا يشعر بتلك الرّغبة الّتي خرجَ بها من كهفه هذا الصّباح لزيارة قبر أمّه. إنّه يشعر أنّه لا معنى لهذا الوقوف بهذا الباب! ورفعَ يدَيه، وقرأ الفاتحة وهو في مكانه قبل أنْ يدخل، ثُمّ أعطى ظهرَه للمقبرة وعادَ إلى الكهف.

ظلّ يتحرّك في الكهف، يذرع الخُطوات القلائل، يُخرِجُ دفتره الجلديّ، يقرأ ما كتب فيه، يغوصُ في ماضيه، يُغلِقه، يقرأ آياتٍ من القرآن، يصمت، يقف على قدمَيه، يُنشِدُ عينيّة ابن سينا، يحكّ رأسه، يأتي بحجرٍ صلدٍ من الصّوّان، يكتب على جدار الكهف، يُحاول أنْ يرسم وجه جميلة، إنّه الوجه الّذي أزال عن وجه الحياة الضّاحك طبقاتٍ سوداء من غبار السّنين، يجلسُ صامِتًا عاقِدًا كَفَّيه تحت ذقنه، يقوم مضطربًا، يُحِدّ النّظر إلى سقف الكهف، علَتْه البُقَع الخضراء لعفنٍ قديمٍ من رطوبةٍ ترشح من الأجران، يرى حروف العربيّة تتساقطُ كما لو كانت قطراتٍ من ندًى تنزّ من تلك الأجران، إنّ حروف العربيّة ندى، وإنّها لتُنعِشُ القلب. يراقبُ النّهار وهو يرحل، والضّوء وهو يهرول بعيدًا، ينسحبُ من المكان، يتحرّك أمام الكهف، يتلو لاميّة

الشّنفرَى، يصرخ، يهدأ قليلاً، وينظر في نهاية النّهار إلى الأفق، فيراه مُضرّجًا بالدّم القاني، كأنّما قَتَلَه اللّيل، وسحبَ عليه سِرباله الأسود، ورويدًا رويدًا بدأ لون الشّفق الأحمر يزداد كثافةً حتّى ازرقّ، ثُمّ صار كُحليًّا، ثُمّ أتمّ لباسَه ثوبَ اللّيل فاسودّ تمامًا. وأصابَتْه بهجةٌ مُفاجِئة، وتركَ الكهف، وراح يهبطُ الجبل باتّجاه القرية، وواصل سيرَه الحثيث تُجاه المقبرة، كانت الشّوارع قد بدأتْ تُصبح خاليةً، والمحلاّت قد بدأتْ تُغلِق جواريرَها، والحمير المُحمّلة بالحطب تعود أدراجَها إلى أُطُمِها. وسرّه انسراب النّاس من الطّرقات، واختفاؤهم في بيوتهم، وأَنِسَ بهذا الفراغ الجميل، واسترقَ الخطوات جذلان، حتّى وقف بالباب، وشعرَ أنّه ينفتح له دون أنْ يلمسه، وأزّ حديدُه القديم، ودخل، فرأى عن يمينه قبر الشّيخ إمام مسجد الصّفا، وقرأ على روحه الفاتحة: «فلْترقدْ روحُكَ بسلام». وظلّ يمشي حتّى وافَى قبرَ أمّه. كانت الشّاهدة ما تزال شاهدةً، إنّه يعودُ في النّهاية إلى أمّه، «نحنُ كلّنا نعودُ إلى أمّهاتنا بطريقةٍ أو أخرى». كان قبرُها حقيقيًا إلى الحدّ الّذي كادَ يُنكِر فيه ما تبقّى من أبيه، وهو عظمة إصبع السّبّابة، وتحسّسها في رقبته، كان قد ثقبها، ونظَمَها بعِقدٍ أسود، وعلّقها في عنقه، وقرفصَ أمام القبر، ورفع العظمة، وهتف: «أهذا كلّ ما تبقّى منك؟». وسمعَ صوتَ أمّه:

«لن يتبقّى منّا شيءٌ». وسألها: «أنتِ هنا؟». «أنا معك؟». «لقد تخلّيتُ عنكِ فلِمَ لا تتخلّينَ عنّي؟». «أنا لن أتخلّى عنك حتّى ولو رُمّتْ عِظامي، أنتَ ابني، أنتَ صالح، ولكنّ رؤوس الشّياطين تخطّفَتْك منّي، أما آن لك أنْ تعود؟». وثقبَ السّؤال الأخير فؤاده، وانسلّتْ دمعةٌ من عينِيه، وسألها: «كيفَ أعود؟». فردّتْ: «إنّه ينتظرك، فقط فتّش عنه في قلبِك». وسألَها ليتأكّد: «آللّه؟». «وَمَنْ سِواه؟! وإنّه يُحبّك». «وإنّني في حُبّه». «فأصغِ له، فقد صَمَمْتَ أذنَيكَ عن نداءاته طوال مسيرتك، وما تَركَكَ في أيّ مُنعطفٍ منها، ولا في أيّة لحظةٍ من ليلٍ أو نهارٍ إلاّ دعاكَ إليه». وبكى، وهوى بجسده النحيل، فمدّ ذراعَيه على اتّساعهما واحتضنَ قبرَها، وأرخَى رأسَه فوقَه، وهتف وهو ينشج: «هل تُسامحينني؟». «أنا ما غضبتُ منك حتّى أُسامحك، ولكنْ إذا كنتَ تريدُ لروحي أنّ تهنأ في رقدَتها فأقبِلْ على مَنْ أقبلَ عليك». ونامَ إلى جِوارِها تلك اللّيلة، فلمّا طار غراب اللّيل، ونهضَ عصفور الصّباح، فصاح، استيقظ. وعادَ إلى الكهف.

ولقيَها عندَ البيت، البيت الّذي تغنّي فيه الرّيح غناءَها الشّجيّ مرّتَين في اليوم؛ حينَ تأخذ الشّمس بيد النّهار في أوّله، وحينَ تتركه باكيةً لقبضة اللّيل في

آخره، وقالتْ له: «البيتُ حَيّ، إنّه نابضٌ بك». وردّ: «لو كان نابِضًا بِي لَما هانَ عليّ أنْ أُحرقه». «لم تكنْ أنتَ حينَ فعلت، كانتْ تتنازَعك أشباهُك». وحدّث نفسَه هامِسًا: «هذه الجميلة تعرفني أكثر مِمّا أعرفُ نفسي». وسألَها ضاحِكًا: «هل لديكِ رغيفَ خُبزٍ فإنّني جائع». «لن يُشبعك إلاّ الخبز الّذي أُطعِمكَ إيّاه، فأقْبِل». وأقبلَ فإذا هي الدّنيا في حلاوتها، والحياة في طلاوتها، والعمر في نداوته، والفرح في بهجته. ومضى ومضتْ.

وكم توالى اللّيل بعد النّهار، وشقّتْ سُدفتُه سُجفتَه، وأكلَ منه حتّى شبع، وشرب منه حتّى ارتوى، فلمّا قامَ إلى دفتره ليكتب، وجدَ أنّ الكلامَ استعصى عليه، وأنّ حاله يُغني عن مقاله، فكفّ. وتتابعتْ عليه الذّكريات، وانهالتْ عليه الصُّور، وتشابكتْ، فلم يدرِ ما كان منها حقيقةً وما كان منها خِيالاً، وما عبر منها به، أو عبر منه بها...! وغرق في طوفان الأيّام، وظهرتْ له (ليندا)، وقالتْ له: «كنتُ أريدُ أنْ أهبكَ سعادةً لم تعشْ مثلَها، ولكنّك نكصتَ في آخر الطّريق عن أنْ تُتِمّه، ولو فعلتَ لوجدتَ حياةً غير الحياة». وهَمّ أنْ يقتلها، ومدّ ذراعَيه، يريدُ أنْ يقبضَ على عنقها فيخنقها، واعتصر ذلك العنق فما أفاق إلاّ وهو يعتصر الهواء، ولا يشدّ إلاّ على قبضتَي كَفَّيه بأصابعه!

وأسندَ ظهره إلى جدار الكهف في عُمقه، ورفع رجله اليُمنى فعقَدَها على صدره، ونظر في الظّلام إلى باب الكهفِ ورآهم جميعًا؛ كان فيه ستّةٌ يتصارعون. لم يكن صراعًا بين الخير والشّرّ، فمنذ أن عاش السّتّة في عقله ومعاني الخير والشّرّ تبدو باهتةً لا قيمة لها، وكان يعتقد أنّ الخير الذي ينتصر قد لا يستحقّ النّصر، وأن الشّرّ الّذي يخسر قد لا يستحق الخسارة. كان على الخير والشّرّ أن يتصالحا في جمجمته لكي يستمرّ في هذه الحياة، أن يسيرا معًا كشقيقين في تلافيف دماغه، لم يكن صالحًا بالضرورة ولم يكن طالحًا بالطبع، كان مزيجًا غريبًا منهما.

فَكّر في البشر الذين يتدافعون تدافع الأمواج إلى الشاطئ الرّمليّ ثم يعودون: «إنهم جيشٌ آخرُ من القَتَلة والشّعراء والأطبّاء والمُهندِسين والمُجرِمين والمُحامِين والمَرضى والعاطِلين عن العمل والمجانين والكَذَبة والآباء الحمقى والأُمّهات البائسات وزُوّار القبور ونُزلاء المَصَحّات النفسية؛ الحياة هكذا، ولن تكون إلاّ هكذا، وعليه أنْ يعرفَ كيفَيعيش وسط هذه الأمواج!

لم يكنْ إلاّ لوحةً مُزيّفة من الفُسيفساء، كانتْ أحجارها السّتّة تتساقطُ حجرًا حجرًا لتكشفَ ما وراء

ذلك القناع المُزيّف؛ لتبدو الحقيقة جليّة، سقطَ ماركس وابنُ عبّاس ونديم وأبو نواس وحافظ، ولم يبقَ إلاّ صالح، ومع أنّه كان أقلّ الأسماء لُصوقًا به، لكنّه ثبتَ معه حتّى النّهاية، والغاية لمن ثبت لا لمن اشتُهِر، والفوز لمن أصابَ لا لمن أثار. كان كلّ سُقوطٍ يُعلِي جانِبًا من صالح، وكلّ رحيلٍ لأحد شخوصِه يُطيل أمدَ بقائه، حتّى شعر أنّ اليوم الّذي سَمّتْه فيه أمّه (صالح) هو اليوم الوحيد الجدير بالبداية من جديد، لقد كان يومَ ولادته، وها هو يُولَد ثانية.

(25)
الانبِثاق

قال له جميل: «هل تُسامحني الآن؟». وردّ عليه: «لأجل عينَيها لا لأجلك». «بل لأجل أنْ ننسى الماضي». وضَحِكا معًا. وغنّتِ النّساء، وهزج الرّجال، وثغت شِياهها فرحًا، ورقصتْ أشجار الحَور في الوادي وتلك الّتي في المقبرة، وسمعت القرية كلّها أنّ طبيبها العبقريّ خطبَ راعية، فهُرِعوا إلى الحفل، فلم يبقَ في القرية ليلتَها أحدٌ إلاّ غَنّى وطرب! وسأله أبوها: «يا دكتور صالح أين ستسكنان؟». وردّ: «في بيتنا الّذي لا يزال هناك في السّفح». «لكنّه مُحترق». «لقد كان احتراقُه فرصةً لكي يعودَ خلقًا آخر».

وعملتْ فيه يدُ جميلة فجَمَّلَتْه، وهل تصنع يدُ الأنثى حينَ تُحبّ إلاّ جميلا؟! غسلتْ أوزار المَكان، وكنستْ غُبارَه وماضيه، وطلتِ الجُدران، ووزّعتْ روحَها الطّيّبة في كلّ زاوية، فزرعت الحديقة بالورود، كلّ زاويةٍ لها وردُها الخاصّ، وسقت الأشجار، واعتنتْ بهيكل السّيارة الصّدِئ، فجلتْ عنها سوادَ السّنين، ولوّنتْ أبوابها، وجوانبها، وعلّقتْ في سقفها أصصًا من الزّهور، وعلى متّكآتِ أبوابِها قوارير من الرّيحان، وزرعتْ في عينَيها نَوْرًا من الزّنابق فأضاءَتا، ومَنْ نظر إلى السّيّارة من

بعيدٍ، رأى مهرجانًا من الورود الثّرثارة والألوان الزّاهية مجتمعًا في موضعٍ واحدٍ.

واعتنَتْ بشجرة الزّيتون، كان لها تاريخ، وعليه أنْ يستمرّ، وكانتْ خيرَ أمينةٍ عليه. وسقاها صالح من حُبّه القديم، فعادتْ إليه، وتمنّعتْ في البداية كأنّها تُعاتبه على ما ارتكبتْ يده، ثُمّ لانَ قلبُها، وسامحتْ، والكبير يغفر، وسرتْ في عروقها الحياة، فراحتْ تمدّ أذرُعَها في كلّ اتّجاه كأنّما تستيقظُ منْ سُباتٍ طويل مرّ عليه سنواتٌ عِجافٌ، وقد قامت من قبرٍ رقدتْ فيه آلاف الأعوام.

وعمدتْ جميلة إلى الدّرجات المُفضِيات إلى العتبة، فأعادتْ لها النُّور، وملأتْها بالخُضرة الطّافحة، وكانتْ إذا وقفتْ هي على تلك الدّرجات بدَتْ جزءًا من اللّوحة فائقة الجَمال، وردةً أخرى تقفُ في حقلٍ من الورود. وتذكّر هو عهدَ الخشخاش فابتسم، ربّ لونٍ زاهٍ يختبِئ خلفَه سُمّ قاتلٌ، وها هي زوجته الشّغوفة تغسل كأس السُّمّ الّتي كان يشربُ بها، وتملؤها شَرابًا طَهورًا.

وامتلأتْ ساحةُ البيت من كلّ لونٍ بهيجٍ، ونظرَ إلى البيت من خلفَ السّياج، في الموضع الّذي وقفَ يومَ غادرَه وهو يحترق، وشهقَ شهقةً كادتْ تطيرُ بلُبّه، وهو

يرى المشهدَين جنبًا إلى جنب، مشهد الاحتراق ومشهد الانبِثاق، مشهد الموت ومشهد الحياة. وفكّر: «هل أعادتْ له جميلة الحياة من بعدِ موت، وجعلته يلتقي نفسَه بعدَ طول ضياع؟!».

وقالتْ له جميلة: «أبيعُ بعضَ الشّياه، وتفتح عيادتك في إحدى غرف البيت». وفعلتْ. واختارتْ له غرفة المكتبة، وقالتْ له: «المكتبة موضع الشّفاء، ويجب أنْ تكون العِيادة فيها». وراحَ النّاس يتقاطَرون إلى عيادته، كان يأخذُ مبلغًا بسيطًا مقابل عِلاجهم، ويُسامح مَنْ لم يكنْ يملك المال من الفقراء، وخصّصتْ له جميلة يومًا في الأسبوع سَمّتْه يوم الوَرْد، قالتْ: «إنّ عليكَ أنْ تُعالِجَ النّاس في هذا اليوم بالمَجّان». وكانت ساحةُ بيتِه في هذا اليوم تزدحم بالنّاس وتفيضُ بهم، حتّى تراهم قد وقفوا خارجَ السِّياج، وكانت جميلة تطبخ لهم وجبة الغداء في هذا اليوم وتُطعمهم، وتقول: «كُلُوا من رزق الله وابتهجوا». وكانت تُحوّل هذا اليوم إلى عُرسٍ أسبوعيّ مشهود، إذ إنّها وفّرتْ للأطفال القادمين في هذه السّاحة بعضَ الألعاب والطّعام، وكانت تضع على الموائد كتبًا لمن أرادَ أنْ يقرأ وهو ينتظر ريثما يحينُ دورهُ فيكشف عليه الدّكتور.

وأحبّهما كلّ مَنْ في القرية، وعادتْ إلى صالح

نفسُه، وقالتْ له: «ليسَ لكَ من اسمٍ غير الّذي أرادَتْه لكَ أُمّك، نحن نعرفُ أبناءَنا ونعرفُ كيف نعتني بهم».
هل كان طفلَها المُدلّل؟!

وقصدَهما النّاس من أنحاء الدّولة كُلّها، وكانوا ملجأ الفقراء، وموئل الأيتام، وملاذ البائسين، وأتاهما مَن يطلبُ الشّفاء ولو بالكلمة الطّيّبة مِن وراء الحدود، وبدأ الماضي الّذي عاشه صالح يُصبح من الماضي، وبدأتْ أيّامه الّتي تزرعها ورودًا جميلةُ في روحه هي الّتي تنمو بثباتٍ وبهدوء، ودار في خَلَدِه: «كانَ يُمكن أنْ نمضي إلى الأمام بِتَركِ كلّ ما خلفَنا خلفَنا».

ولم تتركْ جميلةُ رغم وقوفها إلى جانبه عادَتها في اتّباع شياهها، وسيرها خلفَها إلى أعالي الجبال، وكانتْ تحلبُها وهي تُغنّي أغاني الرّعاة القديمة الشّجيّة إيّاها، تصنع منها الجُبنة واللّبن والزّبدة والسّمن والأقِط، وكانتْ تقول له: «إنّ كلّ نظريّات الطّب الّتي درسْتَها، والفلسفات الّتي تبنّيتَها تُختصَر هنا؛ في هذه الطّبيعة، إنّها أمّنا، الموضع الّذي خرجنا منه وإليه نعود». وتضحك: «لقد أفنيتَ حياتَك في الخروج على قوانين الطّبيعة يا حبيبي، ولكنّها في النّهاية انتصرتْ عليك، لا يجدر بالعاقل أنْ يُحارب نفسَه».

وكان الجوعى يمرّون بالبين، فيطرقون باب الكريم، فتُطعمهم وهي تقول: «خُبزُنا لغيرنا كما هو لنا». وقَسَمت رغيفها بينها وبين أبنائِها، أبناء القرية الوادعة؛ فلم يبقَ جائعٌ في القرية إلاّ قصدَها، حتّى سَمَّوْها أمّ المساكين، وكانت تفرح باللّقب، وكان هو يبتسم، وهو يقول لنفسه: «للحياة وجوهٌ كثيرة، يبدو أنّني كنتُ أجهل كثيرًا منها قبل هذه المرأة العظيمة». وتحوّل بيتُه تدريجيًّا إلى مُستشفًى صغير، وسَمّاه النّاس مُستشفى المساكين. وضَحِكا مَعا وهما يرعيان كلّ هؤلاء المحرومين، وقالت له: «لقد كانوا شفاءَك كما كنتَ شِفاءهم». وردّ: «أكثر مِمّا كنتُ أتصوّر».

ومضى زمنُ السّواقي الّتي تدور في غفلةٍ من الزّمن نفسِه، وسقى الماء كلّ نبتةٍ عطشى فأينَعها، ودار على المحرومين فمنحهم. وأعطته هي كلّ ما تملك، وتعلّم منها أنّ نشوة العَطاء تصغُر أمامها كلّ نشوة. وقذفَ رَحِمُها له سِتّة من الأبناء، وكانَ أكولاً، وكبرتْ كرشُه، فكانت تسبقه إلى سرير الشّفاء، وتضخّم أنفُه، ونمتْ عليه شُعيراتٌ قلائل، كأنّها صَبّار في صحراء، وتدلّتْ النّظارات على صدره، وردمَت الهُوّة الّتي كان يتوهّمها بينهما، وصنعتْ جسرًا عَبَره إلى ضِفّتها بأمانٍ.

وكَبُر أبناؤه، ودرسَ الأكبر منهم الطّبّ، وكان قد

قال له من قبلُ على أريكةٍ في الموضع ذاته: «يا بنيّ إذا أردتَ أنْ تدرس ما يُعينكَ على أنْ تقطعَ هذه الحياة فعليكَ بالأدب، فإنّه أعظم ما أنتجتْه الإنسانيّة». وكان ابنُه الأكبر في غرفة العمليّات، حينَ يُخرِج القلبَ من ذلك الصّدر المُتعَب تُراوده نفسُه أنْ يقضم منه قضمة!

وكان ينامُ في الغرفة الّتي كان أبواه ينامان فيها، وفي ليالي الشّتاء القارِسة، كان يقوم من نومه مفزوعًا، وينظر إلى زُجاج النّافذة فيرى رؤوس الشّياطين تسيل عليها، ومن خلفِ تلك الرّؤوس كان يرى شجرة الزّيتون العملاقة، وهي تشربُ الماء في سكينة، والنّجوم وهي تضحك، والكواكب وهي تواصل سيرَها في المدى الأزليّ، وبدتْ نيويورك من تلك النّافذة بعيدة، بعيدةً جِدًّا!!

انتهتْ

أيمن العتوم

إسطنبول 30-8-2019